الفن الفلسطيني

العدد ٦ كانون اول «ديسمبر» ١٩٧٨

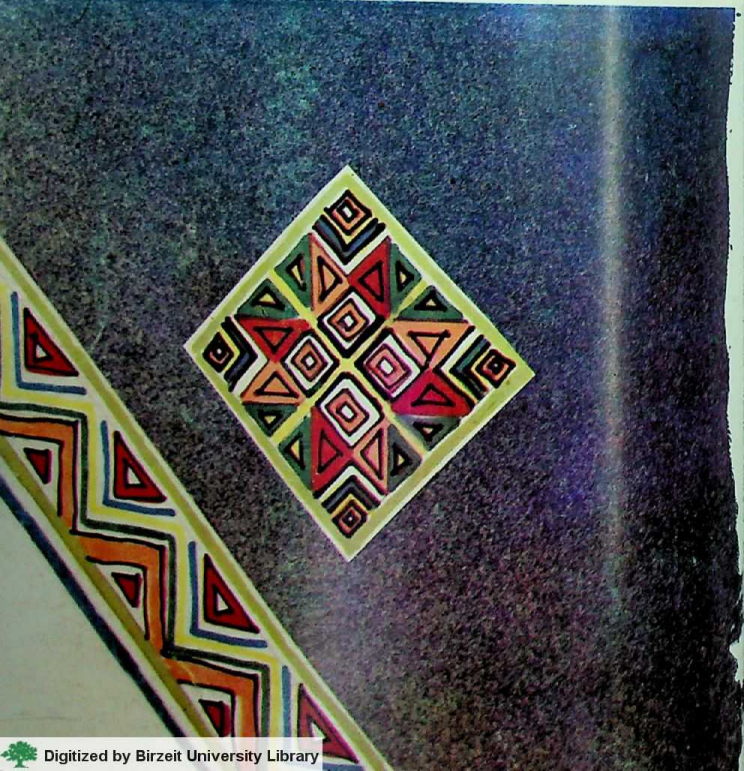

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب الفلسطيني

العدد "٦" كانون اول «ديسمبر» ١٩٧٨

تصدر مرة كل شهرين
عن
الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

29 -03- 1993
Library
UNIVERSITY

المواد التي تنشر تعبر عن
وجهات نظر اصحابها

●

الاشتراكات السنوية

٣٠ ل . ل . في لبنان وسوريا
٦٠ ل . ل . في بقية الاقطار العربية
١٠٠ ل . ل . في اقطار العالم
١٥٠ ل . ل . للمؤسسات

رئيس التحرير
ناجي علوش

نائب رئيس التحرير
رشاد ابو شاور

امانة التحرير
حنا مقبل
يحي يخلف
هاني مندس
جميل هلال
عبد القادر ياسين

المشرف الفني
حسيب الجاسم

المستشارون
عبد الكريم الكرمي
د . احسان عباس
محمود درويش
معين بسيسو
بسام ابو شريف
ناصيف عواد
علي اسحق
خالد ابو خالد
د . سعيد حمود
معن بشور

Digitized by Birzeit University Library

المحتويات

مقالات ودراسات سياسية

٤ كلمة الكاتب ..... حنا مقبل

١٢ الحزب الشيوعي الفلسطيني ضحية التطرف القومي المزدوج ..... احمد فرحان

٤١ الاقتصاد السياسي الجذري ـ اليساري في الولايات المتحدة ..... كوزولوفا

ترجمة: محمد الجندي

٦٢ البحرين: اساليب فاشية ومصادرة حريات ..... اعداد: عبدالله خالد

٧٩ المؤتمر السوري الفلسطيني ..... جان داية

٨٨ الوضع في فلسطين (ربيع ١٩٣٦) ..... ر. فيتول

مقالات ودراسات ادبية وفنية

١٠٢ فلسطينية الرواية السورية ..... نبيل سليمان

١١٨ القصاص اليمني الأول: محمد عبدالولي ..... علي حسين خلف

١٣٤ عن السينما الجزائرية ..... نبيل الدبس

شعر

١٦٠ حرب . حرب . حرب . ..... رياض الصالح حسين

Digitized by Birzeit University Library

١٦٦ تهاليل البحر ..... عصام ترشحاني
١٧٠ العاشق تغسل قمصان العشب ..... محمود علي السعيد
١٧٤ شهادة الحنجر في حضرة الأرض ..... عادل اديب آغا
١٨٠ هما عربان ..... عدنان عمامة
١٨٣ سقط الساحر في النار ..... سليمان السلمان

قصص

١٩٠ بريق العيون والزغاريد ..... محمود قدري
٢٠٠ الرحلة ..... زهيرة زقطان

كتب

٢١٤ لعبة القطط السمان في مصر ..... احمد المصري
٢١٩ وشاح من العشب لأمهات القتلى ..... آدم حاتم
٢٢٢ الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ - ١٩٤٨ ..... عبد القادر ياسين
٢٢٤ العصافير ..... احمد قاسم

تقارير

٢٣٣ بيانات وتقارير نشاط .....

Digitized by Birzeit University Library

كلمة الكاتب

عن الحكم الذاتي ونظام الملك

عندما أعلن **السادات** قراره بزيارة القدس المحتلة ، كان **محمد علي الجعبري** اول الذين وضعهم العدو في قائمة المرحبين به .. ولكن قبل ان يصل **السادات** الى القدس كان الجعبري قد اصيب بشلل نصفي في جسمه ..

حملوه على كرسي متحرك ليرحب بالرئيس ، ولكن قبل ان ينطق بكلمة واحدة انعقد لسانه ، وما زال الرجل مصابا بالبكم حتى الآن !

حدث كل هذا ، بينما العدو الصهيوني يكتشف واحدة من انشط واقوى خلايا الثورة في الداخل . وتكون المفاجأة ان قائد هذه المجموعة هو **نور الدين الجعبري** ، ابن الشيخ الجعبري اياه ..

★★★

ان يقاتل شعبنا ويواصل النضال ، ويلفظ الخونة والخيانة قضية لا تحتاج الى ادلة ، فقد اثبتها هذا الشعب طيلة نضال امتد الى ما يزيد على ثلاثة ارباع القرن . وجسدها خلال الاسابيع الاخيرة ، عبر انتفاضته في الارض المحتلة ، رافضا مؤامرة الحكم الذاتي ونتائج **كامب دافيد** ، والتي جاءت ، رغم كل الظروف السوداوية التي كانت تحيط بالنضال الفلسطيني، نتيجة تلك الموجة الهستيرية العابثة من العنف ، التي وضعت الثورة كلها امام مصير مجهول .

Digitized by Birzeit University Library

ومن هنا ، فان قـــدرة شعبنا عـــلى مواصلة التحدي قـدرة غير مشكوك فيها ·

لم يتعب رغم كل المجازر والطعنات ومؤامرات الخارج والداخل · وظل شامخا يرفض ان ينحني · وسيظل كذلك · ولعل هـذا يجعلنا اكثر جرأة في تلمس تحديات المستقبل ، لنواجهها بصلابة ·

اولى هذه التحديات مؤامرة الحكم الذاتي · فهذه المؤامرة لم تسقط بعـــد · ولم تقبرها مظاهرات ومؤتمرات اهلنا في القدس ونابلس وغزة وبيت لحم · ان المخطط الاميركي – الصهيوني – الرجعي يدرك تماما ان عدم اقامة الحكم الذاتي ، اي عـــدم تصفية القضية الفلسطينية وايجاد الغطاء الفلسطيني للخيانة ، يعني ان كل ما بنـاه التحالف الامبريالي – الصهيوني – الساداتي سيظل معرضا للانهيار في اية لحظة · ان بقـاء القضية الفلسطينية حية يعني بقاء التفاعلات في الارض العربية ، والتي في النتيجة ، قد تقلب طاولة المؤامرة على رؤوس اصحابها !

ولذلك ، فالمخطط يجري ترتيبه وبأحكام :

– **هارولد سائدورز** ، مساعد وزير الخارجيـــة الاميركي ، حدد الربيع القادم موعدا « لتطور اول حركة فلسطينية لاول مرة في التاريخ ، وذلك ضمن الاطار الذي اتفق عليه في **كامب دافيد** » !

– اذاعة جيش العدو حددت يـــوم ١٠\١٢ اسماء حكام الولايات الثلاث ، التي سيجري توزيع الضفة الغربيـــة عليها ، وهي الجنوبيـــة والوسط والشمالية ·

– مصادر وزارة المالية الاميركية اعلنت انها تقـوم ، الآن ، باعداد ميزانية الحكم الذاتي ·

– اخبـار القاهرة تتحدث عـــن ترتيبات توضع لتحويـل وحدات جيش التحرير الفلسطيني (عين جالوت) ، المقيمة هناك ، الى قوة شرطة·

Digitized by Birzeit University Library

ـ تحرك العملاء ـ وفي شعبنا ، ككل شعوب الارض ، عملاء ـ مستمر وعلى اكثر من صعيد ·

وتشهد القنصلية الاميركية في القدس اجتماعات مستمرة ، في الوقت الذي يكثر فيه الحديث عن قيادة فلسطينية بديلة ·

فكيف نتعامل مع هذه المؤامرة المستمرة ؟

عندما قرر العدو اجراء انتخابات بلدية في ألارض المحتلة ، عـــام ١٩٧٢ ، اتخذت المقاومة موقفا رافضا لها · وكذلك فعـــل معظم رؤساء البلديات · واكتفى الجميع بالرفض ·

فماذا كانت النتيجة ··؟

نزل الى البورصة العملاء والسماسرة والسوقيون ، ايضا !

وعندما رأت جماهير البيرة ، مثـــلا ، ان هـــؤلاء سيصلون الى بلديتها ، اعتصمت في بيت **عبد الجواد صالح** الى ان وافق على الترشيح ، رغم قناعته بضرورة المقاطعة ·

يقول **عبد الجواد صالح** : لم اجد مفرا من ذلك ، فلو لم ارشح نفسي لكان رئيس البلدية ، الآن ، احد سماسرة السيارات بين القدس ورام الله، وهو عميل من الدرجة العاشرة على الاقل !

ماذا يعني ذلكَ ؟

انه يعني ، بوضوح ، ان رفض الانتخابات وحده لا يكفي ، مع الفارق الكبير بين انتخابات بلدية يمكن ان يكون فيهـــا اجتهادات متعددة ، وبين انتخابات حكم ذاتي تعني تصفية القضية كلها ·

انه يعني ، وكما قال **بهجت ابو غربية** في اجتماعات المجلس المركزي « بالسكاكين ، بالبندورة ، بالحجارة بالبيض الفاسد ··· علينا ان نفعل ان نمنع اي شخص مـــن مجرد التفكير بالمشاركة في الحـــكم الذاتي · ذلك » ··

Digitized by Birzeit University Library

وغني عن القول بأن شعبنا الذي يستعد للقتال بالسكاكين والحجارة والبيض الفاسد ، يملك امكانات قتالية عالية وكبيرة . ان ما ادخله نور الدين الجعبري ، وحده ، من السلاح الى الارض المحتلة يكفي لاسقاط مؤامرة الحكم الذاتي .

المهم ان يكون قرارنا السياسي واضحا وحازما وحاسما ، فلا نضع شعبنا في مواجهة الاختيارات الصعبة ، كما لا نوقعه في متاهات البلبلة .

وما نقوله عن ضرورة وضوح موقفنا من الحكم الذاتي ينطبق ، ايضا ، على العلاقة مع الاردن .

فمنذ دخل اول فدائي الى الاردن ، عام ١٩٦٥ ، ليتسلل من هناك الى عمق الارض المحتلة ، معلنا بدء ثورة شعبنا المسلحة ، ومنذ ان سقط اول شهداء ثورتنا ، احمد موسى ، برصاص جيش ملك الاردن اصبحت العلاقة مع هذا النظام واضحة واتجاهها محسوما .

ودون ان نعود بالذاكرة الى تاريخ شعبنا مع هذا النظام منذ مؤتمر اريحا مرورا بسياسة القمع الدموي التي حاول فيها ان يقتلع كل نفس وطني وانتهاء بتقديمه الضفة الغربية وعلى رأسها القدس للعدو الصهيوني ، عام ١٩٦٧ ، دون اية مقاومة تذكر .

ودون ان نستعرض جوانب من التاريخ الاسود لهذا النظام ابتداء من تآمره على ثورة رشيد عالي الكيلاني ، وطعنه لاول وحدة عرفها تاريخ العرب بين مصر وسورية ، وغزوه لسوريا عشية حرب حزيران ، ومحاولته تكرار هذا الغزو عشية حرب تشرين ، وانتهاء بدوره المتخاذل خلال هذه الحرب .

دون ان نغوص في كل ذلك ، فان تجاربنا مع هذا النظام ، منذ مجازر ايلول عام ١٩٧٠ ، اكدت سلسلة حقائق :

انه هو المستفيد من اية مفاوضات نجريها معه، ليس فقط لاننا، من خلال ذلك، نبرؤه من كل الجرائم التي اقترفها ضد شعبنا ، وانما لانه هو الذي

Digitized by Birzeit University Library

يحدد مواعيد هذه المفاوضات ، ويختار الاوقات الانسب له · حدث هذا بعد ايلول مباشرة ، عندما عجزت قواته عن القضاء على « بقايا جيوب المقاومة » ، والتي تحدث عنها ، منذ السابع عشر من ايلول ، لحظة بدء المجزرة · فوجد نفسه مرغما على توقيع اتفاقية القاهرة ، خاصة وان جيشه بدأ يتحلل ، وراحت وحدات منه تلتحق بالمقاومة ، او تلزم بيوتها ·

وعندما استعاد النظام زمام المبادرة ، بعد ذلك بأيام فقط ، رفض ان يذيع **اتفاقية عمان** ، التي وقع عليها الملك نفسه · وعندما تمردت جريدة « **فتح** » على قرار المنع ، ونشرت نص الاتفاقية ، اشتعلت عمان كلها في **معركة** دامت يوما كاملا ، قبل ان يضطر النظام للافراج عن الاعداد التي صادرها من « **فتح** » ·

واذا كان بعدها قد راح يراوغ ، ويفاوض ، ليتوصل الى **بروتوكول عمان** ، ثم الى اتفاقيات ما سمى بتنظيم اسلحة الميليشيا ، فان النتائج التي حققها ، وهي خروج الثورة النهائي من المدن ، كانت مقدمة لا بد منها لاخراج الثورة ، نهائيا ، من الاردن خلال مجازر الاحراش ، والتي اسماها الملك ، يومذاك ، « مناورات باشراف **الامير حسن** » بينما كان ثمنها رأس الرجل الذي قال « قررنا ان نموت واقفين ولن نركع ·· والله معنا » القائد الشهيد **ابو علي اياد** ·

وعندما وجد النظام نفسه معزولا والحدود والاجواء مغلقة امامه راح يفاوضنا في جده · فلما فتحت الحدود ادار ظهره ·

وفي تشرين ٧٣ ، لا زلنا نذكر كيف ان وفد الثورة المفاوض لم يطلب سوى قاعدة لعشرة مقاتلين ، يقيمون فيها لمدة ٤٨ ساعة فقط ، يدخلون بعدها الارض المحتلة ليحل مكانهم رفاق آخرون · ومع ذلك رفض الملك ··

وكم سعينا بعد ذلك ·· وكانت النتيجة الرفض والمراوغة ·

وعندما يدعو نظام الملك ، اليوم ، الى التفاوض ، فهو يريد شيئا واحدا ، ان يعزز مواقعه في اي دور قادم له في المفاوضات · ودوره لم يأت بعد ·

Digitized by Birzeit University Library

انه يريد ان يكسب جماهيريا ،وان يعزز صندوقه ماليا .. ومن ثم ليقوم بدوره المطلوب من موقع وطني . الم يكن الفدائي الاول حتى ذبح حتى آخر فدائي في الاردن ؟

ويريد ايضا ان يلتف حول قضية تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية لشعبنا . انه يعترف بالمنظمة انها ممثل الفلسطينيين خارج الاردن . والاردن بمفهومه ، وقانونيا يشمل الضفتين !!

قد يكون هناك من يقول ان قضية التمثيل غير مطروحة . اذ لم يعد للفلسطينيين دور في التسوية .

لهؤلاء نقول ، ونحن كنا دائما ضد التسوية وسنظل . لا : ان آفاق التسوية لم تغلق .. وسيظل هناك من يحاول ان يجر الفلسطينيين اليها !!

وعلينا ان نفتح عيوننا جيدا .

- حقيقة اخرى اكدتها علاقتنا مع النظام الملكي في الاردن ، انه لن يسمح لنا ابدا بقتال العدو الصهيوني . حرمنا دائما من ذلك يوم كنا نعيش تحت « بساطير » جنوده ، ويوم اكلت لحم شبابنا واطفالنا جنازير دباباته . ويوم وضع شبكة انذار بينه وبين العدو الصهيوني يرشد عن اي تحرك لثوارنا باتجاه الارض المحتلة .

وعندما كنا نفاوضه ، قبل ايام في عمان ، كان جنوده يقتلون احد ثوارنا ويأسرون آخر ، لانهما كانا في الطريق الى الارض المحتلة !

- والنظام، وهذه حقيقة ثالثة ، لن يكون الا اداة للامبريالية الاميركية .

صحيح انه وجد نفسه ، الآن ، على رصيف التسوية الراهنة . ولكن الامبريالية لن تجد نظاما يخدم مصالحها وينفذ مخططاتها ، بكل دقة وامانة ، افضل من النظام الحاكم في عمان ، خاصة وان هذا النظام قد تمكن ان يتثبت ، وعن جدارة ، خلال ربع قرن ، انه قادر على اداء الرسالة بكل امانة ودقة ، ومهارة يحسد عليها . واذا بدا ان الامبريالية قد اعطته اجازة مؤقتة ، فان وراء ذلك ، بالاضافة الى اسباب اخرى ، ضرورات اعطاء هذا النظام المزيد من حقن الحياة لتجديد شبابه .

Digitized by Birzeit University Library

سيظل نظام الملك هو نظام الملك ، فهو لا يملك غير هذا · ان القضية ليست قضية انفعالات عابرة ، او مواقف ردود فعل ، تحولـه من نظـام غارق حتى اذنيه في الخيانـة الى نظام وطني · ان موقع النظام تحدده ارتباطاته ودوره ·· ومن يمثل ؟ !

ان الملك يعرف ان قطار التسوية الامبريالية ، سيصطدم بجداره ، وبالتالي فان اعترافه الصوري بنا يظل صوريا ، ورفضه **لكامب دافيد** يظل ايضا ،صوريا · وهو بذلك لا يخسر شيئا ما دام دوره مؤجلا ·

هل يعني ذلك ، انناضد العودة الى الاردن ؟

واننا ضد ان يكون الاردن ، ولو مؤقتا ضد **كامب دافيد** ·

قطعا لا ···

ولكن على اي اساس ، ومن اي منظور ، وكيف ؟

القضية التي يجب ان نحسمها اولا ، ان الاردن ليس ارضا صديقة ، وليس ارضا حليفة · ان الاردن قاعدة الثورة ، ارضها الآن مغتصبة من نظام الملك ··

عند ما نحسم هـذه القضيـة، فان كل الامـور الاخـرى تصبح من التفاصيل ·

كيف نسترد ارضنا ·· كيف نعود الى جماهيرنا ؟

حتما ، لن يكون ذلك عبر مفاوضات تجري في عمان

لن تكون الا عبر تنفيذ قرار الشعب التاريخي ، بان **عمان هي طريق القدس** ·

لقد تراكم الغبار حول هذا القرار ، ولكن القرارات التاريخية تطل برأسها في اللحظات التاريخية ·

ونحن نعيش ، الآن ، هذه اللحظات · فما جرى بين سورية والعراق سيترك بصماته على اوضاع المنطقة كلها · وعلينا ان نناضل لكي نستفيد من الظروف التي خلقها هذا الميثاق لنعزز قدراتنا ، ولنزد من ازمة نظام الملك ، لا ان نعمل على اخراجه من هذه الازمـة ، تحت اي شعار ·· او ذريعـــة ! !

حنا مقبل

Digitized by Birzeit University Library

(ابو سلمى) شاعر فلسطين
الاحتفال به ، احتفال بالثقافة الفلسطينية

ان يمنح **ابو سلمى** جائزة اللوتس يعني ذلك التكريم الحقيقي للثقافة العربية الفلسطينية ، ويعني ذلك ، ايضا ، ان **ابو سلمى** الشاعر الذي لم يحن رأسه ولم يؤجر حنجرته ، ولم ينتم لغير الجماهير ، والذي احب فلسطين كاملة واحدة ، جسد في شعره ، وحياته شرف الثقافة الفلسطينية ، وتقدميتها ، ونبلها ، ولذا استحق عن جدارة ان يكرم بهذه الجائزة الكبيرة ، ولذا استحق كل هذا التكريم من كتاب وادباء ، وفنانين وصحفيين ، بل وكل مثقفي الشعب الفلسطيني، المثلين باتحادهم ، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، واضافة الى ذلك كل هذا التقدير والحماس من منظمات وهيئات الشعب العربي و الفلسطيني .

نحن نكرم هذا الشاعر الانسان وهو في قمة عطائه ، وحضوره ، لانه كرم الثقافة الفلسطينية ، وكان واحدا من رواد الكلمة الفلسطينية المقاتلة ، الكلمة التي لم تهادن ، ولم تتردد ، ولا جاملت ، ولا كانت لزعيم . الكلمة التي خرجت من القلب ، والروح ، والانتماء ، فكانت للناس . الكلمة التي مكثت في الارض لانها نافعة ، ولانها صادقة . فكان ان اخصبت كل هذا الحب .

لقد منحت اللوتس اربع مرات لادباء فلسطين ، **لمحمود درويش ، ولغسان كنفاني ، ولكمال ناصر** ، ثم لجيل الآباء ممثلا **بابي سلمى** ، وان يحق لاجيال الشعراء والكتاب الفلسطينيين ان يفخروا ، وان يرفعوا رؤوسهم بما اعطوه لثقافتهم العربية ، ويحق لهم ،ايضا ، ان يدركوا ثقل العبء الواقع على اقلامهم .

وفي كل الاحوال ، فانهم ، باحتفائهم ، واحتفالهم (بوالدهم) **ابو سلمى** انما يحتفلون بالثقافة الفلسطينية ، التي لم تساوم ، ولم تهادن ، والتي رأت فلسطين ، كاملة واحدة ، رغم كل فترات السواد .

« **الكاتب الفلسطيني** »

Digitized by Birzeit University Library

الحزب الشيوعي الفلسطيني ضحية التطرّف القومي المزدوج

احمد فرحان

يعود الحزب الشيوعي الفلسطيني في نشوئه ، اساسا ، الى يسار الحركة الصهيونية ، ويعتبر امتدادا لها ، ونتيجة لصراعاتها ، وظل محكوما بمازقها التاريخي ، رغم كونه يشكل نقيضا نظريا لها .

نشا يسار الحركة الصهيونية في العالم مرافقا لمرحلة التطور الصناعي الرأسمالي في روسيا واوروبا الشرقية ، في القرن التاسع عشر ، حيث جرى تدمير الاقتصاد الاقطاعي والاشكال البدائية للرأسمالية ، بسرعة تفوق تطور الرأسمالية الحديثة في البلدان الشرقية ، ثم تم تدمير الغيتو اليهودي ، وقذف باعداد هائلة من اليهود نحو مواقع العمل ، وظهرت مجموعات يهودية متاثرة بالافكار الثورية نتيجة مواكبتها للمرحلة التي عاشتها اوروبا الشرقية بشكل عام ، وروسيا بشكل خاص.

ان حديثنا المحصور عن روسيا واوروبا الشرقية ، دون غيره ، يعود لكون المسالة اليهودية قد حلت وانتهت في اوروبا الغربية ، منذ فترة غير قصيرة ، حيث ساهم التطور الرأسمالي والصناعي في تفتيت التجمعات اليهودية ، والقضاء على سيطرتها التجارية البدائية ، ومن ثم اندماج مجموعاتها بالمجتمع .

ولاول مرة في التاريخ المعاصر نشات منظمة سياسية خاصة باليهود ، في ايار ١٨٧٦ ، وسميت باسم (اتحاد الاشتراكيين العبرانيين) . وبعدها تاسست في جنيف مجموعة الاشتراكيين اليهود عام ١٨٨٠، كما تأسس في نيويورك « اتحاد النقابات اليهودية الموحدة » عام ١٨٨٨ م ، ومع التطور الذي احدثته الثورة الصناعية ، والمشاكل التي عصفت بالعالم سعى عدد من اليهود الى تجميع مؤسساتهم الخاصة في محاولة منهم للابقاء على كيان خاص بهم ، يمكنهم من التكتل لمعالجة مشاكلهم، وكانت اولى تلك المحاولات التوحيدية قد جاءت من قبل المجموعات اليهودية الثورية انذاك في اوروبا الشرقية ، حيث توحدت جميع الحلقات الاشتراكيةالثورية في روسيا وبولندا ، تحت اسم الاتحاد العام للعمال اليهود سنة ١٨٩٧ ، ويسمى ، اختصارا ، البوند ، واتخذ من فينا مقرا له (١) .

وحيث ان موجات الهجرة اليهودية ، الى فلسطين وغيرها ، كانت في غالبيتها من اوروبا الشرقية ، وروسيا ، فان عددا من المهاجرين كان متاثرا بالافكار الثورية هناك ، دون ان يكون ملتزما

(١) المشرق العربي في النظرية والممارسة الشيوعية ١٩١٨ ـ ١٩٢٨ سليمان بشير ـ دار القرامطة ـ القدس ، تشرين اول ١٩٧٧ ، ص ٨٨ .

Digitized by Birzeit University Library

تنظيميا بالاحزاب الشيوعية • وتدل الهجرة الى فلسطين ، تحديدا ، على تاثرهم بالحركة الصهيونية ، وافكارها ، وانجرارهم في اطار مخططاتها الاستيطانية ، اكثر من التزامهم بالمفاهيم الماركسية للمسالة اليهودية ، التي تتعارض مع اهداف ومرامي الحركة الصهيونية • لذلك فان الحركة الشيوعية في فلسطين لم تكن وليدة استقطاب ناتج عن صراع طبقي ووطني في فلسطين ، ولا هي امتدادا تاريخيا للحركة الوطنية العربية الفلسطينية من خلال صراعها ونموها ، اذ ظلت محصورة ـ الى حين ـ في اطار المهاجرين اليهود ، الغرباء عن الوطن ولغته وثقافته، محكومة بالدوران ضمن مشاكله •

ومن هنا فان الاطار الذي بدأت فيه النشاطات الشيوعية الاولى في فلسطين كان اطار الحركة الصهيونية ، وبالتالي فان الحركة الشيوعية في فلسطين نشأت داخل نقيضتها الحركة الصهيونية (٢) •

لقد حاول اليسار الصهيوني ، في البداية ، العمل على ايجاد نظريته الخاصة ، من خلال ما اسماه الحل الاشتراكي للمشكلة اليهودية ، ومن خلال ما طرحه انذاك ـ الاشتراكية الصهيونية ـ في محاولة منه للتوفيق بين ولائه النظري « للاشتراكية » وواقعه العملي داخل الحركة الصهيونية • ومن هنا بدأ الاساس الخاطىء الذي انطلق منه الحزب الشيوعي الفلسطيني ، فيما بعد ، في محاولة عقيمة للعمل داخل المؤسسات الصهيونية ومن اجل القضاء على صهيونيتها !!

ان هذا الوضع الشاذ كان يعبر عن عدم فهم صحيح لطبيعة الحركة الصهيونية، وتركيبها ، وما جره هذا الفهم الخاطىء من مراهنة على تفجير الصراع الطبقي داخل التجمع اليهودي ، حيث اعتبر ، تجاوزا ، ان التفاوت في المصالح الاقتصادية داخل ذلك التجمع كفيلة بجعل مصيره لا يختلف عن مصير المجتمعات الاخرى في العالم ، ولم تؤخذ بنظر الاعتبار كون المهمة الاساسية المركزية للعمال اليهود في فلسطين هي الاستيطان ، اي الصراع الدموي مع العمال والفلاحين العرب • مما يجعل العامل اليهودي في فلسطين ، جنديا استعماريا واداة للقمع والتشريد •

ومن هنا يعود السبب الرئيسي لعدم قدرة الشيوعيين على بناء حزب شيوعي حقيقي وسط التجمع الصهيوني المركب من طبقة العمال المهاجرين اليهود وغيرهم • وحيث ان الصدام اليومي لهم مع جماهير الشعب العربي في فلسطين ، فان ذلك فرض استمرار بقائهم ادوات بيد القيادة الصهيونية • ان حال العمال اليهود في فلسطين مشابه ، الى حد كبير ، حال المجندين الفقراء الاسبويين والافريقيين في الغزوات التي تقوم بها الدول الامبريالية للشعوب الاخرى ، انهم الادوات الفاعلة للحركة الصهيونية •

لقد حالت الهجرة اليهودية الى فلسطين وما نتج عنها من ظروف ، دون شن العمال اليهود نضالاتهم الطبقية ضد البرجوازية اليهودية والاستغلال ، ودفع الصراع مع حركة التحرر العربية ، العمال اليهود ، ويسار الحركة الصهيونية نحو مواقع الاستعمار ، وزاد من حتمية التصاقهم بالحركة الصهيونية وان افضل ما وصل اليه موقفهم كان محصورا اساسا على مستوى التصدي النظري والايديولوجي للصهيونية • اما من الناحية العلمية

---

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٤ •

Digitized by Birzeit University Library

فان غالبية ممارساتهم كانت تدور ضمن مخطط الحركة الصهيونيـة ، منـذ ان اصبحوا جزءا من حركة الهجرة الصهيونية الى فلسطين ٠

لقد وقفت المنظمات الاشتراكية والعمالية اليهودية ، منذ وقت مبكر ، ضد اهـداف الحركة الصهيونية في اقامـة كيانها الخاص في فلسطين ، حيث حـدد البونـد موقفه ضد الحل الصهيوني للمشكلـة اليهودية ، منذ عام ١٩٠١ ، الا ان هـذا الموقف لم ينعكس ، تماما ، على التـزام يسار الحركة الصهيونية به ، بل انعكس جزئيا ٠ ذلك ان الاشتراكيين اليهـود الذين غادروا اوروبا الشرقية وروسيا قد اقتربوا من مواقع الحركة الصهيونية ، من خلال هجرتهم الى فلسطين ، لكن ذلك لا يعني تسليمهم الكامل بكافة جـوانب مخططاتها الاستيطانية ، وكانت اول بداية منظمة ليسار الحركة الصهيونيـة في فلسطين قد حصلت في تشرين اول ١٩١٩ بتشكيل (حزب العمال الثوري) ، الذي قرر في مؤتمره الاول « بان الشغيـلة اليهود سوف يسيرون ، جنبا الى جنب ، مع سائر جماهير الشغيلة فـي البـلد (فلسطين) بدون اي تمييز قومي » ٠ واعرب اعضاء المؤتمر عن رغبتهم فـي النضال والتعـاون مع سكان فلسطين العرب ضد الامبريالية والصهيونية(٣) ٠

ان هذا هو اول موقف نظري ليسـار الحركة الصهيونية في فلسطين ضـد الحركة الصهيونية ، على ان ذلك لا يعني من ناحية التطبيق العملي ، انحيازا كاملا نحو مواقع الحركة الوطنية العربية ، بل ان محاولات حزب العمال الثوري كانت تستهدف ، عمليـا ، تطوير الحركـة الصهيونية نحو مواقع « اشتراكية » .. حيث رفع الحزب شعار « الصهيونيـة البروليتارية » ٠ وشارك هـذا الحـزب في المؤتمر الخامس لعمال صهيون المنعقد في فيينا ، ٧ تموز ١٩٢٠ ، محاولا النضال داخل المؤسسات الخاصة بالحركـة الصهيونية ، متخذا في داخلها مواقعـه الخاصة ، مراهنا على امكانيـة تغيير تركيب الحركة الصهيونية من حركة رجعية استعمارية الى حركة « عمالية » ، حيث قال مندوبه في المؤتمر « ان البرنامـج الصهيوني في فلسطين برنامج تضليلي ... وحذر من السير في سياسة التواطؤ مع الامبريالية البريطانية ضد الجماهير العربية » (٤) ٠

ان هذا الموقف قد احدث خلافا حـادا داخل المؤسسات الصهيونية نفسها ، او بالاحرى داخـل اهم مؤسساتهـا (اتحاد عمال صهيون) ٠ وقد حصـل انشقاق داخل ذلك المؤتمـر ، حيث قرر اليسار الصهيوني عدم المشاركة في اي نشاط صهيوني ، بسبب تحالفات الصهيونية مع بريطانيـا ، وطالب بالانتساب الى الاممية الثالثة (الكومنترن) (٥) ٠

اما يمين الحركة الصهيونية في ذلـك المؤتمر فقد قرر الانفصال عن الاممية الثانية ، دون الانضمـام الى الاممية الثالثة ، والعمل على تشكيل اممية جديدة ، وقد وقف فرع فلسطين الى جانب

---

(٣) موسى خليل ـ مجلة شؤون فلسطينية ـ العدد ٣٩ من ص ١١١ ـ ١٤٢ ٠
(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٣ ٠
(٥) سليمان بشير ـ المشرق العربي في النظرية والممارسة الشيوعية ١٩١٨ ـ ١٩٢٨ ٠ القدس ـ تشرين اول ١٩٧٧ ص ٩٤ ٠

Digitized by Birzeit University Library

بمبن الحركة الصهيونية ، وتراجع ، نتيجة لذلك حزب العمال الثوري عن مواقفه السابقة المتناقضة مع الحركة الصهيونية متنصلا من موقف مندوبه في المؤتمر ، وكرس ذلك التراجع في مؤتمره الثاني ، المنعقد في اكتوبر ١٩٢٠ ، في حيفا بفلسطين ، حيث شخص المشكلة العالمية للشغيلة اليهود « في انها تكمن في عدم وجود ارض لهم » ٠

بعد انشقاق عمال صهيون ، في فيينا، تموز ١٩٢٠ ، وتراجع حزب العمال الثوري في فلسطين عن مواقفه السابقة ، قامت فئة صغيرة ثبتت على مواقفها المضادة للحركة الصهيونية ، بتأسيس حزب جديد لها في فلسطين اسمته (حزب العمال الاشتراكي) ، في اول تشرين اول ١٩٢٠، وقد اعترف بها يسار عمال صهيون ، كفرع فلسطيني له ٠ واقر هذا الحزب الجديد « بأن على العمال اليهود الوقوف الى جانب العمال الاخرين ، دون اخذ انتمائهم القومي بعين الاعتبار ٠٠٠ورفض الخط السياسي للقيادة الصهيونية ٠٠٠ دون رفض المشروع الصهيوني ككل ، حيث نادى ، ايضا ، بضرورة الهجرة الكثيفة الى فلسطين (٦) ٠ ويبدو ان حزب العمال الاشتراكي هذا قد شكل نقطة التقاء للعناصر التي شاركت ، فيما بعد بتأسيس الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠

وكان اول نشاط جماهيري نضالي للحركة « اليسارية الصهيونية » ضد الصهيونية والاستعمار البريطاني ، اظهر فيه اليسار الصهيوني ترابطا كاملا بين الصهيونية والاستعمار ، كان اول ايار ١٩٢١ ، حيث قامت مظاهرة جماهيرية احتفالا بعيد العمال العالمي ، نظمها حزب العمال الاشتراكي ، ويروي ا٠ فيجيدور ، في مقالة حول الحركة العمالية في فلسطين ، الحادثة فيقول «في الاول من ايار ١٩٢١ نظم الشيوعيون مظاهرة٠٠اما السكان المحليين، الذين شجع المستفزون الانجليز والفرنسيون من ناحية وقادتهم القوميون من ناحية اخرى ميولهم الى المذابح ، والذين لم يدركوا اهمية هذه المظاهرة ، فقد انقضوا على المتظاهرين ، وقاموا بمذبحة شاملة لليهود ، ونتيجة لذلك قتل حوالي ٢٠٠ شخص ، الامر الذي دفع الانجليز والصهاينة ، على حد سواء ، بتحميل الشيوعيين مسؤوليته ، لذلك قامت السلطات بطرد رفاقنا النشطين من البلاد، في حين اجبر الاخرون على الانتقال الى النشاط السري » ٠

ثم جاءت الاشارة الثانية لهذه الحادثة البارزة في وثائق المقاومة العربية بالشكل التالي « ان اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي في فلسطين » (لم يكن في تلك الفترة حزب شيوعي في فلسطين وانما المقصود على ما اعتقد هو حزب العمال الاشتراكي) ، قد اصدرت بيانا ورد فيه ما يلي « يعيش معكم العمال اليهود الذين لم يأتوا لاضطهادكم ، بل كي يعيشوا معكم ، وهم مستعدون للجهاد بجانبكم ضد هؤلاء الاعداء الماليين من اليهود والعرب والانجليز ٠ ان البلاد معطلة لا زرع فيها ولا عمل ، ولكن اذا كانت ملكا للذين يحرثونها ويزرعونها ويستثمرونها ، فانها تكفي الجميع ، واذا

(٦) المصدر نفسه ٠

Digitized by Birzeit University Library

كان اصحاب الاموال يدفعونكم ضد العمال اليهود حتى يامنوا من تعديكم عليهم ، فهل تبقون على خطاكم هذا ؟

« ان العامل اليهودي ، جندي الثورة ، جاء يمد يده الى ايديكم ، كزميل لكم لمقاومة الماليين الانجليز واليهود والعرب، ومصيركم واحد في الحرية ام في الاضطهاد ... ولا تنتهي عذابات العمال والفلاحين الا اذا تحرروا جميعا من هذه العبودية الضاغطة عليهم ... ان هذا العيد العام يجب ان يكون عيدكم ، اتركوا العمل في هذا اليوم ، واخرجوا في الشوارع ، واهتفوا تحت العلم الاحمر ، فلتسقط الحراب الانكليزية والفرنسية وليسقط اصحاب الثروات العرب والاجانب ولتحيي المؤتمر الثالث الدولي الشيوعي، ولتحيي الثورة الاجتماعية في العالم ، لتحيي سلطة العمل ، ولتحيي فلسطين السوفييتية » (٧) .

لقد اظهر اليسار الصهيوني ، بهذا البيان ، موقفان اساسيان ، اولهما ربطه بين الاستعمار الانكليزي والصهاينة والاثرياء العرب كقوى مضادة للعمال ، وبذلك كان سباقا في تحديد قوى الثورة المضادة : الامبريالية ، والرجعية العربية والصهيونية ، واكد ، في الوقت نفسه ضرورة التضامن الطبقي للعمال جميعا . وثانيهما موقفه الداعي للعمال العرب لقبول « التنازل » عن وطنهم للعمال اليهود القادمين، بحجة ان البلاد تكفي للجميع . ويروي الدكتور عبد الوهاب الكيالي الحادثة المذكورة كما يلي « مساء ٣٠ نيسان عام ١٩٢١ وزعت مناشير شيوعية ، باللغات العبرية واليديشية والعربية ، داعية للتوقف عن العمل ، احياء لذكرى يوم اول ايار . كما دعت الى قيام العمال « البروليتاريا » في وجه البريطانيين ، واقامة سوفييت فلسطين ، وفي صباح اليوم الاول من ايار اصطدمت (بتل ابيب) تظاهرة صهيونية اشتراكية بتظاهرة اخرى غير مرخص بها ، تضم نحو ٥٥ شيوعيا ، يحملون العلم الاحمر ، ونتيجة للاصطدام اجبر الشيوعيون (البولشفيك) على الخروج من تل ابيب ، ملتجئين الى حي المنشية الاسلامي - اليهودي المشترك في يافا ، وعندما حاول افراد البوليس تفريق البولشفيك شمل ذلك سكان الحي المسلمين ، فثارت اضطرابات عامة سرعان ما عمت المدينة بأسرها ، واثارت شائعات عن قيام اليهود بالهجوم على حي المنشية غضب العرب » (٨) . وقد سميت هذه الاحداث ، وما رافقها من اصطدامات شاملة بين البوليس والعرب ، بثورة يافا، وقد دلت على مدى عزلة الشيوعيين اليهود عن الجماهير العربية ، التي ، بدلا من احتضانها لهم ، اصطدمت بهم . وبعد هذا الامتحان العسير لليسار الصهيوني في مقدرته على التصدي للحركة الصهيونية والاستعمار البريطاني والانحياز الى العرب ، ظهر بوضوح عدم قدرة الشيوعيين اليهود واحزابهم على الاستمرار بهذا النهج ، وتحمل مسؤولية واعباء المواجهة الصعبة ، خاصة وان التركيب الداخلي والبناء الايديولوجي لاحزابهم لم يكن يسمح بذلك . لذا فقد حصلت انقسامات

(٧) وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ - ١٩٣٩ . - اصدار مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٨ ص ٢٤ - ٣٥ .

(٨) عبد الوهاب الكيالي - تاريخ فلسطين الحديث ص ١٧٤ - ١٧٥ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسة والنشر ، ١٩٧٣ .

Digitized by Birzeit University Library

عديدة في الحزبين الاصليين لليسار الصهيوني : حزب العمال الاشتراكي وحزب العمال الثوري ، وانقسما الى مجموعات متعددة ، كان من ابرزها مجموعة (بيرغر) ومجموعة (اورباخ)، واضيفت الى المجموعات السابقة ، التي نشأت ما بين عامي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ كقوى معارضة داخل الحركة العمالية الصهيونية ٠

بعد تلك الفترة عاشت القوى اليسارية الصهيونية حالة من التبعثر في فلسطين، وخاضت صراعها مع الحركة الصهيونية العالمية ، في محاولة فاشلة لدفعها ككل نحو مواقع الحركة الشيوعية العالمية ٠ وبعد تيقنه من ذلك حين هزم اقتراحه في المؤتمر الخامس لعمال صهيون ، حاول ان ينضم هو الى الاممية الشيوعية الثالثة ٠ ففي اواخر سنة ١٩٢١ ، وبعد ان قدم يسار عمال صهيون طلب الانتماء الى الكومنترين اعطت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية رأيها عقب مؤتمرها الثالث ، مشترطة على الاتحاد العالمي للعمال اليهود ـ عمال صهيون ـ حل نفسه ، وقطع علاقاته بالحركة الصهيونية والتزامه بمقررات الاممية الثالثة٠وكانت اللجنة التنفيذية للكومنترين قد دعت ، في اب ١٩٢١ ، وبعد الخلافات مع يسار عمال صهيون حول مسالة فلسطين ، الى اعتبار « فكرة تجميع جماهير العمال اليهود في فلسطين ، بهدف خلق الاساس اللازم لتحريرهم المادي والاجتماعي ، هي فكرة طوباوية واصلاحية ستؤدي في النهاية الى نتائج مضادة للثورة » (٩) ٠ وفي محاولة اخرى لجر الحركة الصهيونية نحو الموقع غير الاستعماري ، عقد يسار عمال صهيون مؤتمرا خاصا، في فيينا ، في تموز ١٩٢٢ ، حيث ناقش شروط الكومنترين للانضمام اليه ولقد رفضت غالبية المؤتمر تلك الشروط ٠ ووقف مندوب الفرع الفلسطيني والفرع الروسي الى جانب الاقلية التي دعت الى القبول بشروط الكومنترين ، ونتيجة لهذا الموقف دعا الكومنترين ، في ٢٥ـ٧ـ١٩٢٢ ، وبعد انتهاء المؤتمر مباشرة ، الى الدعم الكامل والفعال للاقلية داخل يسار عمال صهيون في صراعها ضد الاكثرية ، وذلك في حال قبول الاقلية للشروط الكاملة للكومنترين ٠

ادى فشل المفاوضات بين يسار عمال صهيون والاممية الشيوعية الثالثة الى انشقاقات فورية داخل «اليسار» المذكور، واعيد تشكيل حزب اليسار الصهيوني ، بعد ذلك ، متخذا اسم الحزب الشيوعي اليهودي ، لكنه لم يعمر طويلا في فلسطين ، حيث حصل انشقاق ، في مؤتمره المنعقد في ايلول ١٩٢٢ ، اذ قامت فئة يسارية منه بتشكيل الحزب الشيوعي في فلسطين متهمة الاول بمساومة الصهيونية (١٠) ٠ اما المجموعة المتبقية من الحزب الشيوعي اليهودي ، فقد اعادت تنظيمها بعد الانشقاق ، واطلقت على نفسها اسم الحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي شارك في المؤتمر الثاني للهستدروت ، وحصل على ثلاثة مقاعد ،

(٩) سليمان بشير ، مصدر سبق ذكره ص ١٠٣ ٠
(١٠) المصدر السابق ، ص ١٠٤ ٠

Digitized by Birzeit University Library

من مجموع مئة وثلاثين مقعدا . وبذلك اصبح هناك حزبان يحملان صفة الشيوعية (الحزب الشيوعي الفلسطيني والحزب الشيوعي في فلسطين) . وقد قاطع الحزب الشيوعي في فلسطين المؤتمر الثاني للهستدروت ، المنعقد في ٢٠-١-١٩٢٣ ، بهدف الوصول الى (الجماهير العربية) . واصدر هذا الحزب بيانا ، عشية المؤتمر المذكور ، دعا فيه الى هدم الهستدروت ، كشرط لبناء تنظيم عمالي ذي وعي طبقي . وبذلك اسقط هذا الحزب ، لاول مرة في تاريخ يسار الحركة الصهيونية ، امكانية المراهنة على تطويرها . الا ان هذه التطورات الجديدة لم تغير من واقع الارباك والانعزال والتذبذب ، التي تحكمت بمسيرة الحزبين «الشيوعيين» مما دفعهما الى البحث عن حل لازمتهما . وبعد مفاوضات بين الطرفين ، توحد الحزبان ، في تموز ١٩٢٣ ، تحت اسم الحزب الشيوعي الفلسطيني ، وتم التوحيد حول نقاط اعتبرت برنامج الحزب ، واهمها :

١ - اعتبر الحزب ان الحركة الوطنية العربية هي العامل الاساسي في الصراع ضد الاستعمار البريطاني .

٢ - وان جميع نشاطات المؤسسات المالية الصهيونية تستهدف وضع الاساس لقيام الراسمال بنهب الطبقة العاملة اليهودية (١١) .

٣ - وجد الحزب ان عليه ان يقاوم عن طريق العمل التربوي في صفوف الشغيلة اليهود ، وان النضال يجب ان يوجه ، بشكل خاص ، ضد « الصهيونية البروليتارية »(١٢) .

٤ - وان نشاط الحزب يجب ان يهدف الى خلق اتحاد بين جميع الاحزاب الشيوعية في المشرق ، من اجل مقاتلة الامبريالية البريطانية . وبهذا وقف الحزب ، لاول مرة ، متجاوزا امكانية تشكيل «الصهيونية البروليتارية » لكنه بالمقابل لم يتطرق الى الطابع الاستيطاني لها ، كما انه اتخذ موقفا جديدا متقدما ، من خلال دعوته الى توحيد الاحزاب الشيوعية في المشرق .

يحدد الدكتور سليمان بشير قضايا الصراع بين الحزب الشيوعي الفلسطيني والحركة الصهيونية بالنقاط التالية :

١ - حول حركة العمل الصهيوني (الهستدروت) ، حيث كان يحاول اعادة بنائها ، كتنظيم طبقي واع للعمال العرب واليهود معا .

٢ - وقف التحالف مع الاستعمار البريطاني .

٣ - محاولة توحيد الاحزاب الشيوعية العربية في حركة شيوعية واحدة في المنطقة باكملها (١٣) .

ان التوقف امام المراحل التي مرت بها مسيرة انبثاق الحزب الشيوعي الفلسطيني انما تدل على ان هذا النشوء قد تحكمت به عوامل عديدة ، اثرت بشكل مباشر ، عليه وتحكمت ، الى حد كبير ، في تحديد ادواره ، سواء منها الخارجية ، المتعلقة بالمحيط الذي يعمل وسطه ، او « الذاتية التي تخص التركيب الداخلي له . وقد

(١١) المصدر السابق ص ١٠٨ .
(١٢) موسى خليل - شؤون فلسطينية ، العدد ٣٩ ، ص ٤٠ .
(١٣) بشير ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٦ .

Digitized by Birzeit University Library

اوضحت مسيرة الانبثاق ان ولادته كانت تتذبذب بين ضرورة صيرورته جزءا من الحركة الشيوعية العالمية المناقضة تماما للحركة الصهيونية ، وبين انضداد اعضائه الى المهام الاستيطانية المباشرة التي زجت الحركة الصهيونية بها كل التواجد اليهودي في فلسطين • وسنجد ، خلال تتبعنا للاحداث اللاحقة ، الصورة الاكثر وضوحا للمنهج المتذبذب بين الموقعين ، والذي حكم تلك المسيرة ، ومن خلال التدقيق بالعناصر التي لعبت الدور الرئيسي في حركة الجدل والنشاطات المختلفة داخل مسار الحركة الصهيونية • وبالتالي تلك التي شكلت الحزب الشيوعي الفلسطيني ، وكانت في غالبيتها من اليهود الروس والاوروبيين الشرقيين ، المتأثرين بالافكار الثورية ، التي سادت تلك المناطق مع نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي •

ان التتويج النهائي لمسيرة نشوء الحزب الشيوعي الفلسطيني ، كحزب معترف به على مستوى الحركة الشيوعية العالمية ، قد جاء في تقرير للجنة التنفيذية للكومنتيرن ، في الخامس من ايار سنة ١٩٢٤ ، والمنشور في لندن ، حيث جاء فيه « ان المجموعات الشيوعية كانت قد توحدت في حزب شيوعي واحد ، في اواخر سنة ١٩٢٣ ، وقد قامت اللجنة التنفيذية بتشكيل لجنة خاصة لدراسة المسألة الفلسطينية ، وبعد اجراء التحريات المطلوبة قدمت توصياتها بقبول الحزب الشيوعي الفلسطيني فرعا في الاممية الثالثة » (١٤) •

اما ناجي علوش فيقول « ان الكومنتيرن قد اعترف بالحزب الشيوعي الفلسطيني في فلسطين في شباط ١٩٢٤ » (١٥) •

.....

(١٤) بشير ، مصدر سبق ذكره ، ص١١٠•
(١٥) ناجي علوش – الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ – ١٩٤٨ • بيروت، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ايار ١٩٧٤ ، ص ٢٣٦ •

صدر حديثا

بيسان في الرمال

شعر : خالد ابو خالد

Digitized by Birzeit University Library

الحزب الشيوعي .. ورحلة الممارسة

١) منذ التاسيس حتى هبة البراق

على الرغم من كون انبثاق الحزب الشيوعي الفلسطيني موحدا ، على اساس الالتزام بالمهام المحددة في مؤتمره ، واعتراف الكومنتيرن به ، تدعيما لذلك ، الا ان الصراعات استمرت داخل صفوفه، ولم يجر التسليم الكامل لكل قيادته بنهجه المضاد للحركة الصهيونية . لذا ، فان الخلافات سرعان ما دبت في صفوفه ، بين العناصر الشيوعية والتيار المتاثر بالحركة الصهيونية . وقد تميزت تلك الفترة من حياة الحزب باتخاذ مواقف نظرية متقدمة ، الى حد كبير ، لكنها - وبحكم التركيبة اليهودية للحزب - لم تستطيع ان تترجم الى ممارسة عملية متواصلة ، ففي كل مرة اتخذ فيها الحزب موقفا شيوعيا كان يلاقي المزيد من العزلة عن اطارات الحركة الصهيونية التي ابقى الحزب نفسه فيها .

بدأ الحزب نشاطه العملي حين اتخذ موقفا ضد شعار (احتلال العمل) ، الذي رفعته الحركة الصهيونية ، ومنعت بموجبه استخدام العمال العرب في جميع الاعمال الخاضعة لسيطرتها فيفلسطين. واصدرت لجنة الحزب الشيوعي الفلسطيني في يافا منشورا ، في ٢٣-٧-١٩٢٣ ، بعنوان « يسقط احتلال العمل » ، قالت فيه « ان الحرب الطبقية من اجل العمل والخبز لا تفرق بين العربي واليهودي »(١٦) . وقد اتخذ الحزب من موقفه هذا مجالا لنشاطه داخل مؤسسات الحركة الصهيونية ، واخذت المناشير الشيوعية توزع ، والخطب تلقى من قبل اعضاء الحزب وانصاره ، في كل موقع يتواجدون به ، مما ازعج الهستدروت ، فاتخذت قرارا ، في نيسان ١٩٢٤ ، بطرد (فراكتسيا العمال) كتلة الحزب الشيوعي النقابية - من الهستدروت ، واصفة اياها بانها « عدوة للشعب وللطبقة العاملة اليهودية في فلسطين »(١٧) .

وفي تشرين الثاني ١٩٢٤ هاجم الفلاحون العرب مجموعة من العمال اليهود الذين جاءت بهم الحركةالصهيونية ليفلحوا الجزء الذي اشتراه الصهاينة من بعض الاقطاعيين العرب من سهل مرج ابن عامر ، وجرت اشتباكات بين الطرفين . وقد عارض الحزب الشيوعي

(١٦) د . سليمان بشير - ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٥٢ .
(١٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ .

Digitized by Birzeit University Library

الفلسطيني الصهاينة « متهما اياهم بنهب الاراضي ، كما طلب من العمال اليهود الا يساهموا في طرد الفلاحين العرب من اراضيهم »(١٨) · واتخذت عناصر شيوعية يهودية موقفا خاصا يدعو الى عدم هجرة اليهود الى فلسطين ، بعد ان تبين لها طبيعة المهام الاستعمارية التي لا بد وان يؤديها هؤلاء اليهود · ففي مجلة المراسلات الاممية ، ٢٩ـ٤ـ١٩٢٥ ، كتب جوزيف بيرغر يقول « يجب الا تتوجه الجماهير اليهودية الى فلسطين ، حيث سنقوم ، فقط ، بخدمة الاهداف الكولونيالية البريطانية هناك ، بل عليها توحيد صفوفها في النضال الطبقي الدؤوب مع بروليتاريا البلدان الاخرى ، بحيث نستطيع تحقيق نهضتها وخلاصها الحقيقيين عن طريق الثورة الاجتماعية » (١٩) ·

وبعد ازدياد عمليات الاستيلاء على الاراضي العربية في فلسطين من قبل الحركة الصهيونية ، واستخدام العمال اليهود كجنود مسلحين ينفذون تلك العمليات ، وبعد حصول معركة (العفولة) الشهيرة ، التي دافع فيها الفلاحون العرب عن اراضيهم ، اصدرت لجنة الحزب في يافا ، في ٢٩ـ١١ـ١٩٢٤ ، بيانا خاصا حول تلك المعركة ، جاء فيه : « يجب على العمال (يقصد اليهود) ان لا يوافقوا على ان يحولهم الصهاينة الى جيش احتلال ··· عليهم ان يمتنعوا عن الذهاب الى (العفولة) ، او على الاصح احتلال العفولة · ليس من مصلحة العمال اليهود استغلال الفلاحين العرب ··لتسقط سياسة التضليل التي تنتهجها البورجوازية الصهيونية والحكومة الاستعمارية ·· ليسقط احتلال العفولة · ليعيش التضامن بين العرب واليهود ··· ولتشن الحرب الطبقية ضد برجوازيتنا والبرجوازية الغربية »(٢٠) ·

وحتى تلك الفترة ، استمر الحزب الشيوعي الفلسطيني يشارك في المؤسسات الصهيونية ما عدا المؤسسات التي اتخذت ، هي نفسها ، قرارا بطرد اعضائه من صفوفها ، حيث شارك الحزب في مجلس النواب الصهيوني الثاني (الهستدروت) ، اواخر عام ١٩٢٥ ، وبعد الخلافات داخل ذلك المجلس حول طبيعة « الدولة » المنوي تشكيلها في فلسطين ، توجه ممثل الحزب « بيرمان » الى جماهير العمال اليهود بقوله : « مدوا ايديكم الى اخوانكم الحقيقيين ، الى العامل العربي المضطهد والمظلوم مثلكم ··· يجب الا يكون هنالك مجلس نواب قومي (يهودي) بل مجلس عام واحد لجميع البلاد ، يكون منتخبا من قبل العرب واليهود ، والحل الوحيد في هذه الحالة هو استقلال البلاد التام ، واقرار دستور اساسي ديمقراطي لها » (٢١) وبذلك يكون الحزب قد اتخذ موقفا جديدا وواضحا ، بدعوته لاقامة دولة فلسطينية ديموقراطية موحدة، خلافا ، للنهج العام للحركة الصهيونية ، الهادف الى انشاء دولة صهيونية فقط ، في فلسطين · وبنتيجة هذا التناقض

.....

(١٨) المصدر نفسه ، ص ١١٦ · عن مجلة المراسلات الصحفية الدولية ·
(١٩) المصدر نفسه ، ص ٢٦٩ ·
(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٦٦ ·
(٢١) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ ·

Digitized by Birzeit University Library

الكبير مع الحركة الصهيونية ، والتوجه نحو مصالح الجماهير العربية بدأت بدايات التعامل بين الشيوعيين اليهود والعرب ٠

والجدير بالذكر ان الحزب لم ينجح في تجنيد اي عنصر عربي في صفوفه قبل عام ١٩٢٤ ٠ حيث نقلت التقارير انه لاول مرة يشترك اليهود والعرب في مظاهرات احياء ذكرى الاول من ايار عام ١٩٢٦ وان حوالي ٢٥٠ عربيا قد اضربوا في حيفا ، وكان هذا نتيجة لدعاية الحزب في دعم الحركة الوطنية العربية ، ومعارضته لاخلاء الاراضي من قبل الصهاينة ٠ وتعزيزا لتوجه الحزب نحو الجماهير العربية والطبقة العاملة العربية على وجه الخصوص ، قامت ، في ١٧ كانون اول ١٩٢٦ ، ايحود « الوحدة » التابعة للحزب الشيوعي الفلسطيني ، بعقد مؤتمر لها ٠ ويقول جوزيف بيرغر ان « عدد المشتركين في ذلك المؤتمر كان ٨٠ مندوبا ، منهم على الاقل ٢٥ ممثلا عن العمال العرب ، وذلك في محاولة لايجاد منظمة عمالية اممية »(٢٢) ٠

ان كل هذه التحولات الكبيرة فيمسيرة الحركة الشيوعية لليهود في فلسطين لم تحدث تغييرات جوهرية في طبيعة التركيب اليهودي للحزب ، كما انها لم تقض ، بشكل كامل ، على بقايا الافكار المتأثرة بالحركة الصهيونية ، او المراهنة على تحويلها ، لكنها بالمقابل اقنعت عددا من كوادر الحزب بضرورة دفع الحزب ، نهائيا ، نحو المواقع والمفاهيم الثورية ، واخراجه مندائرة التذبذب السابقة٠ وفي مؤتمر الحزب الثالث ، المنعقد عام ١٩٢٨ حصلت خلافات جديدة داخل الحزب ، بسبب ظهور اقلية شيوعية ، طالبت المؤتمر بأن يقر « ان وطن اليهودي حيث يولد ٠٠٠ وان فلسطين هي للعرب » (٢٣)٠ وقد وضعت هذه الاطروحات الحزب امام احتمال التخلي النهائي والشامل عن بقية الافكار الصهيونية ٠ ولما كانت قيادته ، في تلك المرحلة ، لم تصل ، بعد ، الى ذلك الحد منمواقعها الفكرية ، فقد طردت ذلك الاتجاه الثوري من الحزب ، واستطاعت قيادة الحزب ان تاخذ موافقة الكومنتيرن على هذا الاجراء (٢٤) ٠ وبذلك تراجع الحزب خطوات الى الوراء، مما افسح المجال ، من جديد ، لتجديد علاقته بالحركة الصهيونية ، واعتبار مواقفه الصحيحة السابقة خروجا على خطه العام ٠٠٠ اما مجموعة الاقلية المفصولة من الحزب ـ والتي عاد الكومنتيرن وانتصر لها بعد عام معتبرا راي الاكثرية « مساويا لانحراف صهيوني خطير » ـ فقد ارسلت رسالة مفتوحة الى المؤتمر العربي السابع ، المنعقد سنة ١٩٢٨ ، جاء فيها « ان وطن اليهودي حيث صدف ان يكون قد ولد ٠٠٠ بينما تخص فلسطين العرب ٠٠٠ وانه لواجبنا المقدس ان نقاتل ، جنبا الى جنب ، مع العرب ونستنهض شعوب العالم ضد الخطر الصهيوني » (٢٥) ٠

---

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ ٠

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ١١٧ ، عن الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط ـ لاكير ـ ٠

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١١٨ ، عن مجلة المراسلات الصحفية الدولية ٠

(٢٥) ـ ناجي علوش ـ الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ ـ ١٩٤٨٠ بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، ايار ١٩٧٤ ، ص ٢٣٨ ٠

Digitized by Birzeit University Library

اما ماهر الشريف فيقول ان المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الفلسطيني انعقد بومي ١ و ٢ كانون اول ١٩٢٨ ، وساهم فيه ٢٤ مندوبا ، وقرر ما يلي :

١ ـ ادان السياسة (الطوباوية والخائنة) للقيادة العمالية الصهيونية ٠

٢ ـ هاجم منظمة الهستدروت ، التي يسعى قادتها ، دوما ، للسلم الطبقي ، بعد ان خانوا المصالح العمالية على مذبح هيكل الصهيونية ٠

٣ ـ انتقد المؤتمر «المغامرة الجديدة» ، التي ينوي قادة الهستدروت تنفيذها ، والمتمثلة بالعمل على تنظيم هجرة يهودية جديدة الى فلسطين ٠

٤ ـ اشار الى تنامي الاتجاه نحو التنظيم بين العمال العرب ، واكد على ان قضية تنظيم العمال العرب قد بدأت تحتل اهمية كبرى خاصة ٠

٥ ـ هاجم الحركة الصهيونية ، بما فيها الجناح اليساري (برعالي تسيون) ، واتهمها بانها اداة الامبريالية البريطانية (٢٦) ٠

ولا يذكر الشريف شيئا عن الازمة داخل ذلك المؤتمر ، وما نتج عنها من مواقف ، وما اذا كانت المقررات صادرة عن اقلية الحزب ام غالبيته ٠

.....

(٢٦) ماهر الشريف ٠ الحزب الشيوعي الفلسطيني وهبة البراق ـ شؤون فلسطينية العدد ٦١ ـ ص ٢١٦ ـ ٢٤٥ ٠

الأعمال الكاملة لشاعر فلسطين
أبو سلمى

دار العودة ـ بيروت

الثمن / ١٢ ليرة لبنانية

Digitized by Birzeit University Library

٢ ـ الحزب وهبة البراق ١٩٢٩

دخل الحزب الشيوعي الفلسطيني عام ١٩٢٩ ، بعد انشقاق بصفوفه ، خرجت بنتيجته افضل العناصر المهياة لاتخاذ موقف شامل ضد الحركة الصهيونية ، وسيطرت عليه العناصر الاكثر قربا الى الموقف الصهيوني · وسبق للحزب ، عقب تاسيسه ، ان ركز نضاله ضد الاستعمار البريطاني · ومع كون هذا الموقف ثوريا وصحيحا ، تميز الحزب به دون غيره من القوى الاخرى ، الا ان احد العوامل التي جعلته يركز على ذلك الموقف ، دون سواه ، هو هروبه من مواجهة الحركة الصهيونية نفسها ، ففي الوقت الذي كان يدعو فيه الى محاربة الاستعمار البريطاني نجده يركز الدعوة الى « عدم تحريك النزاع بين العرب واليهود والاقتتال بين الاخوة » وقد اصدر الحزب عشية الهبة في اب ١٩٢٩ ، بيانا دعا فيه « الجماهير الكادحة العربية واليهودية لتجاوز الحقد العنصري والاثارة ، وتجنب الحرب الاهلية » (٢٧)· وفي ٨ حزيران ١٩٢٩ ، ساهم الحزب في التظاهرات العربية بمدينة يافا ، ضد الحملات الصهيونية ، تزع ملكية اراضي الفلاحين العرب ، ورفع شعار « الارض لمن يزرعها » ·· وتآخى العمال العرب واليهود في النضال ضد عصابات الكيبوتز الموتورة ، وضد نفاق الاشتراكيين الامبرياليين ، ودعا الى تصعيد النضال ضد الامبريالية والصهيونية والوجهاء العرب ، في سبيل مصادرة اراضي كبار الملاك وتوزيعها بين الفلاحين ، ووزع الحزب ، كذلك ، مناشير عديدة بمناسبة (يوم النضال ضد الحرب الامبريالية) في الاول من اب عام ١٩٢٩ ، ووجه نداءات الى الطبقة العاملة في فلسطين ، وحدد اهداف هذا اليوم بالنضال ضد خطر الحرب ، وفي سبيل اقامة جمهوريات عمالية وفلاحية في البلدان العربية ، من اجل الدفاع عن الاتحاد السوفياتي وضد الصهيونية والاصلاحية · وسارت مظاهرات في القدس ويافا وحيفا خلف الاعلام الشيوعية ، وحصلت صدامات مع البوليس ، جرح من جرائها عدة ضباط من البوليس ، بينهم ضابط انكليزي ، وتم اعتقال ٤٠ عاملا (٢٨) ·

لقد اجمع اغلب الكتاب والمؤرخين على ان هبة البراق عام ١٩٢٩ لم تكن وليدة حادث عابر ومحدد ، انما جاءت كرد فعل للتراكمات التي تركتها السياسة الاستعمارية البريطانية والصهيونية ، وانعكاسها بشكل اضر ، اضرارا فادحا ، بالمصالح الوطنية لعموم الشعب العربي الفلسطيني · وقد بدأت الهبة ، حسب ما يذكر الدكتور كيالي ، بتظاهرة يهودية في الرابع عشر من اب ١٩٢٩ ، في تل ابيب ، بمناسبة ذكرى تدمير هيكل سليمان · وفي ١٥ـ٨ـ١٩٢٩ ، قام شباب يهود بقيادة متطرفين من الحركة الصهيونية والقادمين

(٢٧) ناجي علوش ـ الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ ـ ١٩٤٨، ص ٢٤٠ ·

(٢٨) ماهر الشريف ـ شؤون فلسطينية ، العدد ٦١ · ص ٢٦٦ ·

Digitized by Birzeit University Library

من تل ابيب ، بمسيرة ، لم يسبق لها مثيل من قبل ، في شوارع القدس ، حتى وصلوا حائط المبكى ، حيث رفعوا العلم الصهيوني ، وشتموا المسلمين ... واثار هذا الحادث العرب ، حيث قامت مظاهرة معاكسة في يوم ١٦-٨-١٩٢٩ ، وصادف يوم جمعة ، وكذلك يوم الميلاد النبوي ، وقامت المظاهرة العربية بعد الصلاة ، سار فيها الاف من القرويين ، واتجهت نحو حائط المبكى ، حيث حطم المتظاهرون كل ما يخص اليهود من اوراق ومناضد .. الخ .

وفي يوم ١٧-٨-١٩٢٩ نشب قتال ، في القدس ، بين العرب واليهود، واستمرت الحوادث حتى شملت الصدامات مع الحركة الصهيونية انحاء البلاد . وقد رافق ذلك صدامات عديدة مع القوات البريطانية (٢٩) . وعندما بدأت المعارك واتسعت ، لم يستطع الحزب الشيوعي الفلسطيني أن يلعب دورا اساسيا فيها . ويذهب بعض الكتاب الى القول بان الحزب قد انجر الى القتال ضد العرب مع اليهود ، بعد ان « ظل الحزب محافظا على خطه السليم ، طيلة اربع اسابيع . ولكنه بعد ذلك ساهم في الدفاع عن الاحياء اليهودية » (٣٠) .

اما جوزيف بيرغر فيقول « انه على ضوء مواقف الحزب ١٩٢٩ ، حيث انضم اعضاؤه اليهود الى الهاجاناه في حراسة الاحياء المعرضة للخطر ، وحراسة الاحياء اليهودية ، واعلانهم لقيادة الهاجاناه بانهم على استعداد للاشتراك في الدفاع عن الاحياء اليهودية ، كما ووضعوا تحت تصرف الهاجاناه مخزن سلاح الحزب » (٣١) .

على ان بيرغر لا يوضح فيما اذا كان الحزب قد اصدر قراره بلجوء الشيوعيين اليهود الى الاحياء السكنية اليهودية ، حفاظا على ارواحهم ، حيث يمكن ان يتعرضوا للخطر مجرد كونهم يهودا ، أم ان الحزب قد اتخذ قراره بالقتال مع الهاجاناه .

بتقديري ان الحزب قد اتخذ قراره باللجوء الى الاحياء اليهودية ، حفاظا على أرواح أعضائه ، وأن بنية الحزب الداخلية - اليهودية - مع أطروحاته وتفكيره غير الحاسمين تجاه الموقف النضالي من الحركة الصهيونية قد فرض تواجد اعضاء الحزب ، عمليا ، ضمن الاحياء اليهودية للسكان ، وبالتالي لا استبعد ان وضع مخزن السلاح للحزب قد جاء بتصرف محدد من اعضاء الحزب في المنطقة المذكورة ، وليس قرارا قياديا - لان موقف قيادة الحزب الذي لم يصل الى الحد الذي يمكن فيه ان تقاتل بالسلاح ضد الحركة الصهيونية ، لا يمكن ان يصل الى تقبل فيه القتال الى جانبها ايضا .

لقد اعتبر الحزب هبة البراق في مراحلها الاولى مجرد « مذبحة ضد اليهود » واعتبر العرب « جمهور فاشي ، قوامه فلاحون محمديون » (٣٢) .

---

(٢٩) د . عبد الوهاب الكيالي . تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٢٣٦ .
(٣٠) علوش - الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ - ١٩٤٨ .
(٣١) بشير ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨٦ .
(٣٢) موسى خليل - شؤون فلسطينية عدد ٣٩ ص ١١٧ - الحزب الشيوعي الفلسطيني ص ١١١ - ١٤٢ .

Digitized by Birzeit University Library

وبعد تطور الهبة واتضاح افاقها ، بدا الحزب في التراجع بمواقفه نحو الفهم الصحيح لها ، فدعا بمنشوراته العمال الى عدم الانغماس في صراع عنصري ، وطلب منهم « الا يقتل بعضهم بعضا - يا عمال اليهود والعرب اتجهوا نحو العدو المشترك (الامبريالية البريطانية) » (٣٣) ٠

ثم أصدرت اللجنة المركزية للحزب بيانا مطولا، القت فيه اللوم على القادة الوطنيين الاصلاحيين ، الذين عندما تحققوا من ان انفجارا ثوريا سوف يقع لا محالة بين جماهير الارياف ، ولحرصهم على عدم خسارتهم قيادة الحركة الوطنية ، حرفوا العصيانات المتزايدة وحولوها الى مذبحة ضد اليهود، ولم يسمحوا لها أن تتطور ، الى تمرد وثورة ضد البريطانيين ٠٠٠ ان المذابح المضادة لليهود قد تحولت بطبيعتها عند المراحل الاخيرة ، من الاضطرابات ، الى حركة عصيان عربي شامل ، لها اهداف ابعد بكثير من اهداف ذبح اليهود ٠ وانتهى البيان الى ضرورة تكوين حكومة عمال وفلاحين ، والحاجة الى وحدة كل البلاد العربية ، لتشكل جمهورية مستقلة للعمال والفلاحين (٣٤) ٠

ومن المنطقي أن يستمر تطور التقييم الايجابي لهبة البراق ، بعد أن توقفت المعارك ، وأصبح بامكان الحزب ان يناقش الامور بمعزل عن اجوائها ، وتصاعدت الدعوات في الاوساط الشيوعية لمعاضدة الشعب الفلسطيني ، حيث ساهم عدد وافر من الكتاب اليهود وغيرهم بتلك الحملة ٠ ففي ٤ ايلول ١٩٢٩ نشر في «حوادث فلسطينية» مقال بتوقيع (ليني) استهله الكاتب بدعوة البروليتاريا الثورية العالمية للتدخل النشط لدعم الحركة الوطنية في فلسطين ، خاصة بعد ان اتسعت نضالات عرب فلسطين ومعاركهم ضد الجيش والبوليس الانكليزي ، وضد العصابات الصهيونية الفاشية ٠ وقد وصف الحركة الصهيونية بانها اداة الامبريالية البريطانية ودركها ، ليس فقط ضد الجماهير العربية في فلسطين وانما ، ايضا ، ضد كل الشعوب المضطهدة في الشرق الاوسط (٣٥) ٠

وفي مقال «المذبحة في الارض المقدسة» كتب جوزيف بيرغر ، من انقدس ، يقول «لقد كانت معارك الشوارع ، التي نشبت يوم ٢٣ اب بين العرب واليهود ، المؤشر لانتفاضة عامة لعرب فلسطين ، امتدت الى البلد المجاور ، شرق الاردن ٠٠ غير ان هذه الانتفاضة الشعبية كانت تعبيرا عن تخمر الطاقات المقموعة للشعب المسلم، وخاصة في صفوف جماهير الفلاحين والبدو ٠ لقد طبعت في مراحلها الاولى بطابع معاد لليهود وغير معاد للانجليز ٠٠ وقد نتج هذا عن لعبة خبيثة شاملة ، نسجت خيوطها الامبريالية الانجليزية ، بالتعاون مع الفاشيست الصهاينة ، ومع المجلس الاسلامي ٠٠٠ » ثم يضيف « وقد رد الفاشيست الصهاينة على هذا الموقف باثارة التعصب القومي الشوفيني الصهيوني ، وذلك بتنظيم مظاهرات عديدة مليئة بالاثارة والتحريض » ٠ ثم ينتقل

---

(٣٣) المصدر السابق ، ص ١١٧ ٠
(٣٤) المصدر نفسه ، ص ١١٨ ٠
(٣٥) ماهر الشريف - شؤون فلسطينية عدد ٦١، ص ٢٢٨ ، في مقال حول الحزب الشيوعي الفلسطيني وهبة البراق ٠

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب الى دور الحزب الشيوعي الفلسطيني خلال الاحداث ، فيقول بأن الشيوعيين كانوا المجموعة الوحيدة ـ الى جانب مجموعة حمدي الحسيني القومية الثورية التي اعتقل قائدها ، لانه كان يحذر الجماهير العربية من اقتراف المجازر ، ويدعوها للوقوف ضد الامبريالية ـ التي كانت تدعو بدون كلل ، الى تاخي العمال اليهود والعرب في نضالهم المشترك ضد الامبريالية البريطانية ... ومنذ صباح الجمعة الدموي كانت حوائط القدس مغطاة بالنداءات الشيوعية التالية : « لا تقتتلوا فيما بينكم ـ ايها العمال العرب واليهود ، فانوا سوية ضد عدوكم المشترك (الامبريالية البريطانية) ، اقيموا حكومة العمال والفلاحين المستقلة ... وقد كان كل شيوعي يحرض في مكان عمله وفي الشارع بهذا الاتجاه ...» غير ان الحزب لم يتمكن ، بسبب ضعف كادره العربي وبسبب الخسائر التي اصيب بها ، بعد الاول من اب ، من التاثير الواسع في حركة الجماهير .

على ان لجنة الحزب الشيوعي في حيفا اتخذت مواقف يمينية واضحة الى جانب الحركة الصهيونية ، واصدرت سلسلة من المواقف المشوهة لطبيعة الثورة واليها تنسب العديد من التشويهات حول مواقف الحزب الشيوعي الفلسطيني ، واصبحت مواقف تلك اللجنة ، فيما بعد ، ملجأ للعديد من الكتاب ، الذين اعتبروا موقفها هو موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني باكمله .

وفي نهاية ايلول ١٩٢٩ تسلم الحزب تعليمات من الكومنترن حول طابع انتفاضة ١٩٢٩ ، أوصى فيها بضرورة تبني موقف صحيح منها ، وعليه ، دعا الحزب الى جلسة عامة موسعة للجنة المركزية من اجل بحث تعليمات الكومنترن . وهنا شدد الحزب على البعد القومي للتحرك العربي ، بنفس الوقت الذي عارض فيه الطابع الرجعي لذلك التحرك ، واستنكر الدور الذي لعبه الصهاينة والانجليز ، واعترف الحزب بالجذور الاجتماعية العميقة للحركة العربية ، وطابعها الريفي ، واقر بان هناك اخطاء ارتكبت ، وهي مبنية على سوء تقدير مدى سرعة التطور لدى الجماهير العربية ، مما ادى الى ضعف تنظيمي عند انفجار الانتفاضة ، كما ادان الحزب الاعضاء الذين تمسكوا بتحليلهم لطبيعة ثورة ١٩٢٩ ، وخاصة فرع الحزب في حيفا ، واكد على ضرورة تطهير الحزب من المنحرفين اليمينيين ، وانتهى الحزب باعلان سياسة يسارية صريحة ، مؤكدا على ضرورة تعريب الحزب ، مواصلا العمل على اقامة دولة متحدة للعمال والفلاحين العرب ، ومتوقعا انفجارا جديدا للحركة الثورية العظيمة في كل البلاد العربية ، واعتبر هبة ١٩٢٩ مرحلتها الاولى (٣٧) . ويقول عبد القادر ياسين ان الحزب الشيوعي الفلسطيني قد اتخذ بعد هبة ١٩٢٩ ، قرارا يفرض على كل مرشح لعضوية الحزب ، يهوديا كان ام عربيا ، ان يقر ، قبل كل شيء ، بان هبة ١٩٢٩ ، كانت تعبيرا عن ثورية الجماهير العربية (٣٨) .

---

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ .

(٣٧) موسى خليل ـ شؤون فلسطينية ، العدد ٣٩ .
الحزب الشيوعي الفلسطيني (١٩١٩ ـ ١٩٤٨) من ص ١١١ ـ ١٤٢ .

(٣٨) عبد القادر ياسين . كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨ . بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، ١٩٧٥ .

Digitized by Birzeit University Library

٣ ـ مرحلة النضال العربي وتعريب الحزب :

ان واحدة من ابرز المشاكل التي لازمت تكوين الحزب الشيوعي الفلسطيني هي تركيبته اليهودية، حيث ان مؤسسي الحزب المنحدرين من اليسار الصهيوني كانوا في غالبيتهم ، من اليهود الروس . ويجهلون اللغة العربية ، ومتأثرين ، الى حد ما ، بالافكار الصهيونية . وهذه بعض الاسباب التي يعزى اليها عزلة الحزب عن الجماهير العربية ، وانحصاره ضمن التجمعات اليهودية في فلسطين . ورغما عن ان الاممية الشيوعية كانت سباقة بتشخيص هذه المشكلة، ودعوتها الحزب الى ضرورة التوجه نحو الجماهير العربية ، ورفضها الاعتراف في فترة سابقة ، لكونه حزبا يهوديا ، الا ان الشيوعيين اليهود حاولوا ـ كما تبين لنا القرارات التي اتخذها الحزب في كافة اجتماعاته تقريبا ـ الوصول الى الجماهير العربية ، وتحويل الحزب الى حزب الطبقة العاملة في فلسطين بغض النظر عن دينها (وقوميتها) .

ان الوثائق المتوفرة تشير الى ان هذا النهج بقي امنية لم تلامس الواقع ، على امتداد السنوات العديدة التي عاصرها الحزب في تجربته ، واول مناسبة شارك فيها عضو عربي كان مؤتمر الحزب المنعقد عام ١٩٢٣، حيث القى كلمته ، وانطلق الحزب مقررا اتخاذ جانب الحركة الوطنية العربية بحزم نظري ، وضد الصهيونية والامبريالية . وبذلك يكون الحزب الشيوعي قد ادخل العنصر العربي اليه ، منذ أن بدأ نشاطه كحزب شيوعي موحد ، مشكلا ، بذلك ، بداية تجاوز الاطار اليهودي ، الذي لم تستطع الاحزاب اليسارية الصهيونية تجاوزه ، من قبل .

وبنفس المؤتمر اتخذ الحزب قرارا اخر يتجاوز فيه الوضع القطري الفلسطيني ، متلمسا بداية الطريق نحو ضرورة الترابط بين فلسطين والاقطار الاخرى . فدعا الى ضرورة العمل على خلق اتحاد بين جميع الاحزاب الشيوعية في المشرق ، من اجل مقاتلة الامبريالية البريطانية . ولم يحدد الحزب ، بشكل دقيق ، قصده بكلمة (الشرق) بل تركها عامة هكذا ، لانه ، بالاساس ، لم يكن قد اقر فلسطين جزءا من المشرق العربي ، على المستوى الجغرافي والاجتماعي والسياسي الوطني ، وان ترابط المصالح الامبريالية في فلسطين مع مصالحها في المنطقة ككل لا بد وان يفرض ، بالمقابل ، ترابط النضال في كل قطر عربي مع النضال العربي الشامل .

ومع ان تحرك الحزب الاساسي دار ضمن التجمعات اليهودية ، فان ذلك لم يمنع الشيوعيين اليهود في فلسطين من لعب دور محدد على صعيد تنمية العلاقات القومية ، ففي ١١ ، ١٢ كانون اول سنة ١٩٢٤ ، اجتمع افيغدور عنمصر مع جوزيف بيرغر عن فلسطين في الاسكندرية وتوصلا الى القرار التالي :

(في اللحظة التي يتمكن فيها افيغدور من اعادة بناء الحزب الشيوعي المصري ، وتقوية نشاط الحزب الشيوعي السوري ، فانهما سيعملان على توحيد هذه الاحزاب) .

ان هذه الواقعة تدل على ان الحركة

Digitized by Birzeit University Library

الشيوعية في فلسطين ، رغم كل النواقص التي تحكمت بتكوينها ، كانت السباقة في تلمس ضرورة توحيد الحركة الشيوعية العربية ، كما وان جوزيف بيرغر نفسه ساهم في تشكيل الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني ، اواخر عام ١٩٢٤ ، وذلك اثناء مروره ببيروت لحضور مؤتمر الكومنترين ، واجتماعه مع يزبك وشمالي في بيروت ، حيث تم ، بحضوره ، الاتفاق بين مجموعة زحلة ومجموعة بيروت الشيوعيتان وتشكيل الحزب الشيوعي السوري ٠

كما وان هناك اشارة ، في كتاب « الحركة الشيوعية في فلسطين » ، عن نضامن الشيوعيين اليهود مع الثورة السورية ، حيث ورد ، ان الحزب الشيوعي الفلسطيني تبرع بمبلغ من المال للذين جرحوا في مظاهرات دمشق اثناء زيارة بلفور لها عام ١٩٢٥ ٠ وقد انعكس هذا النشاط على قرار اتخذه الكومنترين ، بان يصبح الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني فرعا للحزب الشيوعي الفلسطيني (٣٩)٠

وورد في خطاب (اورباخ) ، في الذكرى الثالثة لانتساب الحزب الى الكومنترين ، ما يشير الى كون الشيوعيين اليهود في فلسطين كانت لهم رغبة في تولي مسؤولية الحركة الشيوعية العربية ٠ وقد طرح ذلك امام الكومنترين حيث قال « اننا بدون شك الجبهة الشيوعية الوحيدة في المشرق العربي ومن واجبنا ان ننتبه الى جميع المسائل ، لان الواجبات المتعلقة بالثورة ملقاة على عاتقنا ٠ يجب ان نتبع القضايا الخاصة بسوريا ومصر والمؤتمرات الاسلامية في القاهرة ومكة وفي كل مكان ٠٠٠ » واردف « ان الكومنترين قد عارض مطالبنا الطموحة في الاشراف على النشاط في البلدان المجاورة ، غير انهم لم يستطيعوا اقتراح اي حل لمسالة اعفائنا من هذه المهمة » ٠

وجاء في كتاب الحركة الشيوعية في فلسطين ان الحزب الشيوعي الفلسطيني اسس عام ١٩٢٦ ، مجموعة شيوعية في الكرك بشرق الاردن ٠

ان سياسة الحزب باعطاء اهمية للقضايا العربية في فلسطين وخارجها أوجد بداية التفاف عربي من حوله ، ففي الاول من ايار ١٩٢٦ ، عيد العمال العالمي ، شاركت مجموعات عمالية عربية في المظاهرات التي نظمها الحزب بهذه المناسبة ، وقد قدرت التقارير كما اوردتها مجلة المراسلات الامية بان حوالي ٢٥٠ عربيا اضربوا في حيفا ، مما يدل على ان للحزب نفوذا داخل بعض الاوساط العمالية العربية ٠ وفي المؤتمر الثاني للحزب ، المعقود في ١٦ كانون اول ١٩٢٨ ، تقرر تدعيم تنامي الاتجاه نحو تنظيم العمال العرب ، وأكد على ان قضية العمال العرب قد بدات تحتل اهمية كبرى خاصة ٠ ويبدو ان كل هذه التحولات لم تكن قد وصلت الى الحد الذي يمكن فيه للحزب ان يصمد بموقفه الصحيح امام الامتحان العملي في هبة البراق ، كما اسلفنا ٠

لقد تدخل الكومنترين مباشرة بعد هبة ١٩٢٩ في تقييم السبب الرئيسي لازمة الحزب ، وتوصل الى نتيجة هامة تؤكد استحالة تشكيل حزب شيوعي فلسطيني

---

(٣٩) خطاب اورباخ في ٨ـ٣ـ١٩٢٧ المقام بمناسبة الذكرى السنوية الثالثة لانتماء الحزب الشيوعي الفلسطيني الى الكومنترين ٠
د٠ سليمان بشير ـ المشرق العربي في النظرية والممارسة الشيوعية ٠

Digitized by Birzeit University Library

دون تعريبه (٤٠) .

وبعد ان تأكد الكومنتيرن من ان القيادة الراهنة لا يمكن ان تكون قادرة على تنفيذ توصياته بشان تعريب الحزب ، وان اقصى ما يمكنها هو اتخاذ مواقف نظرية تسقط امام الامتحان ، ارسل الكومنتيرن مندوبا خاصا عنه للاشراف المباشر على تعريب الحزب وبلشفته ، وهنا عارض اورباخ - زعيم الحزب الشيوعي الفلسطيني منذ ١٩٢٤ - هذه السياسة ، ثم استدعي الى موسكو ، وحل محله جوزيف بيرغر . ولم يكن الكومنتيرن راضيا عن البطء الذي يتم فيه تعريب الحزب ، رغما عن كون اللجنة المركزية للحزب قد ثررت ، في ايار ١٩٣٠ ، انتهاج سياسة التعريب والبلشفة، لذلك عين لجنة مركزية جديدة للحزب في تشرين الاول ١٩٣٠ ، مؤلفة من ثلاثة عرب ويهوديان ، ثم جاء مؤتمر الحزب في كانون اول ١٩٣٠ ، بعد ذلك ليقر هذه التشكيلة ويقرر :

١ - البدء بتحريض الفلاحين على عدم دفع الضرائب للحكومة البريطانية ، وحثهم على احتلال اراضي « الحكومة » والصهاينة ، والملاكين العرب .

٢ - دفع الفلاحين الى الانضمام للعمال من اجل انتخاب لجان ثورية ، وقد ابلغ الحزب الفلاحين بان الحكومة الانكليزية والصهاينة والافندية العرب يمصون دمائكم ، وانه ما من شيء يستطيع انقاذكم من طغيان ذلك الاستغلال المثلث الا السيف والبندقية .

٣ - رفع الحزب شعار « الارض لمن يفلحها » .

٤ - اقر ان التصفية الفعلية للحكم البريطاني غير ممكنة الا بثورة فلاحية .

٥ - ضرورة التعبئة النضالية من اجل اقامة حكومة العمال والفلاحين .

اما بخصوص الحركة الصهيونية والمسالة القومية ، فقد اقر الحزب ، في مؤتمره هذا ، ان من الخطأ اعتبار الامبريالية والصهيونية والسكان اليهود كفئة عضوية واحدة ، ليس بينها اي تناقض ، وان الاقلية القومية اليهودية المتاثرة بالصهيونية تلعب دورا عميلا للامبريالية ضد الجماهير وان الصراع ضد الصهيونية يصبح المسالة الاساسية للثورة في الريف ، وذلك لكون الحركة الصهيونية تمارس سياسة الاستيلاء على اراضي الفلاحين .. ورغم اعتقال السلطات عام ١٩٣١ لاعضاء اللجنة المركزية للحزب من العرب ، فقد اعيد تشكيلها حيث حوفظ فيها على الاغلبية العربية .

وتاكيدا على توجه الحزب نحو العلاقات القومية العربية ، عقد اجتماع مشترك بين الحزب الشيوعي الفلسطيني والحزب الشيوعي السوري . وصدرت قراراته في كراس (٤١) تحت عنوان « واجبات الشيوعيين في الحركة القومية العربية الشاملة » ، جاء فيه : ان الحدود السياسية التي تقسم البلاد العربية ، قد اقامها وفرضها الامبرياليون ... وهذه الحدود تضعف جماهير الشعوب العربية في نضالها ضد النير الاجنبي ، ومن اجل استقلالها السياسي ، ووحدتها القومية ، وفق الارادة الحرة لجماهير الشعب (٤٢). وجاء فيها ، ايضا ، ان الامبرياليين الانجليز استخدموا الصهيونية - المضادة

(٤٠) موسى خليل - الحزب الشيوعي انفلسطيني ١٩١٩ - ١٩٤٨ شؤون فلسطينية ، العدد ٣٩ ، من ص ١١١ - ١٤٢ .
(٤١) ترجمها الياس مرقص في تموز ١٩٧٠ - بيروت .
(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

Digitized by Birzeit University Library

للثورة ـ لاحتلال ونهب الاراضي في فلسطين ... وان النضال في سبيل الاستقلال الوطني والتوحيد القومي للشعوب العربية على اساس الحكومات الشعبية بندمج ، حتما ، مع النضال في سبيل ثورة زراعية فلاحية موجهة ضد المغتصبين الامبرياليين وعملائهم « الصهيونيين في فلسطين » ، وفي الوقت نفسه ضد ملاكي الارض الاقطاعيين المحليين ، ودعا الى ضرورة اقامة جبهة معادية للامبريالية ، ثورية ـ عربية شاملة تضم جماهير العمال والفلاحين والبرجوازية الصغيرة في المدن (٤٣) ... وان الطبقة العاملة العربية الفتية قد بدأت النضال في سبيل احراز دورها التاريخي في الثورة المناهضة للامبريالية ، وفي الكفاح من اجل الوحدة القومية ... وحدد الشعارات الموحدة في الكفاح المعادي للامبريالية في كل الاقطار العربية ملخصا اياها بضرورة النضال لاسقاط الامبريالية في كل الاراضي العربية والعمل على الاستقلال السياسي القومي للبلدان العربية وتقريرها الحر لمسألة نظامها السياسي وحدودها ... وتعهد الحزبان بالعمل على قيام اتحاد فدرالي طوعي للشعوب العربية المتحررة ، في اطار اتحاد الشعوب العربية للعمال والفلاحين العرب ، وعلى اساس وحدة الطبقة العاملة وشغيلة المدن والفلاحين ، واكد على ان شعار اتحاد عمالي وفلاحي للشعوب العربية يمكن ويجب ان يرفع .

واكد الحزبان على انه يجب على الشيوعيين ان يخوضوا الكفاح من اجل الاستقلال الوطني والوحدة القومية ليس في اطار الحدود السياسية الضيقة والمصطنعة التي اوجدتها الامبريالية ومصالح الاسر المالكة في الاقطار العربية وحسب ، بل على نطاق عربي شامل من اجل التوحيد القومي لكل الشرق ... وان سيادة الحزب (الشيوعي) على الطبقة العاملة لا يمكن ان تتحقق بدون نضال بروليتاري دائم من أجل استقلال وحرية الوطن العربي ...ولا يجوز ان نسمح بحالة تقوم فيها انتفاضة معزولة لحركة ثورية معادية للامبريالية في مصر وفلسطين او أي بلد عربي آخر دون دعم البلدان العربية الاخرى ، فالاحزاب الشيوعية مدعوة للعمل كمنظمة في النضال من اجل التحرر القومي ، ومن اجل الثورة المناهضة للامبريالية على نطاق عربي شامل .

وفي صدد تقييمهما المشترك للوضع في فلسطين ، جاء في قراري الحزب الشيوعي الفلسطيني والحزب الشيوعي السوري ان اللجنة التنفيذية العربية بدأت تسير على طريق خياني في منافسة الصهيونية في المساومة للحصول على تنازلات من الامبرياليين الانكليز ، وان النضال من اجل الاستقلال الوطني والوحدة القومية للشعوب العربية ، الذي تداخل معه النضال من اجل ثورة فلاحية ، يجب ان لا يوجه فقط ضد الامبرياليين وعملائهم الصهاينة ، وانما ايضا ، ضد الاقطاعيين العرب ، وقد رفع الحزب الشيوعي الفلسطيني بعدها شعار اتحاد كافة فلاحي وعمال الشعوب العربية (٤٤) .

ويظهر جليا ان الحزب الشيوعي الفلسطيني كلما ابتعد عن التجمع اليهودي، فكرا وممارسة ، نحو الجماهير العربية في فلسطين وخارجها ، ازدادت مواقفه

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .
(٤٤) موسى خليل ـ الحزب الشيوعي الفلسطيني ـ شؤون فلسطينية ، عدد ٣٩ ، ص ١٢١ .

Digitized by Birzeit University Library

الصحيحة عمقا واتساعا · ومع ان هذا النهج قد نقل الحزب ، نظريا ، الى الموقع الجماهيري ، وانهاء التقوقع ضمن التجمع اليهودي بعد عام ١٩٢٩ ، الا ان العديد من عناصره غير مقطوعة الصلة بالفكر الصهيوني كانت لا تزال معشعشة داخله ، مما اضطر قيادة الحزب الى القيام ، عام ١٩٣٢ ، بحملة تطهير داخل الحزب ، شملت العديد من العناصر اليهودية غير المؤيدة للتعريب ، كما قام الحزب بوضع اعضائه اليهود في تجربة عملية ، حيث ارسلهم للتحريض في القرى العربية ضد احتلال الصهاينة للاراضي ، وارفق مسيرته خلال السنوات الماضية بارسال مجموعة من اعضائه للتدريب والدراسة في الاتحاد السوفياتي ، وكانت غالبيتهم من العرب ·

وفي عام ١٩٣٥ ابتعد الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الى غير رجعة ، عن سياسة وحدة العرب · وبدلا من ذلك ـ شأنه شأن بقية الاحزاب الشيوعية العربية الاخرى ـ ناضل من اجل استقلال الكيانات التي خلقتها الامبريالية ، عندما مارست سياسة (بلقنة) المنطقة ، وشدد الحزب على الحاجات والظروف المختلفة للدول العربية المتفرقة (٤٥) ·

٤ ـ الحزب والثورة المسلحة

قلنا ان سياسة التعريب والبلشفة قد تقدمت بشكل واسع بعد هبة ١٩٢٩ ، حيث تم الاشراف المباشر للكومنترن على الحزب ، كذلك فان علاقات الحزب الفلسطينية والعربية قد دفعته نحو مواقع متقدمة ، ولذلك دخل الحزب انتفاضة ١٩٣٣ بشكل يختلف عما كان عليه الحال عشية هبة البراق · لذا فاننا سنرى ان الحزب قد لعب دورا هاما وكبيرا في انتفاضة ١٩٣٣ · ففي نيسان١٩٣٣ اصدر الحزب بيانا ، دعا فيه الى طرد المستعمرين الانكليز ، وطالب ، لاول مرة ، صراحة ، بالغاء وعد بلفور ، واعادة الاراضي المباعة للصهاينة الى العرب ، وطالب بالنضال ضد الزعماء الاصلاحيين الخونة ، داعيا الشعب الى عدم دفع الضرائب ، وتحديد ساعات العمل بثمانية ساعات يوميا · وتوفير الخبز والشغل للعاطلين عن العمل ·

انفجرت التظاهرات الجماهيرية في تشرين اول ١٩٣٣ ، وقد ساهم الحزب فيها مساهمة واضحة بعد عمليات النقد والتعبئة التي مارسها ، ردا على موقفه من احداث ١٩٢٩ · وتشير المعلومات الى ان الحزب شارك في هبات وحوادث جرت في٢٠٠ قرية من مجموع ٩٠٠قرية اشتركت بتلك الحوادث · وكانت المظاهرات ذات طابع معادي لبريطانيا والصهيونية وملاك الاراضي العرب ، مما يدل على ان هناك نفوذا سياسيا واضحا للحزب في تحريك الاحداث وتحديد شعاراتها ، وقد برزت في تلك الاحداث مجموعات حمدي الحسيني ـ يسار حزب الاستقلال ـ كذلك فقد حملت التظاهرات في المدن الرئيسية الطابع العدائي للامبريالية البريطانية وبشكل صريح ·

واثناء حوادث نيسان ١٩٣٣ ، اصدر الحزب بيانا ، نشرته مجلة الصحافة الدولية في العدد ١٤٨ عام ١٩٣٣ ، حدد الحزب فيه الشعارات التالية (٤٦) : الغاء

---

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ ·
(٤٦)المصدر نفسه ، ص ١٢٢ ·

Digitized by Birzeit University Library

الانتداب ووعد بلفور ، الايقاف الفوري للهجرة ، مصادرة كافة الاراضي وتوزيعها على الفلاحين ، ووقف دفع كافة الديون والفوائد والايجارات والضرائب ، ودعا الى تشكيل لجان عمالية وفلاحية لمقاطعة البضائع البريطانية والصهيونية • وسارت مظاهرة شيوعية يهودية ـ عربية مشتركة في حيفا ، معبرة عن التعاضد الثوري للشغيلة العرب واليهود ، ومظهرة الطابع المعادي للبريطانيين في الحوادث ووصف الثورة هذه بانها « بداية ازمة ثورية • وان الانتفاضة الجماهيرية في بدايتها فقط » ، وان الثورة الفلاحية الجارية ما هي الا مرحلة ما قبل الثورة الوطنية المظفرة ، واعلن الحزب عن تشكيل مجموعات الانصار •

حاول الحزب ان يوحد نضاله مع نضال الحركة الوطنية العربية في فلسطين ، حيث دعم المطالب الوطنية ، واقر الحزب بان العرب قد عانوا (ظلما مزدوجا من الامبريالية البريطانية ومن الغزو الصهيوني) • واصدر بيانا بعد بداية الاضراب العام ، في نيسان ١٩٣٦ ، ناشد فيه (الجماهير اليهودية النضال ضد الصهيونية ...لانه عنطريق هذا النضال، وحده ، ستحصل الجماهير اليهودية على حقوق الاقلية القومية في فلسطين المستقبل المستقلة) ... ثم وصف الانتفاضة، وبعد ذلك بشهرين ، بانها شكل مشروع من الدفاع عن الذات ضد عدوين قوميين ... وقال أن النضال ضد الصهيونية ملح للغاية ، لان الصهاينة كانوا ينتزعون من العرب جميع سبل العيش ، وقريبا فان الصهاينة سوف يحرمون الشعب العربي من فلسطين نفسها ، ويبدو ان الحزب قد مارس نشاطات مسلحة في تلك المرحلة ضد مراكز البوليس البريطاني ، وتجنب مهاجمة الاحياء اليهودية ، وان اشتراك الحزب في المعارك كان اقل حماسا عن مساهمته في احداث١٩٣٣ ، ولكن مساهمته الاساسية في الثورة جاءت عن طريق التحاق نمر عودة ، عضو اللجنة المركزية ، بالمجموعات المسلحة (٤٧) •

وقبض على العديد من كادرات الحزب ، وجرح عدد كبير من اعضائه اثناء المعارك مع البوليس ، وظهرت معارضة قوية ، في بداية عام ١٩٣٧ ، من قبل العناصر اليهودية الشيوعية المعارضة لخط الحزب ، الداعي الى الدعم التام للثورة والاشتراك فيها •

وفي محاولة من الحزب للمحافظة على اعضائه ، وانسجاما مع وجود تيارين ، يهودي وعربي ، داخله ، فقد نظم الحزب عام ١٩٣٧ (قسم يهودي واخر عربي) ، وكانت النتيجة ان اتبع القسمان سياسات متباينة ، حيث استمر القسم العربي في تاييد الثورة ومواقفها السياسية ، بينما رفض القسم اليهودي ذلك • وفي الوقت الذي عارض فيه القسم العربي مشروع التقسيم الوارد في (تقرير بيل) عند صدوره ، الا انه اعتبر المقاومة المسلحة وتجدد الاشتباكات للرد على التقسيم « ضد مصالح العرب واليهود معا » ، ورأى أن الصدامات المسلحة سوف تقود الى تقسيم فلسطين ، لكنه عاد وتراجع امام الموجة الثانية من الثورة ، فلم يقف ضدها ، وركز هجومه ، في تلك الفترة ، على الارهاب اليهودي-ومنظمة الارغون تحديدا متهما اياها بالتواطوء مع الفاشية الايطالية...الا ان صحيفة الحزبالعبرية توقفت ، بعد ذلك ، عن التحريض ضد

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٤ •

Digitized by Birzeit University Library

الصهيونية ، ولصالح الثورة ، وناشدت العرب ان يتخلوا « عن الاستفزاز ، واعمال العنف ، ودعت اليهود الى التفاهم مع العرب » (٤٨) ٠

ويعد هذا التذبذب ، وبداية التراجع عن تاييد الثورة العربية في فلسطين توج هذا النهج في ايار ١٩٣٩ ، حيث اعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني ان تاييدها للثورة كان خطأ ، وانقسمت اللجنة المركزية الى تيارين ، اولهما صاحب القرار ، وثانيهما اعتبر ان خطأ الحزب كان محصورا في عدم مبادرته لتجديد الكفاح العربي المسلح ، قبل ان يفعل القادة الاصلاحيين ذلك ، معتبرا ان عدم اتخاذ هذا الموقف قد ضيع على الحزب امكانية قيادة الثورة ، وتوجيهها الوجهة الصحيحة ٠

لقد شاركت عناصر شيوعية عربية بارزة في الثورة ، ومارست دورها في تلك الفترة ، واحتل بعضها دورا قياديا في الثورة ٠

٥ ـ الحزب والنضال الجماهيري

لم يستطع الحزب ان يرتقي بنضاله الجماهيري بما يتناسب وكونه حزب الطبقة العاملة الفلسطينية وحلفائها الفلاحين ، لكونه مر بمراحل من الصراع المتتالي اجبرته على صرف أغلب جهده لمواجهة المشاكل الداخلية ـ الايديولوجية والسياسية والتنظيمية ـ ومع كل هذا فقد لعب الحزب دورا تحريضيا بارزا ، قياسا الى غيره من الاحزاب ، سيما داخل التجمعات اليهودية ، حيث يتمركز نفوذه ووجوده ، وقد انتبه الحزب بشكل مبكر الى ضرورة العمل الجماهيري العربي ، فمنذ عام ١٩٢٨ حاول الحزب ان يقيم مؤسساته الجماهيرية النقابية ، وغيرها من الاندية وابواب النشاطات الاخرى ، الا ان ذلك لم يكن واضحا بالشكل المطلوب ، لكون الحزب حشر نفسه ، اساسا ، ضمن المؤسسات الصهيونية ٠ اما في أطار العمل العربي فان ضعفه وعدم تعريبه ، اضافة الى مواقفه غير الثابتة من التحالف والصراع مع قادة الحركة الوطنية الفلسطينية ، كل ذلك شكل عقبات أخرى امام ، امكانية تطور مؤسساته الجماهيرية العربية ٠ لذلك نجد ان هناك فترات زمنية غير متصلة ، تخللها المد والجزر في نمو منظماته الجماهيرية ، اضافة الى ان واقع التناقض داخل الحزب نفسه سمح لعناصر شيوعية عربية بالنشاط كأفراد وتجمعات ، وتاسيس جمعيات ونواد ونقابات ، وتؤثر فيها باتجاه ثوري متقدم دون ان يعني ذلك ان الحزب الشيوعي الفلسطيني ، كمنظمة حزبية ، قد خطط لهذه الاعمال ، ومن الطبيعي ان يتركز نشاط الحزب وسط صفوف الطبقة العاملة ، حيث هو الاكفأ لتلمس مشاكلها ، والدفاع عنها ، وتوطيدها في منظمات نقابية تناضل من اجل انتزاع حقوقها ٠ وقد نجح الحزب ، بنشاطه هذا ، ولعب دورا رئيسيا فيه حيث انتخب اول رئيس لاتحاد النقابات العمالية الفلسطينية من صفوف الحزب ، ولم يكتف النشاط الشيوعي بالعمل النقابي العمالي ، بل امتد الى المثقفين والطلاب ٠ ففي ذكرى وعد بلفور ، ٢ تشرين الثاني ١٩٣٠ ، دعت اللجنة الطلابية ـ حيث للشيوعيين نفوذا كبيرا فيها ـ الى الاضراب العام ، بنفس الوقت الذي دعت

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

Digitized by Birzeit University Library

فيه اللجنة التنفيذية العربية الى عدم الاضراب ، والخلود الى الهدوء والسكينة ، الا ان الاضراب قد حصل فعلا ، ونجح (٤٩) · وفي الجانب الاخر مارس العمال اليهود الشيوعيون واصدقاؤهم دورهم المعارض لمبدأ « احتلال العمل » الصهيوني ، حيث بدأ طرد العمال العرب من المشاغل اليهودية · وجرت اضطرابات داخل المنظمات والمجمعات العمالية اليهودية، مما أدى الى ارباكات فعلية للحركة الصهيونية ، والى التخلص من الشيوعيين اليهود ، جرى اعتقالهم وتقديمهم للمحاكمات ، وجرت محاكمات العمال اليهود ، خلال شهري اذار ونيسان ١٩٣٢ (٥٠) · وصدرت أحكام ضد بعضهم ، حين نفي عدد اخر الى خارج فلسطين ·

لقد شارك العمال الشيوعيون اليهود بشكل بارز ، وحاولوا توجيه اضطرابات الطبقة العاملة في فلسطين نحو اهداف سياسية وطنية جذرية ، وفي الوقت الذي كانت فيه مصالح غالبية قيادات الحركة الوطنية ضد الاضرابات ، وطالبوا بالهدوء والعزوف عن ذلك ، كان الشيوعيين في طليعة الداعين لها · وتشير الاحصاءات الى انه بين عام ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ نظم في فلسطين عشرون اضرابا عماليا · وما بين عام ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥ نظم ٢٦ اضرابا كما وان الشيوعيين العرب ، بالاشتراك مع القوميين (حمدي الحسيني وغيره)، كانوا المحور الاساسي في تشكيل الحاميات العمالية العربية لمواجهة الحاميات الصهيونية ، وقد تصدت الحاميات العمالية العربية للمخططات الصهيونية ، ومنعت العمال اليهود عن دخول المعامل العربية ، وحتى منعتهم من العمل في معامل (الحكومة) الواقعة خارج المناطق المسيطر عليها من قبل الحركة الصهيونية ، كما رفعت شعارا بمقاطعة البضائع الصهيونية في عموم فلسطين وفرض حصار اقتصادي على التجمعات الصهيونية ، وفي ذكرى وعد بلفور عام ١٩٣٤ اضرب عمال المواصلات، اضرابا شاملا على صعيد كل البلاد ، وقد احدث ذلك الاضراب ارباكا كبيرا في حركة المواصلات ، حيث التأثير المباشر على الدوائر الحكومية وخدمات النقل ·

ان احدى الميزات الاساسية للحركة الشيوعية الفلسطينية هي قدرتها المبكرة على ربط النضال ضد الصهيونية بالنضال ضد الامبريالية البريطانية وحفنة الرأسماليين والرجعيين في فلسطين ، وقد تحملت من جراء ذلك الملاحقات المتعددة من البوليس البريطاني · ففي الوقت الذي افرجت فيه السلطات البريطانية عن ابناء قادة الحركة الوطنية الفلسطينية المشاركين في حوادث ١٩٣٣ ، وظل الشيوعيون العرب ، والعمال ، والفلاحين الفقراء رهن الاعتقال ، يتعرضون لاقسى انواع التعذيب (٥١) وامتدت النشاطات الجماهيرية نحو الشباب بشكل عام ، حيث عقد مؤتمر الشباب العربي في ٣ تموز ١٩٣٤، وبعد ان اصدر المؤتمر بيانه المتمسك بعروبة فلسطين ، والوقوف بوجه حركة الاستيطان الصهيونية ، شكل فصائل خاصة لحراسة

(٤٩) عبد القادر ياسين ـ كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨ · ص ١١٥ ·
(٥٠) اميل توما · جذور القضية الفلسطينية ص ٢٠٨ ·
(٥١) ياسين ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٢ ·

Digitized by Birzeit University Library

الشواطىء الفلسطينية والحدود ، للحيلولة دون وصول المتسللين الصهاينة ، ومنعهم من دخول البلاد ، وبذلك بدأت الجماهير تشعر بأهمية دورها ، هي ، في المحافظة على وطنها ، دون الركون الى (النوايا الحسنة) لسلطات الاحتلال ، او انتظار نتائج المفاوضات بين بريطانيا وقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية . وفي اب ١٩٣٤ حصل الصدام الاول بين فصائل الشباب والقوات الصهيونية ، جرح من جرائه ثمانية اعضاء من مؤتمر الشباب العربي .

لقد شهد التاريخ الفلسطيني في تلك المراحل سلسلة من الاضرابات الجزئية والشاملة ، اعطت النضال الوطني الفلسطيني بعدا طبقيا جديدا . ففي شباط ١٩٣٦ تعاقدت الحكومة البريطانية مع احد المقاولين اليهود على بناء ثلاثة مدارس في يافا ، وتضبيقا لقرارات الحركة الصهيونية رفض ذلك المقاول تشغيل اي عامل عربي في موافع العمل بالمدارس المذكورة، وهنا قامت جامعيات العمال العرب بتشكيل قوة خاصة من العمال طوقت مواقع احد المدارس التي بدأ العمل فيها ، ومنعت العمال اليهود من الوصول اليها .

لقد لعب مؤتمر العمال العرب دورا مهما في تاريخ فلسطين كتجمع نقابي للعمال العرب ، وبقيادة وتوجيه العناصر الشيوعية ، حيث بلغ عدد اعضائه نحو ١٨ الف عامل ، عام ١٩٤٦ وكان قد تشكل في صيف ١٩٤٥ (٥٢) .

٦ - مصير الحزب

ان انقسام الحزب الى قسمين ، يهودي وعربي ، كان بداية لتشكيل حزبين ، واتجاه كل فريق نحو انتهاج سياسة متأثرة بالوضع المحيط به ، وتطورت سياسات كل منهما حول نقاط محددة الى نهج مستقل . فالقسم العربي من الحزب، او الحزب (الشرعي) تردد في مواقفه لمرات عديدة ، حيث هاجم بنهاية عام ١٩٣٨ المفتي ، واعتبره عميلا للفاشية الالمانية ، بعد ان منحه التأييد خلال السنوات السابقة . وقد حصلت خلافات عديدة داخل الحزب ، حيث ظهر فريق منه يعتبر الثورة الفلسطينية صحيحة ، متحمسا لتأييده للمفتي ، كذلك فالحزب قد رفض التقسيم كما ورد في (تقرير بيل) عند صدوره ، لكن اللجنة التنفيذية للحزب عادت وايدت الكتاب الابيض ١٩٣٩، على اساس ان الجماهير العربية قد (استنفذت) قواها في النضال الطويل المستمر ، وانها بحاجة الى تراجع منظم. ودخل الحزب بقسمه العربي عام ١٩٤٠ وهو متنكر تقريبا لغالبية مواقفه الثورية، وممارساته الجماهيرية ، وبوضع ضعيف على المستوى التنظيمي ، بسبب انفجار صراعاته الداخلية .

اما القسم اليهودي من الحزب فقد عارض الكتاب الابيض ١٩٣٩ ، وانشق الى مجموعتين رئيسيتين (مجموعة باجوجاومجموعة ها ايمت). وبعد ذلك عادت المجموعة الاخيرة الى صفوف الحزب - القسم العربي - في حزيران ١٩٤٢ ، رغم معارضة بعض من قيادة الحزب ، التي صعدت بدورها الهجوم على الصهيونية ، مما ادى الى تفاقم الخلافات من جديد ، وحصول الانشقاق المعلن في ايار ١٩٤٣ ، بعد ان عارضت اللجنة المركزية للحزب الاشتراك بنشاط الاول من

---

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .

Digitized by Birzeit University Library

ايار التي نظمها الهستدروت (٥٣) ٠
وفي التاسع من ايار ١٩٤٣ اجتمع مؤتمر الحزب لرأب الصدع ، لكن بيانا صدر باسم اللجنة المركزية اعلن طرد العناصر الصهيونية التي تسللت الى داخل الحزب ، واعلن أن الحزب الشيوعي هو حزب عربي ، ويمكن للعناصر اليهودية الانضمام اليه اذا كانت مستعدة للاقرار بهذه الحقيقة ٠ لكن قيادة الحزب تنصلت من هذا البيان ، ورغم ذلك حصل الانشقاق وانشطر الحزب الى ثلاثة اتجاهات ، اولهما يهودي ، وثانيهما مع الامين العام للحزب ـ رضوان حلو ـ والثالث مجموعة ساهمت بتأسيس عصبة التحرر الوطني ، في شباط ١٩٤٤، وفي الجانب اليهودي للحزب التقت مجموعاته المنشقة مع بعضها ، في اوائل ١٩٤٤ ، حول ضرورة اعادة نشاط الحزب. وعقدوا ، في ايار ١٩٤٤ ، مؤتمرهم الخاص حيث شكلوا الحزب الشيوعي الفلسطيني ، اما رضوان حلو مع شيوعيين يهود اخرين فقد انشاوا (الاتحاد التربوي الشيوعي) الذي اصبح في تشرين اول ١٩٤٧ (الحزب الشيوعي العبري) الذي واصل اقترابه اكثر فاكثر من الموقف الصهيوني (٥٤) ٠

لقد تشكلت نواة عصبة التحرر الوطني من العناصر الشيوعية العربية التي غادرت الحزب الشيوعي الفلسطيني ، اضافة الى رابطة المثقفين العرب التي يعود منشؤها الى العام ١٩٣٧ ، حين شكلت مجموعات طلابية (منظمة الطلبة العرب) ، ومع مجموعة النوادي السياسية مثل (العصبة العربية ضد الفاشية) و (نادي الشعب) و (جمعية اشعة الامل) ، واعلنت العصبة اهدافها في برنامجها الذي نشر في اوائل عام ١٩٤٦ ، والمتضمن معارضته للحركة الصهيونية ومطامحها ، والغاء الانتداب البريطاني ، وتأسيس حكومة ديمقراطية في فلسطين الموحدة المستقلة ، ونادت بتقوية الروابط مع الشعوب العربية ، مؤكدة على كونها تميز بين الصهيونية و (الشعب) اليهودي ، مع تاكيدها على ضرورة توزيع الارض على الفلاحين ، ورفع اجور العمال وتطوير المدارس ، وجعل التعليم الزاميا٠ واشترط البناء التنظيمي لها كما نص عليه نظامها الاساسي على ضرورة انشاء حزب مبني بكامله على الاسس الشيوعية ، وعضوية العصبة (مفتوحة لكل مواطن عربي فلسطيني يوافق على الصفة القومية للعصبة ولنظامها الداخلي) ٠

وايدت العصبة سياسة التحالف مع الزعامة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية ، ودعت الى تشكيل جبهة عربية ، وطالبت بتأسيس سلطة عربية عليا تكون مبنية على اسس ديموقراطية٠ ونشب اول خلاف مع الهيئة العربية العليا حول طبيعة تشكيل قيادات العمل الوطني، حيث طالبت العصبة بأن يكون التشكيل نتيجة لانتخابات ديموقراطية ، واستمرت العصبة في ممارسة سياسة الدعم للهيئة العربية العليا مع النقد لاخطائها ، لكن الهيئة من جانبها اتخذت موقفا معاديا من العصبة ، ومنعتها من الانضمام للتحالف بين بقية الفئات السياسية العربية ، في حزيران ١٩٤٦ ، وحذرت العصبة من مخاطر التقسيم لان ذلك

(٥٢) موسى خليل ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٧ ٠
(٥٣) موسى خليل مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٧ ٠
(٥٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ٠

Digitized by Birzeit University Library

« يضمن مستقبل الصهيونية ، ويؤمن للامبريالية موقع قدم في كل العالم العربي » وادانت الشعارات غير الواقعية (لجزء من الحركة الوطنية العربية فيما يتعلق بالعيش بسلام مع اليهود) واصرت العصبة على ان الحركة الوطنية العربية « تستطيع بالفعل ان تؤمن الحقوق الديموقراطية للسكان اليهود » · وكان حلها مبنيا على الرغبة لتامين السلام والهدوء لكل الذين يعيشون في فلسطين الان ، والسياسة المقترحة من اجل ذلك هي تقرير المصير ، السياسة الوحيدة التي تؤمن الحقوق القومية للشعب العربي، والحقوق «المدنية والحريات الديموقراطية للسكان اليهود » ، وسيتمتع اليهود بكل الحقوق القومية المشروعة التي يتمتع بها اليهود الاخرون في البلدان الديموقراطية · واختلف موقف العصبة من المسالة اليهودية اختلافا جذريا عن موقف الحركة الوطنية العربية ، فقد ميزت العصبة ، بوضوح ، بين الصهيونية والسكان اليهود في فلسطين ، ووصفت الحركة الصهيونية بانها حركة عدوانية في خدمة الامبريالية ، ومعادية للامة العربية ، ولليهود انفسهم على السواء ، ورفضت الخلط بين اليهود والصهاينة · اما بخصوص مشكلة اليهود المهاجرين من اوروبا ، فقد اعلنت العصبة انها مشكلة عالمية ، ولا ينبغي ان ترتبط بقضية فلسطين ، ويعود حلها الى تحمل العالم ، ككل ، مسؤوليته الدولية لانهاء اعباء هؤلاء الذين يريدون العودة الى اوطانهم·

وفي اذار ١٩٤٦ هاجمت العصبة زيارة اللجنة الانكلو ـ امريكية القادمة الى فلسطين انذاك ، واعلنت انها لا يمكن ان تؤدي الا الى « حل استعماري جائر مبني على التقسيم ، لذلك ينبغي افشال هذا المخطط برفض التواطؤ مع اللجنة »· وادانت موقف اللجنة العربيه العليا لموقفها الانتهازي الذي رحب باللجنة المذكورة · وبعد ان اعلن الاتحاد السوفياتي في هيئة الامم المتحدة موافقته على قرار التقسيم ، استمرت العصبة في معارضتها له ، واعتبرت ان خطة التقسيم سوف تؤدي « الى فصل نهائي بين العرب واليهود ، وستحطم كل امل في التعاون والتفاهم في المستقبل ، وستخلق دولة يهودية تكون قاعدة للامبريالية الانكلو ـ امريكية في المنطقة ، ولانها ستعيق كل تطور اقتصادي » · وبنفس الوقت اعلنت العصبة رفضها للدولة مزدوجة القومية ، ولكل المشاريع المقترحة ذات الهدف المركزي ، وهو حفظ واستمرار مركز سلطة الامبريالية البريطانية في فلسطين وعليها ، ورأت ان الحل هو الغاء الانتداب ، واخراج الجيش البريطاني ، وتأسيس دولة ديموقراطية مستقلة تكفل حقوقا متساوية لليهود العرب (٥٥) ، ووصفت قرار التقسيم ، الذي اوصت به (لجنة التقصي) ، بانه نتيجة المؤامرات الاستعمارية داخل الامم المتحدة التي تهدف الى تدمير مستقبل فلسطين والامم المتحدة ، معا · ومارست العصبة ، ومن قبلها المؤسسات التي تشكلت منها ، دورا مهما في تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية، حيث انشأت (جمعية اشعة الامل) في خريف عام ١٩٤٢ (اتحاد النقابات وجمعيات العمال العربية) ، وشكلت فروعا يسارية لها دخلت في تناقض مع القيادات اليمينية المهيمنة على قيادة (جمعية العمال العربية) ، وادى انسحاب العديد من فروع جمعية العمال العربية ،

.....

(٥٥) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

Digitized by Birzeit University Library

الى تاسيس (مؤتمر العمال العرب) ، كاطار مستقل عن جمعية العمال العربية، واصبح (المؤتمر) يعد ذلك المنظمة الرئيسية للعمال العرب في كل البلاد وكان نشاطه بدون شك اكثر اخلاصا لمصالح العمال من نشاط جمعية العمال العربية في فلسطين (٥٦) ٠

ان اتساع العصبة ونموها قد سمح لها بالتغلغل داخل العمال العرب والمثقفين والطلبة ، وخلقت بذلك « تحالفا حقيقيا بين المثقفين والعمال » ٠ وبصدد العلاقةمع الحزب الشيوعي الفلسطيني ، فقد بقيت مجمدة حتى صدور البيان المشترك بينهما في ١٨ نيسان ١٩٤٦ ، والمتعلق باضراب موظفي الحكومة ٠ واستمرت العصبة بالعمل من اجل دولة فلسطينية موحدة ، ودافعت عن الموقف السوفياتي على اساس انه « تكتيك سياسي مؤقت » ٠ وكان الموقف السوفياتي ، كما ورد على لسان غروميكو ، ممثل الاتحاد السوفياتي في الامم المتحدة في ذلك الوقت ، هو « ان قيام دولة عربية ـ يهودية مستقلة هو الحل الديموقراطي الامثل ، ولكن هذا الحل يعتمد على قيام تعاون اكيد بين الشعب العربي و (الشعب) اليهودي لاقامة هذه الدولة ، وفي حال عدم قيام هذا التعاون ، وبالنظر لرغبة كلا الشعبين في الاستقلال فواجبنا ان نفكر في اقامة دولتين مستقلتين تمام الاستقلال ، بعد الغاء الانتدات وجلاء الجيوش الاجنبية » ٠ (٥٧) ، وبعد ان اصبح قرار التقسيم ، في تشرين الثاني ١٩٤٧ ، امرا واقعا، وموافقة الاتحاد السوفياتي عليه ، احدث ذلك انشقاقا داخل العصبة ، فتجمعت فئة حول فؤاد نصار ، واميل حبيبي اللذين قبلا بقرار التقسيم ، بينما عارض هذا الخط فئة اخرى من مؤسسي العصبة (بولس فرح ، اميل توما ، وموسى دجاني) ٠

وفي اوائل كانون اول ١٩٤٧ عقدت اللجنة المركزية للعصبة مؤتمرا لرسم سياسة جديدة مشتركة اعلن فيه معظم المشتركين معارضتهم للتقسيم ٠ الا ان الاقلية حاولت الالتفاف على هذا القرار فرتبت لعقد مؤتمر من وراء غالبية اللجنة المركزية ، وفي اواسط كانون اول ١٩٤٧ عقد اجتماع موسع ثان « قاطعه ممثل الاكثرية ، كما منعوا فروع حيفا وعكا من الاشتراك فيه ، ونالت وجهة نظر الاقلية اكثرية اصوات المندوبين » ٠٠(٥٨)

ويروي موسى خليل التخلي عن الموقف الاساسي للعصبة ، فيقول انه ، في كانون الثاني ١٩٤٨ عقدت العصبة مؤتمرا في الناصرة لرسم سياسة مشتركة اعلن فيه معظم المشتركين معارضتهم للتقسيم ، الا ان مؤتمرا جديدا عقد في يافا بعد ذلك بشهرين قلب قرارات اجتماع الناصرة وازيحت مجموعة فرح ـ توما عن القيادة وصنفوا « انعزاليين يمينيين » ٠ (٥٩) ٠ شاركت مجموعة (فرح ـ توما) ،

---

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ ٠

(٥٧) كراس صادر عن اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني تحت عنوان ـ الوضع في فلسطين منذ انتصار الشعوب على النازية بقيادة الاتحاد السوفياتي ـ ايار ١٩٥١ ص ٥ ـ ٦ ٠

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ١٢ ٠

(٥٩) موسى خليل مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٥ ٠

Digitized by Birzeit University Library

المعـــارضة للتقسيم ، في الدعوة الى اضراب عام ، في كانون الاول ١٩٤٧ ، وتطابقت كليا مع الحركة الوطنيـــة ، واستمرت هذه المجموعة في تسيير امـور مؤتمر العمال العرب · وفي حيفا التحق تنظيم العصبة بموقف بولس فرح ، امـا في يافا فقد نظم خليل المنحل ومحمد نمر عودة تنظيم انشقاق تحت اسم (حركـة النقابيين الاحرار) ، وشكل ، في القدس، مخلص عمرو وجريس رمانة ومحمـــد فياض (رابطة المثقفين العرب) (٦٠) ·

اما مجموعة فؤاد نصار ـ اميل حبيبي، التي اخذت موقفا مؤيدا للتقسيم ، فاخذت تحرض ضد (الغـزو العربي) بعد ان دخلت الجيوش والقوات العربيـــة الى فلسطين ، ودعت الى سحب جيـــوش الجامعة العربية··· واستمرت المجموعات اليهودية العاملـــة تحت اسم الحـــزب الشيوعي الفلسطيني ، منذ اوائل ١٩٤٤، واخذت مواقف ، في البداية ، لصالـــح اقامة فلسطين ديموقراطيـــة مستقلة · واكدت على ان الحل العملي الوحيد يكمن في تشجيع الوحدة العربية ـ اليهودية ·

ولكن هذا الحزب اخذ يفاوض ، بعد ذلك ، الحركة الصهيونيـــة من اجـــل اشتراكه بالجمعية التشريعية الصهيونية، وقد حصل على ثلاثة مقاعد فيها ، نتيجة تلك المشاركة · واخذ يفاوض للدخـــول في الهستدروت ، وفي نيسان١٩٤٥ اعترف الحزب الشيوعي العبري ـ الذي اسسه عضوان سابقان في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني ـ (بالوطن القومي اليهودي) ، وصادق على طلب الهجـرة الى فلسطين ·

ظـل الحـزب الشيـوعي الفلسطيني يعارض قيام (الدولة اليهودية) ، متحركا في اطار المطالبة بالحقوق (القوميـة) لليهود ، ثم اقترح انشاء دولة فدرالية ، واستمر في تخفيف عدائـــه للحركـة الصهيونيه ، حتى كانـون اول ١٩٤٦ ، حيث اعتبر ان المقاومة الصهيونية ضـد البريطانيين « فيها شيء من الاحتجـاج ضد الحكم الاستعمـاري » · وهـاجم الجامعة العربية واعتبر مشروع التقسيم، في بدايتـــه ، على انه (يشكل مصيبة للسكان اليهود والعرب ، على السواء) وعاد ، في تموز ١٩٤٧ ، منقلبا عـلى موقفه السابق ، حيث ايد التقسيم · وفي تشرين اول ١٩٤٨ التقت عصبة التحـرر الوطني والحزب الشيوعي العبـري اللذين كان قد وحدهما موقفهما المؤيـد للتقسيم وانضم اليهما ايضا الحـزب الشيوعي العبري ، وكذلك انتهى الخلاف بين شفي العصبة ، اذ تقاعد بولس فرح عن النشاط ، وتراجـع اميل توما عن مواقفه السابقة ، وانضم الى الحـزب الشيوعي الاسرائيلي ـ حيث اصبح اسمه هكذا بعد قيام الكيان الصهيوني ـ ·

ونشرت الامانة العامة لعصبة التحرر الوطني نقدا ذاتيا لنشاطاتها السابقـة مؤكـدة على « ان تكوين حزبنـا » ـ عصبة التحرر الوطني ـ عام ١٩٤٣ على اساس قومي ـ اي على اساس انه حزب الطبقة العاملة العربية ـ كان في الواقع ضربة موجهة الى صميم وحدة الطبقـة العاملة الفلسطينية ـ العربية واليهودية ـ على السواء ، وبالتالي الى صميم حركة التحرر في فلسطين (٦١) · وبعـد ذلك اصبحت العصبة جزءا من الحزب الشيوعي الفلسطيني ثم الحزب الشيوعي الاردنـي بعد الحاق الضفة الغربية بامارة شـرق الاردن ·

---

(٦٠) كراس صادر عن العصبة ـ مصدر سبـق ذكره ·
(٦١) المصدر نفسه ، ص ٩ ·

Digitized by Birzeit University Library

الاقتصاد السياسي الجذري ـ اليساري في الولايات المتحدة *

ك. كوزلوفا
ترجمة : محمد الجندي

احدى الظاهرات البارزة ، في النصف الثاني من الستينات ، كانت ظهور اتجاه جديد ، جذري ـ يساري ، في الاقتصاد السياسي بالولايات المتحدة . اتجاهات مشابهة برزت ، ايضا ، في السوسيولوجيا والفلسفة .

وكان المسرع القوي في تشكل المعارضة الجذرية ـ اليسارية في الاقتصاد السياسي الحجم الكبير لحركة الطلاب ، التي تواجد فيها الرفض للقيم الايديولوجية السائدة ، والاحتجاج ضد الاشكال البالغة التنوع للمظالم الاجتماعية والتشويه الشخصية ، وضد العسكرية ( ) ، والسياسة الخارجية الامبريالية ، والعدوان في فيتنام . نتج عن ذلك انتقالات في الوعي الاجتماعي الجماهيري ، ونمو في الحس النقدي لدى جزء هام من الشبيبة الطلابية .

دروس الكفاح من اجل الحقوق المدنية ، وتحسين الوضع ضد الفقر ، وتجربة المظاهرات المعادية للحرب ، اثبتت عدم جدوى الآمال بالاصلاحات الجذرية مع استمرار النظام البرجوازي ، الاقتصادي والسياسي . تجربة الحياة لدى الاقتصاديين الشباب ، المتمتعين بحس نقدي ، ساعدتهم في الوصول الى النتيجة ، في التضارب الرئيسي ما بين الراسمالية والديمقراطية ، وفي ضرورة التوجه الى « منظور جذري » للمجتمع الاميركي ، والى ضرورة اجراء

* عن مجلة الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية (موسكو)، باللغة الروسية، العدد الثاني ، شباط (فبراير) ١٩٧٨ .

Digitized by Birzeit University Library

تغييرات واسعة في بناء المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . الاصطدام بالاشكال المتنوعة من عدم المساواة ، والظلم ، والهدر الاقتصادي وسحق الشخصية ، دفع الاقتصاديين الشباب ، كما يكتبون هم – الى الاهتمام بالنظريات النقدية ، وبالدرجة الاولى ، الى الاهتمام بالماركسية . ان خيبة الامل في الاصلاحيـــة Reformisme البرجوازية عززت المحاولـة لفهم الجذور الاجتماعيـــة العميقـــة لتناقضات وثغرات البرجوازية (١) .

ولد الاتجاه المعارض في الاقتصاد السياسي ، ونما في احشاء النظام الجامعي . الاقتصاديون ، المنطلقون من اسم « الاقتصاد السياسي الجذري » ، صرحوا عن أنفسهم بنشر عدد كبير من المقالات والكتب ، وبالقاء المحاضرات « الدورات (الكورسات) الجذرية » على الطلاب في عدد من الجامعات القوية ، وبالمشاركة في مؤتمرات اقتصادية ، قومية ، وعالمية . اكتسب الشهرة ممثلون عديدون عن الاتجاه اليساري الجذري : « **هـ. شيرمان ، ي. هانت ، د. غوردون ، ر. ادواردز ، ت. وايسكوف ، ج. اوكونـــور ، هـ. جنتس ، ج. ويفـر ، س. بويلز ، هـ. فوشتل ، ا. ماكيفن ، ست. هايمر ، س. مارغلين ، ج. هيلي.**

الاتجاه الجذري تشكل تنظيميا ايضا . ففي ١٩٦٨ انشىء « **الاتحاد من اجل الاقتصاد الجذري** » (URPE) ، الـذي يصـدر مجلتـه الفصليـة The Review of Radical political Economics ومجلدات تحوي دراسات بمختلف الموضوعات (٢) . في بداية ١٩٧٢ كان يعد « الاتحاد من اجل الاقتصاد السياسي

---

(١) « Luately journal Symposium Economics of the New Left », of Economies », November 1972

(٢) منذ ربيع ١٩٦٩ تصدر ، ايضا ، عدا تلك المجلة ، نشرة URPE News letter التي تضع لنفسها مهمة الاعلام عن نشاط بعض المجموعات ، الداخلة في **الاتحاد من اجل** الاقتصاد السياسي الجذري » ، وعن اهم منشورات الاقتصاديين الجذريين . نشرة مماثلة فصلية The Insurgent Sociologists يصدرها منذ ١٩٦٩ « اتحاد السوسيولوجيين الجذريين » . ونشرة ، تصدرهـــا كل شهرين ، ايضـــا ، منظمة وطنية جديـــدة The New University Conference « العلماء والطلاب والمثقفين الجذريين » . انشئت في عام ١٩٦٨ ، في شيكاغو ، بهدف توحيد

Digitized by Birzeit University Library

الجذري » مـــا يقرب مـن ٥ر١ الف عضو (٣) · الاقتصاديون اليساريون الجذريون لا ينشطون ، فقط ، على صفحات المجلات ، ذات الاتجاه (٤) النقدي ـ الاجتماعي ، وانما ، ايضا ، في منشورات اكاديمية « محترمة » ، مثـــل مجلة الجمعية الاقتصادية الاميركية American Economic Review .

بالرغم مـن ان علاقة الاتجاه الجذري ـ اليساري مـع نهضة **اليساريين الجدد** » في الستينات هي بدهية ، فليس مـن الانصاف اعتبـار ، ان الاقتصاد الجذري ـ اليساري ، ليس سوى واحدا مـن اشكال تلك الحركة ، عاكسا لكل جوانبها الايجابية والسلبية ، ومكررا تماما لمصيرها (٥) · الحديث هنا هو عن اتجـاه خاص في العلم الغربي ، بمنطق تطور خاص به ، يبرز كنتيجة للتفاعل المديد ، لعدد كامل من العوامل ، ذات الطابع الداخلي والعالمي ، منها تعمق الازمة ، المتعددة الجوانب ، في الرأسمالية ، وفقدان الثقة ، لدى جزء مـن الانتلجنسيا ، بسلطة الدولة وسياستها ، وخيبة الامل في الليبرالية والاصلاحية البرجوازية · واهم محرض في تطوير هذا الاتجاه هو تواجد وصراع نظامين اجتماعيين عالميين ، وانعكاس تجربة الحركة العمالية ، والتحررية الوطنيـة ، في وعي ، ونظرة قسم هام من الانتلجنسيا ، ونمو تأثير الماركسية ·

الاتجـاه الجذري ـ اليســاري الجديد في الاقتصـاد السيـاسي ، وفي السوسيولوجيا ، تكون ، عمليا ، في كل البلدان الرأسمالية الاساسية · والحدث في انه في الولايات المتحدة اخذ ، نسبيا ، حجما اكبر ، بالمقارنة مع البـــلدان الاخرى ، واكتسب تأثيرا ابلغ ، في اوساط الانتلجنسيا ، له اسباب موضوعية محددة · في الولايات المتحدة ما تزال حية الجذور العميقة ، لـ « الفرديـــة الديمقراطية » ، ذات الطـابع الاميركي ، وللراديكالية (الجذرية) البرجوازية الصغيرة · تقاليد الفكر الاشتراكي في هذه البلاد ضعيفة نسبيا ، وكذلك النقـد

---

(٣) « Business Week » , 18 - III - 1972 . P . 27

(٤) يصنف في هذا الاتجاه : « Science and society » ، « Challenger » ، « Social Research » , « Journal of Economic Issues » , « Monthly Review » , « Dissent »

(٥) عن حركة « اليساريين الجدد » في الولايات المتحدة · انظر: S. Goode في كتابه : « Affluent Revolutionaries .A Portrait of the New Left » New York 1974

Digitized by Birzeit University Library

الاشتراكي للرأسمالية ، ولـم تنل تطور الديمقراطية الاشتراكية مـن النموذج الاوروبي ·

الى جانب ذلك تظهر مشكلات وثغرات الرأسمالية في الولايات المتحدة اعظم ما يمكن ضخامة ، وبداهة · بلغت درجة كبيرة من الحدة تناقضات الصناعية Industrialisme الرأسمالية مع عقلنتها Rationalisme مع البنيات التكنوقراطية التربوية ـ التسلسلية Hierarchique لاقوى المجامع Corporations ومع الصيغ البيروقراطية ـ السلطوية للنشاط السياسي ، ومع انهيار القيـم الانسانية والروحية ·

● مواقـع الانطـلاق

لكي نفهم جوهر الاتجاه الجذري ـ اليساري ، من الضروري ، قبل كـل شيء ، ان نحدد ، ما يختلف به ، عما يسمى بالجناح « الجذري » في الاقتصاد السياسي البرجوازي · لهذا الجناح ، الذي عزز نشاطه ، بشكل ملحوظ ، منذ منتصف الستينات ، وبخاصة في السبعينات ، ينتسب اقتصاديون كثيرون من مدرسة كمبردج في انكلترا **(جون روبنسون، ب· سرافا ، ن· كالدر)** وقسم هام من اقتصاديي الاتجاه المؤسساتي Institutionaliste في الولايـات المتحدة **(ر· هايلبرونر ، ج· غيلبرايت ، ل· تورو ، واخرون)** ·

هؤلاء ، مشربين بامزجة نقدية ، ينطلقون ، كما هو معروف ، من المواقع الليبرالية اليسارية والتقدمية ـ البرجوازية ، بالنسبة للبنية الرأسمالية المعاصرة ، ويحاولون ، ان يعيدوا بناء الاقتصاد السياسي ، في محاولة ، ليجعلوه متلائما مع شروط وحاجات المجتمع المعاصر · نظريو الجناح (الجذري) يرغبون في معالجة محدودية المفاهيم الكلاسيكية الجديدة ، والكنزية ، يرغبون في وضـع تحليل منهجي جديد للمسائل الاقتصادية ، يأخذ في اعتباره البنيـة المؤسساتية المعقدة ، وتصادم المصالح الاجتماعية ، والعوامل السياسية ، ودور سياسـة الدولة ·

اقتصاديو هذا الاتجاه ينطلقون من نقد المنهج ونقد المفاهيم الهامشية · في مقابل المذهب الكلاسيكي ، المكرو اقتصادي ، يضع نظريو مدرسة كمبردج صيغتهم في نظرية القيمة · وتجاه النظرية الاورثوذكسية ، الكينزية ، الماكرو ـ اقتصادية ، يقيمون نظريتهم ، الصيغـة الكنزية اليسارية ، مشددين عـلى الاهميـة البالغة

Digitized by Birzeit University Library

لمسائل توزيع الدخول Revenues ، ومدافعين عن نظرية اجتماعية للتوزيع (٦) . هذا الفرع بالذات من الاقتصاد السياسي خلق تأثيرا مباشرا على نشوء الجذريين ـ اليساريين . في مجال النظرية يلاحظ ذلك ، خصوصا في النقد الجذري ـ اليساري للمنهج الهامشي ، وللمفاهيم الكلاسيكية ـ الجديدة عن المنفعة ، وعن توزيع الدخول ، وعن الطلب الاستهلاكي ، وعن نظرية الرفاه (٧) .

ولعب دورا ،ليس بالقليل ،ايضا ، في نشوء الفكر الجذري ـ اليساري ، النقد الاصلاحي ـ البرجوازي للرأسمالية المعاصرة ـ ثغرات « مجتمع الاستهلاك» والتناقضات في تنظيم الاقتصاد ما بين القطاع الاحتكاري الخاص وقطاع الدولة ، العسكرية ، والسياسة الامبريالية بالنسبة لبلدان « العالم الثالث » .

ولكن الاتجاه الجذري ـ اليساري هو ظاهرة مختلفة ، نوعيا ، بالمقارنة مع صيغ النقديات المعروفة في الاقتصاد السياسي البرجوازي .

---

(٦) عن المواقف النظرية لممثلي المدرسة الكامبردجية المعاصرة ، انظر ي. اوساد نشايا في « **الكنزية اليسارية وضد ..** **الهامشية المعاصرة** » في المجلة السوفياتية (« مسائل الاقتصاد » ، عدد ٢ ١٩٧٧) . عن الاتجاه المؤسساتي في الاقتصاد السياسي الامريكي المعاصر ، انظر : ك. كزلوفافي « **المؤسساتية ومسائل الرأسمالية الاحتكارية** » في كتاب « **نقد الاقتصاد السياسي البورجوازي المعاصر** » موسكو ١٩٧٧ .

(٧) انظر مثلا : E . Hunt and H . Sherman . « Value , Alienation and Distreliution » , « Science and Society » , spring 1972 ; H . Gints . « A Radical Analysis of Welfare Economies and Individual Development » ,

« Luasterly Journal of Economics » , November 1972 ;

« Consumer Behavior and the Conept of Sovereignty . Explanations of social Decay »

« The American Economic Review » , May 1972 ; J . Senoat , Jr. and G . Constantine ; »

« A Critique of the Fondations of Utility Theory » , « science and Eociets » , summer 1975

Digitized by Birzeit University Library

وكما يصرح ممثلون كثيرون للاتجاه الجذري ـ اليساري ، فان نظريـــة ماركس تمثل المصدر الفكري الاساسي لارائهم النقدية ، يعملون اهم مقولاتها ، ويستخدمون منطلقاتها المنهجية : التحليل الطبقي ـ الاجتماعي للمجتمع ، طريقة التجريد العلمي ، الذي يسمح ، بأن يرى المرء خلف المقولات عن اقتصاد السوق ، المضللة ، المطلسمة ، العلاقة الاقتصادية الاساسية ، وهي استثمار العمل بواسطة رأس المال ، وآلية خلق ، وتوزيع واستخدام القيمة الزائدة · بعـد ان درسوا البنية الاقتصادية للمجتمع ، وضع النظريون الجذريون ـ اليساريون في حجـر الزاوية ملكية وسائل الانتاج الاساسية ، التي تحدد القـــوى المحركة وطبيعة كل التطور الاجتماعي ، وتحدد حتمية تزايد حدة التناقضات ما بين القوى المنتجة ، وعلاقات الانتاج ·

الاقتصاديون الجذريون ـ اليساريون لا يقبلون البنية البرجوازية · هدف نقدهم ليس هذا ، او تلـك مـن المؤسسات الرأسمالية ، مأخوذة بمفردها ، او عيوبها ، وانما النظام بمجمله · برفض الرأسمالية يحاولون ان يفصلوا انفسهم عن ايديولوجيي الاصلاحية البرجوازية ، عن كل الذين يعتقدون بامكان صقـل الرأسمالية، وتحويلها الى نظام فعال ، صامد اجتماعيا · حل المسائل الاقتصادية ـ الاجتماعية في المجتمع الاميركي يربطه الاقتصاديون الجذريون ـ اليساريون بالتصفية الكاملة للملكيـة الرأسمالية القوية ، وبانتقـال الثروات الاقتصادية الاساسية الى الاشراف الاجتماعي ـ الديمقراطي ، وباعادة البناء من الجذور لنظام السلطة الاقتصادية ، والسياسية (٨) ·

ان الاتجاه الجذري ـ اليساري هو انعكاس وعي نقدي حاد للرأسمالية المعاصرة كبناء ، ادين تاريخيا · انه ، الى جانب ذلك ، رد فعـل لدى قسم من الاقتصاديين الشباب على مجريات الازمة في الفكر الاقتصادي ـ الاجتماعي ، البرجوازي ، وشكل من خيبة الامل العميقة في الاقتصاد السياسي البرجوازي ككل ، ومن جملته فرعه « الجذري » * ·

---

(٨) E . Hunt and H . Sherman : « Economics . An Introduction to Traditonal and Radical Views » New York , 1972 , P P 230 , 496

(*) المقصود المدرسة الكامبردجية في انكلترا ، والمؤسساتية في الولايات المتحدة· (المترجم)

Digitized by Birzeit University Library

الجذريون ـ اليساريون يعدون انفسهم « ماركسيين مبدعيـن » ، يرون مهمتهم في ان يستخدموا ، بالاستناد الى النظرية الماركسية ، وباستعمال المنهج الماركسي ، منجزات جميع العلوم ، وشمول التجربة التاريخية ، لدراسة المسائل الحيوية ، المتعلقة بمصائر المجتمع الغربي المعاصر . في نشوء هذه المواقف ، كان ثمة تأثير كبير لعدد من شارحي الماركسية الاوروبيين ، والامريكيين ، الذين بالرغم من انهم يدعون بـ « تجديدها » لتكون صالحة للعصر ، فانهم ، في بعض المسائل الرئيسية ، النظرية والايديولوجية ، يمثلون مواقع غير متفقة مع التعاليم الماركسية . كان التأثير على الفكر الاقتصادي ، الجذري قويا عند الاقتصاديين الامريكيين **ب. باران** (المتوفي عام ١٩٦٤) ، **وب. سويزي**(٩) ، من قبل الفلاسفة والسوسيولوجيين : **ب. ملس ، و ي. فروم ، و هـ. ماركوز** .

الاقتصاد السياسي الجذري ـ اليساري يجمع قسما هاما من الاقتصاديين المحترفين ، الذين تضمهم تصورات مشتركة عن مهامهم الاجتماعية ، وعن دور الاقتصاد السياسي في حياة المجتمع . كما يصرح « **الاتحاد من اجل الاقتصاد السياسي الجذري** » ، فان واحدا من اهدافه الاساسية ، هو خلق وعي ذاتي جديد في اوساط الاقتصاديين ، وتطوير علم الاقتصاد ، الذي يمكن ان يلبي حاجات الحركة الاجتماعية التحررية . « نريد ان نخضع ، على اوسع مقياس ، تحليلنا الاقتصادي لمصالح الحركة المتنامية ، من اجل التغيير الجذري » ، كان ذلك ما كتبه الاساتذة في **جامعة هارفارد** .

تعيين نظرية اقتصادية جديدة يراه ممثلو الاتجاه الجذري في ان « تساعد على استئصال المنابع القائمة للاضطهاد ... » (١٠)

الآمال بالتغييرات الثورية يربطها الاقتصاديون الجذريون ، بشكل رئيسي ، بحركة الاحتجاج الديمقراطية ، العامة ، المتنامية عفويا ، ضد النظام القائم ، وكل

---

(٩) ب : سويزي وبعض الايديولوجيين الاخرين ، المجتمعين حول مجلة Montrly Review التي يصدرها ب. سويزي ، يمثلون الاتجاه اليساري ـ الجذري « القديم » ، الموجـود في الولايات المتحدة منذ الثلاثينات .

(١٠) « The Capitalist System . A Radical Analysis of American Society » .Ed by R . Edwards , M Reich , T . Weisskopf . New York , 1972 , p . x

Digitized by Birzeit University Library

اشكال سحق الانسان · يعتبرون ان القاعدة الضرورية ، والضمان ، للتحرر الاجتماعي ، هو في رفع سوية الوعي الاجتماعي ، وخلق ايديولوجية جديدة ، معادية للرأسمالية ، ومعادية للوصاية Antiautoritaire · من هنا اعتمادهم على « التحرير الذاتي الإيديولوجي » للفرد ، وعلى نشر نظرة جديدة ، وجملة جديدة للقيم الحياتية ، المتفقة مع الحاجات التاريخية ، الموضوعية ، في الحضارة الانسانية الاصيلة ·

بالاضافة الى ذلك ، يعتبر اقتصاديون جذريون كثيرون واحدة من مهماتهم الهامة التوعية السياسية ، التي هدفها « ان تساعد على نشر الوعي السياسي بين قسم هام من الطلاب ، والانتلجنسيا ، والعمال ، وتعمل على توحيدهم في معركة منظمة ضد الطبقة اليمينية » (١١) ·

الجذريون يعطون اهمية كبيرة لفضح اساليب التضليل السياسي ، المستخدمة من قبل البرجوازية المسيطرة لمنع نمو الوعي الطبقي لدى العمال ·

● نقد الرأسمالية والاقتصاد السياسي البرجوازي

يحاول الاقتصاديون الجذريون ، بنشاطهم في التدريس وفي البحث العلمي ، ان يستخدموا ، ما يسمى بـ « تاكتيك المجابهة » · هدفه دحض المفاهيم الارثوذكسية ، الاجتماعية والاقتصادية ، وفضح الاساطير الايديولوجية ، المرتكزة عليها ، وكشف الاوضاع الحقيقية للامور · على مبدأ « المجابهة بنيت جميع دورات (كورسات) المحاضرات واغلبية الكتب ، التي تشرح فيها مواقف الاقتصاديين الجذريين ـ اليساريين » (١٢) ·

---

(١١) A Davis and R . Enyland : « Radical Economics and the New Economists, A Comment : » , « The Review of Radical Political Economics » Spring 1975 , p 80

(١٢) R . Edwards , A . Mae . Ewan : « A Radical Approach to Economics : Basis for a New Cussiculum» , « The American Economic Review » , May 1970 ; « Modern Political Economy . Radical and Orthodox Views on Crucial Issues » Ed . by J . Weaser , boston , 1973 ; « Economics : Mainatream Reading and Radical Critique » , Ed . by Mermelstein , NewYork , 1973 .

Digitized by Birzeit University Library

نظريو الاتجـــاه الجذري ـ اليساري يعتبرون ، ان الاقتصاد السياسي الجديد يجب ان يوجه ، بالدرجة الاولى ، الى الدراسة المتشابكة Complexe للمسائل الاجتماعية المفصلية ، والى الاستخدام في ذلك لكل ما هو « ثمين » في النظرية والمنهـج ، ممـا هو موجود في الافكـار الفلسفية ، والسوسيولوجية ، والاقتصادية ، لدى مختلف المدارس والاتجاهات ·

بالمعالجة ، عـلى نطـاق موسع ، لمـادة الاقتصـاد السياسي ، يحـاول الاقتصاديون الجذريون ـ اليساريون خلق نظرية « جامعة Intradiseiplinaire » تربط فيها ، في وحدة ، مختلف جوانب وصيغ اشكال التناقضات الاجتماعية ـ الاقتصادية . والاجتماعية ، والسياسية ، والبسيكولوجية ، التي تخص المجتمع بمجمله ، ووضع الانسان فيه · مثل هذه المعالجة وجدت صورتها ، على سبيل المثال ، في كتاب هـ· شرمان « **الاقتصاد السياسي الجذري** » ، الذي يعتبر اول محاولة للتفسير المتكامل للنظرية المذكورة (١٣) ·

ان مكانا مركزيا في مؤلفات الجذريين ، تشغله المسائل الاجتماعية والماكرو ـ اقتصاديـــة في المجتمع الامريكي : تمركز الانتـــاج ، ونمو الاحتكارات في الاقتصاد ، تشكل الاسعار ، وتوزيع الدخول ، الدورة الاقتصادية والتضخم ·

ونموذج اخر من المؤلفات ـ ابحاث تجريبية ، تشمل الجوانب المختلفـة للحياة الاجتماعية ، وتؤلف مادة للمناقشات السياسية الحادة على الصعيـد المحلي ، وفي الولايات المتحدة ، على مقياس قومي ، معيار النغم Diapason في المسائل واسع جدا : نظام الضرائب ، وسياسة الضرائب لدى الدولة ، ازمة المدن المالية ، تقسيم العمل الاجتماعي ، ونظام التعليم ، اسباب وطرق معالجة الفقر ، الجذور الاقتصادية ـ الاجتماعية للعرقية ، تفرقة المرأة في سوق العمل، البطالة وتناثر Segmentation سوق قوة العمل ، الخ ·

---

(١٣) H . Sherman : « Radical Political Economy . Capitalism , and Socia - lism from Marxist Humanist , Perspective » , New York 1972

Digitized by Birzeit University Library

نموذج ثالث من المؤلفات ـ نظرية مجردة ، مكرسة لمسائل ، مثل نظرية القيمة ، ورأس المال ، و « رأس المال الانساني » ، الخ (١٤) ٠

انتج الاقتصاديون الجذريون عددا من الابحاث ، ذات الطابع ، منه النظري ومنه التجريبي ، وهذه اثارت اهتمام حتى العالم الاقتصادي « المحترم »* ٠ ففي عام ١٩٧١ ، في مقدمة لكتاب الاقتصـــادي السويدي ، ا٠ **لبنديك** « **الاقتصاد السياسي عند اليساريين الجدد** » ، يلاحظ **ب٠ ساموبلسون** ، انـه تستحق قيمة عالية ، جدية ، مؤلفات بعض الاقتصاديين الجذرين ، الذين يمثلون اتجاهـــا جديدا في الابحاث على المستوى الاكاديمي الامريكي ، اتجاها تكمن فيـه قدرة عظيمة على التطور (١٥) ٠

ابحاث الجبريين الاقتصادية تحمل قيمة محددة ، علمية ، ومعرفية ٠ مع ذلك ، لا بد من الملاحظة ، ان العديد من تلك المؤلفات تتضمن الخصائص النوعية لمواقف مؤلفيها ، بأيديولوجيتها الجذرية ـ اليسارية ٠ ان اوفى تعبير وجدتـه هذه المواقف هو في الافكار النظرية لـ **ب٠ باران ، و ب٠ سويزي** ، عن تناقضات والية تطور الرأسمالية الامريكية المعاصرة ، مشروحة في كتابهما « **الرأسمـال الاحتكاري** »(١٦) ٠ في هذا المؤلف النظري* حاول المؤلفان ، ان يقدما في وجهة

---

(١٤) انظر على سبيل المثال :

S . Bowles and H . Gintis : « The Probem with Human Capital Theory A . Marxian Critique » , « The American Economic Review » May

H . Lewin and J . Marris 5 «Marxàs concept of fetischism», «science and Society » summer 1977

(*) المقصود : علم الاقتصاد الرسمي ، البورجوازي في الولايات المتحدة (المترجم)٠

(١٥) A . Lindbeck : « The Political Economy of The New Left » New York , 1971 . P XVI

(١٦) P . Baran . P . Sweezy : « Monopoly Capital . Essay on The American Economic and Social order » , New York 1966 .

(*) في الاصل : المؤلف التعميمي، او الاطلاقي Generalisant ، اي الذي يقـوم برصد الوقائع واستخلاص نتائج نظرية معممة منها ، فهو ليس مؤلفا نظريا بمعنى ، انـه يعالج المسائل في اطار نظري مجرد ٠ (المترجم) ٠

Digitized by Birzeit University Library

نظر متشابكة « الطابع اللاعقلاني » في استخدام الثروات الاقتصادية في الاقتصاد الامريكي ، المترافق بالاثار السلبية ، المفرضة ، المقصودة ، بالنسبة للمجتمع .

في نظرية **باران – سويزي** التي تعالج قانونية ، والية تطور القوة الانتاجية والاستهلاكية في المجتمع ، يوجد غير قليل من عمليات الرصد ، والطروح الهامة . الى جانب ذلك تعطي مجمل الصورة المفرضة والمبسطة لتناقضات الرأسمالية الاحتكارية – الدولية المعاصرة ، وهي ليست سوى واحدة من الصيغ لنظرية الركود في الاقتصاد الرأسمالي .

بتركيز الاهتمام على دور الوسائل « الاصطناعية » لخلق الطلب ، ودعم ربحية الانتاج الرأسمالي ، يخلص **باران وسويزي** الى ان الرأسمالي اضاع القدرة على التطور « على قاعدته الخاصة » ، وان تشغيل آليته يتدعم بشكل « لا عقلاني » .

في الاساس من جميع افكار **باران – سويزي** عن « لا عقلانية » الرأسمالية الاحتكارية تكمن نظرية «الفائض الاقتصادي»(١٧) . هذا يؤلف، بشيء من التعديل في هذه النقطة ،او تلك ، محور الافكار الاقتصادية العامة ، لدى اغلبية نظريي الاتجاه الجذري – اليساري ، وهو يستحق الوقوف عنده بأكثر تفصيلا (١٨) .

هذه المقولة الخاصة ، المختلفة عن القيمة الزائدة ، تظهر على شكلين ، الفائض « الفعلي » والفائض « الكامن » يقصد بـ « الفائض الفعلي » النتاج الاجتماعي السنوي، بعد حسم كل المصاريف المذفقة على الانتاج، زائدا التصريف

---

(١٧) P . Baran 5 « The Polotical Economy of Growth » , New York 1957

وفي الترجمة الروسية للكتاب نفسه : «**نحو نظرية اقتصادية في التطور الاجتماعي**» موسكو ١٩٦٠ .

(١٨) بعض الاقتصاديين الشباب يعيدون النظر نقديا بعض جزئيات مفهوم « الفائض الاقتصادي » كما يدعون الى العمل على استكماله . انظر :
R . Stanfield : « A Revision of The Economic Surplus Concept » , « Review of Radical Political Economics » Fall 1974 .

Digitized by Birzeit University Library

مع افتراض الحفاظ على مستوى الاستهلاك الشخصي دون تغيير ، كما بلغ في السنة الماضية · وتأخذ اهمية خاصة مقولة « الفائض الكامن » · يعنى بها الفرق ما بين المقدار الاعظمي للنتاج الاجتماعي ، الذي يمكن ، ان يخلق ، من خلال الثروات الاقتصادية الموجودة في حوزة المجتمع ، وبين النفقات الضرورية اجتماعيا · مفهوم « النفقات الضرورية اجتماعيا » بالذات ، يكتسب في نظرية **باران – سويزي** معالجة تقنينية* Normatif : تؤخذ في الاعتبار المصاريف المقدرة – اجتماعيا ، المتفقة مع نظام للانتاج ، وللاستهلاك ، مبني بشكل عقلاني (من زاوية المصالح الاجتماعية) ·

الطابع « اللاعقلاني » للاقتصاد الرأسمالي يراه **باران وسويزي** ، اولا في الهوة المتزايدة ، ما بين الفائضين : « الكامن » و « الفعلي » ، وثانيا ، في نوعية الشكل والوسائل ، التي يتم بها ابتلاع « الفائض الفعلي » الموجود · من جملة تلك الوسائل اعادة تراكم رأس المال الاساسي ، جهاز التصريف المنتفخ ، الاعلان غير المحدود ، الاستهلاك التبذيري ·

احد التعبيرات عن « اللاعقلانية » في الاقتصاد الرأسمالي المعاصر ، يؤكد **باران وسويزي** ، هو في الحاجات الاصطناعية ، الاستهلاكية ، التي تغرسها وترعاها الشركات الاحتكارية · تعبير آخر ، وهو شكل بدهي ، اكثر بكثير ، لـ « اللاعقلانية » ، وللاستخدام المبذر للثروات ، ويضمن الدعم لاعادة الانتاج الموسع للنتاج الاجتماعي ، ولعلاقات الانتاج الرأسمالية ، انه عسكرة الاقتصاد ·

الدور الاول في دعم عملية اعادة الانتاج يأتي من « العامل الخارجي » – التوسع خارج الحدود ، الاستثمار الامبريالي للبلدان النامية ، حصر وسحق حركة التحرر الوطني ، وباختصار كل ، ما « يقنن » ، ويقتضي سباق التسلح ، ونمو المركب الصناعي الحربي ، ومشتريات الدولة · من الممكن ، بمساعدة

(*) المقصود : تحديد النفقات من قبل المؤلفين ، كما يجب ان تكون ، وحسابها على هذا الاساس ، لا كما هي في الواقع الاجتماعي ، الذي تسيطر عليه « لا عقلانية » الاحتكارات · (المترجم) ·

Digitized by Birzeit University Library

« العوامل الخارجية » ، والاجراءات الاصطناعية ، كما يكتب **باران وسويزي** ، معالجة الحدود الضيقة لتراكم رأس المال ، خلال فترة زمنية ما ، ولكن يرتبط مع هذا تزايد شديد لحدة التناقضات الداخلية ، والخارجية ، لدى الرأسمالية العالمية ، مما يقودها ، حتما ، الى الافلاس ، في الافكار الاقتصادية لدى **باران وسويزي** يتصرف المرء في نظرة مطورة « معصرنة » و « مؤمركة » على الارث الايديولوجي الجذري ـ اليساري ، الذي ترتبط بدايتـه في الاقتصاد السياسي مع اسم **روزا لوكسمبورغ** ·

من المعلوم انه في كتاب « **تراكم رأس المال** » (١٩١٣) دافعت **لوكسمبورغ** عن فكرة ، ان عملية اعادة الانتاج الموسعة ، لها حـدود معينة ، ضيقة نسبيا ، يفرضها منطق علاقات الانتاج في المجتمع الرأسمالي ، في الدرجة العالية مـن تطوره ، تراكم رأس المال يمكن ان يتدعم ، كما كانت تقدر **لوكسمبورغ** ، على حساب « الطرف الثالث » : على حساب البلدان المستعمرة ، والتابعة ، وعلى حساب الاشكال غير الرأسمالية في الانتـاج ، التي يسبب تقلصهـا التدريجي اهتزاز السوق الرأسمالية ·

في هذه الفكرة وجدت تعبيرها الصيغة الجذرية ـ اليسارية لنظرية عـدم الكفاية الاستهلاك، التي اكتشف خطأها بكامل ابعاده **ف·ا·لينين**· بتطوير نظرية ماركس عن اعادة الانتاج في مرحلة الرأسمالية الاحتكارية ، اثبت **لينين** عـدم الصمود ، والضرر السياسي في مفاهيم الركود ، التي لم تستطع تقويم التقدم العلمي ـ التقني ، ونمو تقسيم العمل الرأسمالي ، الكامنين في اسـاس تطور السوق ·

التشديد المبالغ فيه ، الذي قام به **باران وسويزي** ، عـلى « اصطناعية » الوسائل ، التي تضمن اعادة الانتاج للنتاج الاجتماعي ، والحفاظ على علاقات الانتاج الرأسمالية ، يعني ، موضوعيا ، عدم تقويم القوى الداخلية ومصـادر حركة الاقتصاد الرأسمالي في شروط الثورة العلمية ـ التقنية المعاصرة ، وقدرة الرأسمالية على التكيف مع الوضع التاريخي الجديد ·

Digitized by Birzeit University Library

في نظرية المؤلفين الامريكيين لم تخضع للتحليل المفصل تناقضات في اعادة الانتاج الرأسمالية ، مثل ازمات عدم التناسب ، التضخم ، والبطالة · في هذا ينعكس عدم بلوغ اعماق التناقضات الاقتصادية ـ الاجتماعية ، الداخلة في المجتمع الامريكي · التناقضات بين العمل ورأس المال في المجال الاقتصادي يدرسها **باران وسويزي** ، بالاساس ، في اطار مسألتين : مسألة اللعب التجاري على المستهلكين في مجتمع الاستهلاك الجماهيري ، واستغلال شرائح الكادحين ، ضحايا التفرقة ، الذين « لم ينصهروا » في النظام الرأسمالي المعاصر ·

الخاصية المميزة لجميع الافكار هي المبالغة في درجة « التنظيمية » للاعمال الاحتكارية ، وكأن الاحتكارات تؤلف كلا موحدا ، والمبالغة في قدرتها على ادارة الانتاج ، والتراكم ، والاسعار ، فلا تؤخذ بالاعتبار الحدود الموضوعية لسلطة رأس المال الاحتكاري على المستهلكين والدولة ، ولا التناقض ، ما بين الاحتكارات ذاتها ، وما بينها وبين « الاجانب » ـ (منافستها الاجنبية) ، ولا الطبيعة الصراعية للتأثير المتبادل للاحتكار ، وللمضاربة ، ولتدخل الدولة العظمى في العملية الاقتصادية ·

يمكن ان تظهر ملامح ابرز ، يلاحظها المرء ، في هذا المنظور او ذاك ، في مؤلفات العديد من الاقتصاديين الجذريين ـ اليساريين الشباب · ولكن مسيرة التطور نفسها في الاقتصاد الرأسمالي ، في السنين الاخيرة ـ البطالة البنيوية الكبيرة massif ، التضخم المزمن ، ازمة الصيغ السابقة لتدخل الدولة التنظيمي ، ونظام العلاقات المتبادلة للبلدان الامبريالية مع « العالم الثالث » ساعدت على اعادة النظر ، بشكل ناقد ، في بعض الافكار ، التي تكونت في فترة ماضية ، فترة النمو المستقر نسبيا ، في الاقتصاد ، الازمة الاقتصادية العالمية ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ، المترافقة مع ازمات الطاقة ، والمواد الاولية ، والعملة الصعبة ، دفعت الى الدراسة المعمقة لالية اعادة الانتاج ، وجذبت اهتمام الاقتصاديين الجذريين الى الاشكال المختلفة لصور التناقضات الاساسية في الرأسمالية (١٩) ·

---

(١٩) انظر على سبيل المثال : R . Boddy and J . Crotty : « Class Conflict and Macro - Policy : The Political Buisiness Cycle » , The Review of Radical Political Economic Spring 1973 ; H . Wachtel and P . Adelsheim : « How Recession Feeds Inflation : Price Markups in Concentrated Economy» « Challenge » September - October 1977

Digitized by Birzeit University Library

ثمة مكان خاص في مؤلفات الجذريين مخصص لمسألة الضياع · النظريون الجذريون يستخدمون الشرح الماركسي لهذه الظاهرة ، بربط جوهرها مع الفترة الاستغلالية للعلاقات الانتاجية الأسمالية، والصيغة السوقية للروابط الاقتصادية· غير ان الجذريين يحاولون ان يوحدوا افكار **ماركس** مع مفاهيم الضياع الانثربولوجية ـ الاجتماعية ، التي تبحث على الصعيد الفلسفي العام وضع الانسان في شروط الحضارة الصناعية ، ومع المعالجات الوجودية للضياع ، كما هو منعكس في الوعي الفردي ، وسلوك الناس · في النتيجة تبدو مسألة الضياع في المركز من جميع التناقضات ، المميزة لوضع الانسان في المجتمع البرجوازي ·

يعتبر الجذريون ان الشرط الضروري لبلوغ حرية الانسان هو في معالجة كل اشكال الضياع ، الناجمة عن وجود نظام التسلسلية (**الهيرارشية**) في المجالات الاقتصادية والسياسية · الاساليب السلطوية Autoritaire في الادارة والبنيات التسلسلية ، تبدو لهم صفات ملاصقة للمجتمع الصناعي ، وشكلا للقيام بالسحق الاجتماعي · ليس صدفة ، ان كثيرين منهم يصنفون في عداد العلامات الدستورية للرأسمالية ، كنموذج من نماذج البنية الصناعية المعاصرة ، الى جانب الملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج واستغلال العمل المأجور ، الرقابة التسلسلية (**الهيرارشية**) على عملية الانتاج ، والنظام السلطوي لاتخاذ القرارات ، الخاص بالنظام الصناعي ، والبنيات البيرواقراطية للسلطة (٢٠) ·

لا تحتمل الشك اهمية وتعقيد مسائل الضياع ، باشكالها الاشد تنوعا · مفهوم ايضا بالكامل ، لماذا ، مع تعمق ازمة الرأسمالية العامة ، تجذب اليها الاهتمام من قبل مفكري الانتلجنسيا الواعين ، القادرين ، ان يمسوا بها باشد ما يكون مباشرة وحدة · بذلك ، من الضروري ، اكثر ، المعالجة القائمة على العلم ، لهذه المسألة : كشف الارتباط المشترك للجانب الطبقي الاجتماعي ، مع الجانب الانساني العام ، وللجوانب الرأسمالية مع «الصناعية» ، الفعل المتبادل للفلسفي ـ المجرد ، والتاريخي المجسد ، الشروط والاسس الموضوعية لمعالجة الضياع ·

---

(٢٠) E . Hunt and H . Sherman : « Economics : An Introduction to Tra - ditional and Radical Views » . New York 1972 , p . 564

Digitized by Birzeit University Library

يملك هنا اهمية خاصة التفسير العلمي والفهم (استخلاص المعنى) السياسي للتجربة التاريخية في الثورات الاجتماعية ، ولتطور المجتمع الاشتراكي الجديد .

افكار الاقتصاديين الجذريين – اليساريين في هذه المسائل تكاد تكون متناقضة ، هذا ، الى حد كبير ، ينتج سلفا من دعواهم في ، انهم معبرون عن قيم « مجردة » خارج الطبقة ، وخارج التاريخ ، متفقة مع « الطبيعة الحقيقية للانسان » . من هذه المواقف الاخلاقية الفلسفية ، الفكرية – المجردة ، يقوم النظريون الجذريون – اليساريون مضمون واهداف الثورة الاشتراكية ، ويعالجون جوهر الاشتراكية .

● التفتيش عن مثل اعلى

في النظرة الجذرية – اليسارية يتغلب الجانب السلبي ، النقدي ، الطروحات « الايجابية » لنظريي هذا الاتجاه عن المثل الاعلى للتنظيم الاجتماعي ،ليست سهلة على المتابعة حتى غايتها ، فهي متقطعة ، لا شكل محدد لها ، غير متطابقة ، فيما بينها ، لدى مختلف الاقتصاديين .

البنية المستقبلية ، التي يجب ، ان تأتي بديلة عن الرأسمالية ، يسميها الجذريون « اشتراكية المشاركة »،« ربما لدى كل جذري امريكي ، يقول ي.هانت و هـ. شيرمان فكرته الخاصة عن ، كيف يجب ، ان تكون الاشتراكية حقيقية . يجب ان يخلق الشروط لحياة لائقة،وان يكون انسانيا،وان يبنى على ديمقراطية يجب ان يخلق الشروط لحياةلائقة، وان يكون انسانيا ، وان يبنى على ديمقراطية سياسية اصيلة . اما فيما يتعلق بالباقي ، فليس ثمة وجهة نظر مشتركة ، حتى ولا بالنسبة لمسالة معينة واحدة (٢١) » .

تتميز التصورات الجذرية – اليسارية عن البناء الاقتصادي لمجتمع المستقبل بقدر خاص من عدم التحديد ، ومن التأرجح . معيار النغم Diapason

---

(٢١) T. Weisskopf :«Theories of American Imperialism : Acritical Evaluation» « The RevieW of Radical Political Economics » , Fall 1974

Digitized by Birzeit University Library

في الفروق واسع تماما : من جميع الصور الممكنة عن « اشتراكية السوق » ، حتى الرفض الكامل لالية السوق · النفور الحاد من صيغ السوق : سلعة ـ مال ، في العلاقات الاقتصادية ، يجتمع لدى الكثيرين من الجذريين ، بشكل متنـــاقض ، مع موقف رفض ، ليس اقل وضوحا وحدة ، تجاه نظام دولة مركزي للتخطيط ·

الاقتصاديون الجذريون يقرون ، من جهة ، ان العلاقات السلعية ، ليست في ذاتها سيئة او حسنة : هذه صيغة ، يمكن ان تحمل ، في طياتها ، مضمونا متنوعا ، متعلقا بموضوع ، اي نظام اجتماعي تخدمه الية السوق · من جهة اخرى ، علاقات : سلعة ـ مال ، حتى في شروط الملكية الاجتماعية ، ترتبط لدى الجذريين بطلسمية السلعة ، « بالعقلانية المادية » ، بالوعي الضياعي ، «الكاذب» ·

اللاتاريخية بصيغة « يسارية » خاصة ، تظهر جلية ، عـلى سبيل المثال ، في ، كيف يفهم بعض الاقتصاديين الجذريين استخدام مبدأ المصلحة المادية في اقتصاد البلدان الاشتراكية ·التشجيع الاقتصادي لتطوير الانتاج الاجتماعي ، والمصلحة المادية الشخصية للعاملين ، يقومان لدى الجذريين كتوجيه نحو اهداف مادية ضيقة ، ونحو عقلانية اقتصادية ، كطريق لتخطيط الناس ، المشجعين على رفع دخلهم الفردي الى « الحد الاعلى » ·

اذ يهاجم الجذريون ـ اليساريون ، عـن حـق ، ايديلوجية الاستهلاك ، المستعبدة للانسان ، والمفرغة له من انسانيته ، ويهاجمون نمو الاستهلاك المادي كهدف بذاته ، يقفون مع ذلك ، مواقف ايديولوجية نظرية خاطئة ، عندما يناقضون دون مبرر ، ما بين نمو الانتاج المادي ، واهداف التطوير الشامل للانسان ، ما بين الحاجات المادية ، و « اللامادية » ، عندما يحاولون ان يبدلوا مبدأي المصلحة المادية ورفع الرفاه الاجتماعي الى الحد الاعلى ، بمبدأ « الاستهلاك الانسب » · بعض الاقتصاديين الجذريين اليساريين يقعون في تقشفيتهم المتزمتة ، الانتلجنسية، الخاصة بهم ، التي تقترب من ايديولوجية المساواة ·

جاذبية خاصة بالنسبة للجذريين ـ اليساريين تملكها فكرة اللامركزية ، المأخوذة كنقيض للمركزية ، وكضمان « ضد السلطوية » في الاقتصاد والسياسة · البناء المستقبلي يطرحونه على شكل اتحاد كومونات، مدارة ذاتيا، او روابط حرة،

Digitized by Birzeit University Library

تملك مدى واسعا للتجارب الاجتماعية · معاداة المركزية تجتمع لدى بعض منهم مع امزجة « معادية للصناعة » ، مع ادلجة للمؤسسات الانتاجية الصغيرة ، نصف الحرفية · يعتبرالجذريون ، ان طبيعة التكنيك ، وتنظيم الانتاج الكبير ، بالذات ، ونظام توزيع العمل ، الذي تفرضه العوامل الاقتصادية ـ التقنية ، تحمل في طياتها تفريغ العمل من انسانيته ، والضياع ·

فكرة الروابط ، التي ترجع بجذورها الى المشاريع الاوتوبية ـ الاجتماعية لدى **فوريه وأوين ، وبرودون ، وكروبوتكين** ، اخذت في الظروف المعاصرة قولبة جديدة ، وتطويرا في مختلف الافكار ، عما يسمى بالاشتراكية « الكومونية » و « الانسانية » الخاصية المميزة لجميع تلك الافكار هي في انها تتعلق ، في الاساس ، بالجوانب الفلسفية لتطور الحضارة الاشتراكية (٢٢) · الجوانب الاقتصادية ـ السياسية للاشتراكية «الكومونية»، كاتحاد روابط حرة ، تبقى في الظل · ليس ثمة وضوح لدى الجذريين بخصوص طبيعة هذه الروابط ، ونظام علاقاتها المشتركة ، فيما بينها ، وذلك حسب اعترافهم ، هم ، لم توضع اية جهة نظر واضحة ، فيما يتعلق بالكيفية ، التي سوف تضمن بها المصالح الوطنية العامة في ذلك المجتمع ·

البناء السياسي لـ « الاشتراكية الحقيقية » يتصوره ممثلو الاقتصاد السياسي الجذري كـ « ديمقراطية مباشرة » ، او ديمقراطية المشاركة الفردية ، وذلك مقابل الديمقراطية ، القائمة على مبدأ التمثيل · « الاشتراكية المشاركة » تبدو لهم كنموذج مثالي لتنظيم المجتمع ، كمملكة للحرية ، حيث تنال المساواة الحقيقية ، وتعالج كل اشكال الاستغلال ، والتمييز ، والعوز ، وحيث تتوفر افضل الشروط لتطور الشخصية ، دون اية اعاقة · في الحديث عن هذا البناء ، يطرح الجذريون ، اما مقولات مجردة ، معزولة عن التاريخ ، واما يستخدمون مقاييس يمينية بخصوص المجتمع ، الذي بلغ درجة الشيوعية الناضجة · هذه التصورات عن « الاشتراكية الحقيقية » مرتبطة بالافكار الكامنة ، الخلفية ، لدى الكثيرين من الاقتصاديين الجذريين ـ اليساريين في عدم امكان انتصار الثورة الاشتراكية الا على مقياس عالمي ·

(٢٢) Socialist Humanism , An Internation Symposium » Ed . by . E . Fromm New York 1965

Digitized by Birzeit University Library

اراؤهم المجردة في موضوع المثل الاعلى للتنظيم الاجتماعي ، وموضوع حرية الشخصية فاقدة للاطر التاريخية ، والى حد ما ، للمضمون الواضح ·

بعض الاقتصاديين الجذريين يريدون ان يتحولوا الى مفهوم تقنيني Normatif الاوتوبيا تستخدم كمنبع للمقاييس التقنينية لتقويم الاشتراكية القائمة · ان عدم الصمود النظري ، والنقص السياسي ، الرئيسي ، في مثل هذه المعالجة ، يظهران بكل جلائهما · « القفز عن التاريخ » في معالجة الديمقراطية والاشتراكية ـ ومضمونها السياسي والاقتصادي ـ الاجتماعي ، وشروطها ، واسسها ـ يفسح المجال موضوعيا للجمل المنمقة ، الدعية ، لدى الجذريين اليساريين ، الى الفصل الكامل للنظرية عن الممارسة الاجتماعية ·

عدم القدرة على استيعاب العملية التاريخية المعقدة للصيرورة ، ولتطور البناء الاجتماعي ، الجديد نوعيا ، وعلى تقويم الاصعدة الاصيلة للمسائل ، ولمنجزات الاشتراكية الفعلية ، يعبر عنه لدى بعض الجذريين في المعالجة الزائفة لموضوع جوهر النظام الاجتماعي في الاتحاد السوفيتي ، ودور الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى في العملية الثورية العالمية · اصحاب هذه الاراء ، من بين الاقتصاديين الجذريين ـ اليساريين ، يجدون انفسهم في مواقف ، تكاد تكون متناقضة ، مزدوجة المضمون · من جهة يقومون ، على الدوام ، بفضح معاداة الشيوعية ، كايديولوجية رجعية لدى البرجوازية المسيطرة ، وكاداة للسياسة الامبريالية ، موضحين ، انه في مجال السياسة الخارجية يستخدم « بعبع » التهديد الشيوعي بقصد التدخل ، بمختلف الاشكال ، في شؤون البلدان الاخرى (من القيام بمهام الدركي حتى الاعمال الحربية المباشرة) · في داخل البلاد تخدم المعاداة للشيوعية ، كما يؤكد الاقتصاديون الجذريون ، مصالح التجمع الصناعي العسكري ، وسباق التسلح ، وتبرير الملاحقات السياسية ، واعمال الارهاب · ولكن من جهة اخرى ، تصب اصوات بعض الجذريين ـ اليساريين في الكورس العام ، المؤلف من ايديولوجيي المعاداة للشيوعية ·

★ ★ ★

Digitized by Birzeit University Library

في طبيعة التفكير ، وفي الاراء النظرية ، لـدى الاقتصاديين الجذرين ـ اليساريين ليس من الصعب اكتشاف ملامح الرومانسية الاوتوبية ، المعروفة من خلال تاريخ الفكر الاقتصادي والفلسفي والاجتماعي ، ومن خلال تاريخ معركة الماركسية الفكرية مع ايديولوجية الاشتراكية البورجوازية ـ الصغيرة ، والشيوعية الفوضوية ، والسنديكالية ٠

لنذكر ، كيف ان كارل ماركس ، اذ لفت الانتباه الى صيغة التناقض ، المميزة للاراء والافكار النظرية البرجوازية ـ الصغيرة ، حلل الجذور الاجتماعيـــة ، والشروط الموضوعية ، المغذية لذاك النوع من التفكير ٠ « البرجوازي الصغير في المجتمع المتطور ، يقول ماركس ، بطبيعة وضعه بالذات ، يصنع من نفسه اشتراكيا ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، اقتصاديا ، اي : هو مبهور من عظمة البرجوازية القوية ، ويشعر بآلام الشعب ٠ هو ، في نفس الوقت ، برجوازي وشعبي ٠ في اعماق روحه يفخر بانه غير منحاز ، بانه عثر على مركز الثقل الحقيقي ، الذي يصح له الادعاء ، بأنه متميز عن المركز الذهبي » ٠ في هذا المجال ، عندما اعطى ماركس تقويما للمواقف النظرية لدى برودون ، الايديولوجي البرجوازي ـ الصغير للاشتراكية ، اكد ماركس ، ان برودون « له الفضل في ان يكون المعبر العلمي عن البرجوازية ـ الصغيرة الفرنسية : هذا فضل بالفعل ، لان البرجوازية الصغيرة هي جزء بنيوي من كل الثورات الاجتماعية المستقبلية » (٢٣) ٠

طبعا ، لن يكون من الانصاف ، ان نحمل ، بالكامل ، على الاقتصاد السياسي ـ الجذري كل تصنيف ماركس ، وان نحاول وضعه على اساس هذا ، او ذاك من الاشباه التاريخية ، ناظرين اليه ، على انه مجرد راسب في الظروف المعاصرة من رواسب الافكار القديمة ٠ بالرغم من ان الفكر الاقتصادي الجذري ـ اليساري تنمو فيه افكار كثيرة معروفة عن المجتمع الرأسمالي وعن المستقبل الاشتراكي للانسانية ، فانه يمثل ظاهرة جديدة ، ذات نموذج خاص ، والى حد كبير تناقضية

---

(٢٣) كارل ماركس وفردريك انجلز ٠ المؤلفات ٠ الترجمة الروسية ، الجزء ٢٧ ، ٤١١ ـ ٤١٢ ٠

Digitized by Birzeit University Library

في تلك الظاهرة وجدت تعبيرا لها خاصية البنية الاجتماعية في البنـاء الراسمالي الحالي ـ الاستقطاب الطبقي ـ الاجتماعي ، الذي ازداد فداحـة ، والانقسام المعقد الى شرائح ، التزايد المستمر للوزن النوعي للانتلجنسيا ، التي تمثل وضعا متناقضا في النظام الاجتماعي · الاتجاه الجذري ـاليساري هو انعكاس لتطور وازدياد حدة التناقضات الراسمالية في المرحلة الحالية مـــن تاريخها ، هو مظهر في النظرية والايديولوجيا للتناقضات في التطور الاجتماعي العـــالمي ·

آراء ونشاط الاقتصاديين ، الممثلين للاتجاه الجذري ـ اليساري ، ليس من الممكن تقويمها من جانب واحد· بانتقادهم للبناء الرأسمالي، وللاقتصاد السياسي البرجوازي ، الارثوذكسي ، يساعدون عـلى تطور الوعي الاجتماعي المعادي للراسمالية ، ومن خلال هذا بالذات ، يساعدون ، موضوعيا ، على تشكيل تحالف واسع في المستقبل ، قادر على التصدي للتحويل الجذري في المجتمع ·

مجرد الواقع في ظهور معارضة جذرية ـ يسارية نشيطة في الاقتصـاد السياسي ، والاهتمام الكبير بها من جانب الطلاب والانتلجنسيا ، لا يمكن الا ، ان يؤثر على الجو الاكاديمي بمجمله ـ اتسعت موضوعات الابحاث الاجتماعية ، تغيرت طبيعة التدريس ، وطبيعة مضمون بعض كورسات المحاضرات · بيـــن الشبيبة الطلابية ازداد ، بحدة ، الاهتمام بالافكار النقدية الاجتماعية · في الوقت نفسه الايديولوجية والاقتصاد السياسي ، الجذريان اليساريان ، موجهان في بعض جوانبهما ضد الماركسية والاشتراكية الفعلية ·

يتميز الاتجاه الجذري ـ اليساري ، باعتباره عديم الشكل ، وذا طابـع انتقائي ، بعدم تجانس داخلي بارز · يظهر هذا في تفاوت المواقف النظرية ـ الفكرية والايديولوجية لدى مختلف الاقتصاديين ، الذين ينسبون انفسهم الى الاقتصاد السياسي الجذري · مستقبل الاتجاه الجذري ، بمجمله ، واختلافاته الداخلية في المراحل التالية ، سوف تتحدد ، بشكل حاسم ، مـن خلال المسيرة الفعلية للتطور الاجتماعي ، والكفاح السياسي في البلدان الراسمالية ، والعملية الثورية في الدول النامية ، والتقدم الاجتماعي ، الشـامل ، الطويل ، في بلدان الاشتراكية .

Digitized by Birzeit University Library

قضايا الحريات الديمقراطية في الوطن العربي
٢ ـ البحرين

أساليب فاشية ومصادرة الحريات

اعداد: عبد الله خالد

منذ سنوات والبحرين تتصدر القوائم التي تصدرها المنظمات الدولية المهتمة بشؤون حقوق الانسان ، مثل « منظمة العفو الدولية » ، حول الدول التي ينعدم فيها احترام الانسان وحقوقه ويحرم من حق ممارسة الحريات المدنية والسياسية . فلم يخل أي من تقاريرها السنوية من تعداد لتعديات السلطة في البحرين على حريات وحقوق المواطنين فيها .

واذا كانت الأنباء تحمل بين فترة واخرى صورا عن حالة الارهاب السائدة هناك ، عبر حملات الاعتقال الواسعة أو قمع المظاهرات وتفريق الاجتماعات بالعنف ، فان الممارسات اليومية لأجهزة الامن والمخابرات ، والتي لا تحظى ، دائما ، باهتمام وكالات الانباء والصحف ، تؤكد باستمرار طبيعة النظام وعمق معاداته للتطلعات المشروعة من الحياة الحرة والكريمة .

وقبل ان تأخذنا التفاصيل نرى أن نشير الى انه يمكن بالنسبة للوضع البحراني ، أيضا ، فيما يتعلق بالحريات تطبيق التمييز ما بين ثلاثة مجالات :

١ ـ احترام الحريات المدنية والسياسية ، وفي مقدمتها حرية الفكر ، والتعبير والصحافة والمعتقد وحرية الاجتماع والمساهمة في النشاط السياسي والثقافي والاجتماعي ، وكذلك حرية التنقل ، بما في ذلك حرية السفر الى الخارج والهجرة .

Digitized by Birzeit University Library

٢ ـ توفير الضمانات القانونية والسياسية ، لممارسة المواطن للحريات المدنية والسياسية ، وضمان احتياجاته الاولية كشرط لازم لممارسة هذه الحريات وذلك عبر توفير القوت والعمل والعناية الصحية والتعليم والامان .

٣ ـ احترام كرامة الشخص ، وحرمة منزله ، وعدم تعرضه للاعتقال الكيفي ، ولاي نوع من انواع المعاملة الحاطة بالكرامة الانسانية ، والتعذيب ، والحرمان من المحاكمة العادلة والعلنية .

★★★

الحريات العامة في البحرين : الوضع القانوني والممارسة :

لقد تغيرت الأوضاع القانونية في البحرين ، منذ ١٩٥٦ وفي أعقاب قيام السلطات البريطانية في البحرين بتصفية « هيئة الاتحاد الوطني » ، التي قادت نضال الشعب البحراني بفاعلية ، طوال اكثر من سنتين ، في سبيل احداث اصلاحات أساسية ، عبر قيام مجلس تشريعي بانتخابات حرة ونزيهة ، ووضع قوانين جنائية ومدنية ، متواكبة مع العصر ، وبموافقة المجلس التشريعي ، واصلاح المحاكم وتنظيمها ، واعتماد المؤهلات الحقوقية عند تعيين القضاة ، وكذلك السماح بتشكيل التنظيمات والنقابات العمالية ، وانشاء محكمة دستورية .

وبالرغم من جماهيرية « الهيئة » الواسعة ، ومقدرتها ، المتفاوته الدرجة، في تجنيد فئات اجتماعية واسعة حول مطالبها ، فان السلطات البريطانية ، التي لم تكن على استعداد لقبول احداث اية تغييرات اساسية في الاوضاع القائمة آنذاك ، عاجلت بتصفية « الهيئة » ، مستفيدة من الاجواء التي سادت ابان العدوان الثلاثي على مصر (خريف ١٩٥٦) .

وتوجهت السلطات البميطانية، بجانب اعتقال قادة **«هيئة الاتحاد الوطني»** ومحاكمتهم الصورية ونفيهم الى جزيرة « سانت هيلانة » ، الى ضرب كافة اشكال النشاط السياسي والنقابي المتصاعد . فأعلنت **حظر كافة التنظيمات والجمعيات ، بما في ذلك اتحاد العمال ، وأغلقت جميع الصحف المحلية** والتي كانت جميعها تنطق باسم الشارع الوطني . الا ان البريطانيين وجدوا انفسهم أمام حاجة ملحة لتقنين الأوضاع في البحرين وان بحدودها الدنيا .

Digitized by Birzeit University Library

ولقد كانت بدايات نشاطهم في هذا الصدد قيام بعض خبرائهم بالاشراف على وضع مجموعة من القوانين ، أهمها **قانون العمل ، وقانون العقوبات** .

ويهمنا هنا المادة ٦٣ من قانون العقوبات التي نصت على ان « **يسجن مدى الحياة كل من خلع صاحبة الجلالة عن عرشها أو أجبرها على التنازل عن امتيازها الملكي أو سلطتها في أي جزء من ممتلكات صاحبة الجلالة أو الاقاليم التي تحت حمايتها ، أو وصمايتها ، وذلك بوسائل العنف او التهديد او اية وسيلة اخرى غير مشروعة** » .

تأخذ هذه المادة اهميتها من حيث ان روحيتها ، بشموليتها ، قد شكلت الاساس القانوني للعلاقة ما بين السلطة والمواطن البحراني منذ ذلك الحين . واعتبر اي نشاط سياسي ، منذئذ ، وبشكل مزاجي ، نشاط يهدف الى تهديد سلطة صاحبة الجلالة في البحرين احد « الاقاليم التي تحت حمايتها » .

ولقد استندت القوانين البريطانية ، من اجل الوصول الى فاعليتها القمعية ، على :

١ – جهاز شرطة متزايد العدد ، وذي ادوات واساليب تواكب التطور في حقل القمع .

٢ – جهاز قضائي (جمعية من افراد العائلة الحاكمة) غير ملم بأصول القضاء ، وغير آبه بها وبتطبيقها .

وكما كان التخلف الاجتماعي ينعكس في نصوص القوانين وصور تطبيقها، وكما يؤثر على اوضاع الحركة الوطنية ويبطىء من وتيرة نموها ، فانه كان ينعكس على مواقف السلطة تجاه معارضيها . فهي لم تكن تلجأ الى ساحة المحاكم الا في الحالات القليلة والنادرة ، وكانت تعمد الى سحب جنسية ونفي اي معتقل لم يثبت عليه ما يدينه . اما اولئك الذين « ثبتت » عليهم تهمة ما ، او وجد لديهم مستمسك ، مهما كان واهي الدلالة ، فانهم كانوا يقدمون لمحاكمة صورية ، فالسجن ، فسحب الجنسية فالابعاد عن البلاد . وخلال العشرين السنة الماضية ابعدت المخابرات عشرات المواطنين عن البلاد ، وسحبت منهم جنسياتهم ، كاجراء انتقامي وبدون سند قانوني . وما زال سحب الجنسية وعدم تجديد جوازات السفر اجراء متبعا .

Digitized by Birzeit University Library

● لقد ساهم تنامي الحركة الوطنية وتفاقم الازمة العامة التي تعيشها شرائح عريضة من الشعب البحراني ، والتي تلقت شرارة انفجارها بقيام **شركة نفط البحرين** الاميركية ، في بداية مارس ١٩٦٥ ، بفصل بضع مئات من عمالها بشكل تعسفي ، مما ادى الى اندلاع المظاهرات والاضرابات التضامنية في كافة مناطق البحرين · ولقد استمرت « انتفاضة مارس ١٩٦٥ » لاسابيع عدة ، قبل ان تتمكن السلطات ، مستعينة بالجنود البريطانيين والشرطة العمانية ، من اخمادها ومنع تفاقمها · ولقد ادت المواجهة العنيفة الى سقوط ستة شهداء ، واعتقال بضعة مئات من المواطنين ، وتقديم عدد منهم الى المحاكمة الصورية ·

وفي خضم تلك الاحداث ، اصدرت السلطة مرسوم **بقانون رقم « ١ » السنة ١٩٦٥** ، والذي منحت نفسها ، بموجبه ، حق تفتيش واعتقال واحتجاز اي مواطن ، ولمدة غير محدودة ، اذا ما ارتأت في ذلك الشخص تهديدا للنظام العام ·

وسيبقى هذا المرسوم مخيما على البلاد كمبرر قانوني لاعتقال المئات من المواطنين عبر فترة امتدت حتى اكتوبر ١٩٧٤ ، حين اصدرت الحكومة مرسوما اكثر شراسة « لحفظ الامن والنظام » وهو مرسوم أمن الدولة ، الذي سنأتي علي ذكره لاحقا ·

لقد اكدت احداث ١٩٦٥ اهمية الدور الذي تلعبه المنظمات الوطنية السرية ، وكذلك مدى تأثير مساهمة الفئات الاجتماعية الدنيا ، من عمال وطلبة وموظفين وتجار صغار ، في العمل الوطني · كما وتبينت السلطة ضرورة تحديث توجهاتها واساليبها تجاه النشاط السياسي المتنامي ، ولقد تأكدت هذه الضرورة بعد ان قامت عناصر من **جبهة التحرير الوطني البحرانية** ، في ١٩ مارس ١٩٦٦ وبمناسبة مرور عام على الانتفاضة الوطنية ، بنسف سيارتي ضابطي المخابرات ، « **لنكدنل بوب** » البريطاني الجنسية و « **احمد محسن** » الاردني الجنسية · ولقد اصيب الضابطان اصابات بالغة ، كما ادت هذه العملية الجريئة الى شل جهاز المخابرات ، الذي كان يعتمد ، اعتمادا شبه كلي، على « بوب » ، في وقت كانت البلاد تطل فيه على ابواب مرحلة جديدة ، بدأت بداياتها العلنية باعلان بريطانيا عن نيتها الانسحاب من الخليج ، وبدء الحديث عن ملء الفراغ الامني فيه ، وبدء تحويل البحرين الى مركز رئيسي من مراكز هيمنة الشركات والمصارف الاجنبية على مقدرات بلدان الخليج وثرواتها ·

Digitized by Birzeit University Library

● لهذا ، وبسبب نمو قوى الحركة الوطنية والعماليـــة والتي خاضت ، رغم يفاعتها وتاثرها بضربات المخابرات ، معارك عديدة وغنية ، فلقد جـــاء الفريق الثلاثي ، المكون من **هندرسون وهيغينز وشور** ، ليقود جهاز المخابـرات بأساليب حديثة ومتطورة ·

● الا ان الاطر القانونية للممارسات القمعية للسلطة البحرانية ظلت متخلفة وعاجزة عن مواكبة التطورات العامة في البلاد ، سواء على صعيد نمو وتحديث **البنى التحتية** للمجتمع ، او على صعيد نمو الحركة الوطنية عدديا ونوعيا · بل ويمكننا القول ان تخلف هذه الاطر القانونيه قد ساهم ، وفي مناسبات عديدة ، بتزويد الحركة الوطنية بذخيرة اضافية ·

لقد ظل **قانون العمل لعام** ١٩٥٧ ساريا ، حتى استبداله في ١٩٧٦ بقانون آخر ، يعتبر ، من جوانب عديدة ، اكثر سوءا وتخلفا من سابقه الذي صدر في ظل الحماية البريطانية ·

فعلى سبيل المثال ، نظم **قانون العمل** لعام ١٩٥٧ النزاعات العمالية واقر للعمال حق الاضراب ، وان بشروط مرهقـة ، وأقر للعمـــال حق التنظيم في نقابات واتحادات مهنية ·

الا ان قانون العمـــل الجديد جـــاء **ليلغي حق الاضراب ، وحق تشكيل النقابات والاتحادات المهنية ، نهائيا** ·

لقد ساهم تخلف الاطر القانونية عن متابعة التطورات الجارية في استمرار السلطات البحرانية في استخدام اكثر الاجراءات « لاقانونية » ، حتى في تلك الفترات التي املت عليها مصالحها الانصيـــاع للضغط الشعبي ، والظهـــور بمسوح السلطة التي تسعى لتطبيق القوانين بحذافيرها ·

● تتعدد الامثلة على هذه الحالة مـــن عجز الاطار القانوني عـــن احتواء حجم ودرجة الارهاب · فعلى سبيل المثال نذكر قضية عمال شركة « البـــا » ، الذين قدمتهم المخابرات الى المحاكمة بتهمة القيام باضراب « غير قـــانوني » في ١٩٧٤ · وحيث ان الاضراب كان بالفعل قانونيا ، وحسب القوانين السائدة آنذاك ، ولان فريقا من المحامين الوطنيين قد هب للدفاع عـــن عمال « البا » ، فلقد وجدت المحكمة المتوسطة نفسها مضطرة للامر بقبول اطلاق سراحهم بكفالة·

Digitized by Birzeit University Library

الا ان المخابرات ما كانت لترضى بمثل هذه النتيجه ، فرفضت تطبيق الحكم واستمر احتجاز العمال ، رغم ان المحامين الذين اصروا على متابعة الامر قضائيا ، قد استحصلوا على قرار من المحكمة العليا يؤيد اطلاق سراح العمال مقابل كفالة . الا ان العمال ظلوا محتجزين للفترة التي ارتأتها المخابرات كافية كعقاب على مشاركتهم في الاضراب العمالي .

يمكن ، بالطبع ، الاستطراد ، فيما لو كان المجال كافيا ، في سرد امثلة اخرى مشابهة كثرت بشكل خاص في الفترة اللاحقة « للاستقلال » في ١٩٧١ ، وما لحقه من توجهات برلمانية في السنوات ٧٣ ـ ١٩٧٥ .

لقد واجهت السلطات مشكلة تخلف قوانينها ، وضرورة تحديثها لتكون قادرة على استيعاب تطورات الامور وتنامي قدرات القوى الوطنية ، وتعدد اشكال واساليب مواجهتها للارهاب .

● وفي هذا المسار يمكن النظر الى **قانون العمل لسنة ١٩٧٦ وقانون العقوبات لسنة ١٩٧٦** ، بصفتهما محاولتان جادتان من قبل السلطات لتجاوز هذا التخلف . فقانون عقوبات ١٩٧٦ يحوي فصلا طويلا ومفصلا للقضايا المتعلقة بالنشاط السياسي ، او ما يسمى بأمن الدولة ، وهي المواد من ١١٢ الى ١٨٤ . ولقد نصت المادة ١٨٥ منه على ان كل ما يتعلق بأمن الدولة هو من اختصاص محكمة خاصة تشكل بمرسوم اميري .

وحين صدر **المرسوم رقم ٧ لسنة ١٩٧٦** ، والخاص بتأسيس المحكمة ، نصت المادة السابعة منه على ان « **تكون الاحكام الصادرة من المحكمة نهائية وغير قابلة للطعن فيها بأي طريق من طرق العنف** » .

(انظر نص القانون في مجلة **النضال** العدد ٥)

● وعلى الرغم من ان قانون العقوبات الجديد يحوي افضل نتاج الادمغة الحقوقية المستوردة من مصر والتي خبرها المناضلون المصريون منذ عهد الملكية، والتي ادخلت عقوبة التجريد من الحقوق المدنية والسياسية ، وهو امر لم تفعله حتى السلطات البريطانية ، وبالرغم من محاولة مواد القانون الاحاطة بكل تفصيل ، مهما بلغت دقته ، فيما يتعلق بنشاط المعارضة ، الا انه ليس كافيا . فما زالت السلطات البحرانية تطبق « **مرسوم امن الدولة لسنة ١٩٧٤** » السيء

Digitized by Birzeit University Library

الصيت والذي يعطي المخابرات الحق في اعتقال اي مواطن لمدة ثلاث سنوات دونما حاجة لتحديد تهمة له او تقديمه الى المحاكمة ، ولو صورية . (انظر الملحق « ١ ») .

لا يمكننا ، في حقيقة الامر ، وصف مرسوم امن الدولة الا بكونه قانون طوارىء ، متعدد الاغراض قابل للاستخدام عبر اشد التفسيرات تعسفا . ففي الوقت الذي يجيز فيه لوزير الداخلية (اقر رئيس دائرة المخابرات الكولونيل **ايان هندرسون**) ان يعتقل اي مواطن او مواطنة لاي سبب كان ، وكما هو الحال بالنسبة للعديد بدون سبب ، فهو غير مطالب بتقديم موجبات للاعتقال . وتنقسم الثلاث السنوات التي يحق للمخابرات احتجاز المواطنين الى :

١ ـ **فترة الثلاثة اشهر الاولى** ، حيث يبقى المواطن بدون معرفة التهمة الموجهة اليه ، ولا المبرر القانوني لاعتقاله .

٢ ـ **فترات متعاقبة كل منها ستة اشهر** ، ينص المرسوم على **وجوب** احالة اوراق المعتقل الى المحكمة المختصة ، حال انقضاء الثلاثة اشهر الاولى ، لكي تنظر في مسالة تمديد احتجازه ، على ضوء محتويات **ملف سري** تقدمه وزارة الداخلية ، لا يحق للمعتقل ولا محاميه الاطلاع عليه او معرفة مصدر المعلومات التي يحويها .

لقد كتب احد المعتقلين بموجب هذا المرسوم :

« ان هذا القانون يفرض على القاضي ان يحكم بموجب ما تقدم المخابرات من اوراق ، ولا يجوز له ان يسأل عن مصدرها وعم اسم من « يفبركها » ، فان ذلك كله من اسرار الدولة !! »

ومن السخرية ان هذا القانون يوجب على الدفاع ان تكون مرافعته مكتوبة، في حين ان الدفاع لا يدري اي شيء عن محتويات الاوراق ، ولا يجوز له الاطلاع عليها !

وفي اول تجربة لتطبيق هذا المرسوم اضطر القاضي ان يسمع كلام المحامي شفهيا . وعندما اتاه ممثل الادعاء وجوب ان يكون الدفاع مكتوبا تجاهل القاضي طلبه !! لانه ، وببساطة ، كيف يمكن للدفاع ان يكتب سطرا واحدا عن

Digitized by Birzeit University Library

قضية لا يعرف عنها اي شيء · والقاضي نفسه لا يعرف شيئا عن الاوراق التي تقدم اليه في نفس الجلسة في ظرف مختوم بالشمع الاحمر ، لكن قاضي محكمة الاستئناف (المستشار المصري **محمد صدقي البشبيشي** ، الغني عن التعريف) اثبت قدرة خارقة في انه تمكن من تصفح ملف يتكون من عشرات الصفحات في بضع دقائق واستنبط الاسئلة المطلوبة لسير العدالة !! » · (انظر « النضال » العدد الثاني) ·

● وبجانب مرسوم امن الدولة ، فما زال عدد من المراسيم والاوامر الادارية التي تطبق رغم وجود نصوص اكثر حداثة ، ورغم ان بعضها صدر في عهد المستشار البريطاني **بلغريف** ، حاكم البحرين الفعلي للفترة ما بين ١٩٢٦ ـ ١٩٥٧ · فعلى سبيل المثال ، هناك امر اداري صادر منذ بداية الخمسينات يمنع موظفي الدولة من ممارسة السياسة ، وهو الامر الذي استند اليه **قانون الانتخاب** ليمنع قيام اي موظف في الدولة بممامسة حق الترشيح للمجلس البرلماني ، **وهو** الامر ذاته الذي استندت اليه الحكومة حين منعت الشاعر **علي عبد الله خليفه** من القاء قصيدة في الاحتفال الجماهيري الذي نظمته النقابات العمالية بمناسبة الاول من ايار ١٩٧٤ ، بالرغم من ان هذا الاحتفال كان احتفالا شرعيا ، حسب نصوص مرسوم **بقانون الاجتماعات** والذي يستحق عرضا خاصا ·

● تجدر الاشارة هنا الى ان اسلوب استصدار الاوامر الادارية ما زال اسلوبا معتمدا لدى السلطات البحرانية · فلكي تعمل على وقف تغلغل الافكار التقدمية في صفوف الشباب ولكي تحكم رقابتها على نشاط الحركة الوطنية في صفوف الطلبة فلقد استصدرت في جنيف ١٩٧٦ قرارا ينص على **ضرورة قيام كل طالب يرغب في مواصلة تعليمه في الخارج** (لا توجد امكانية للدراسة الجامعية في البحرين) **بالحصول على ترخيص بذلك من الجهات المختصة تحت طائلة عدم الاعتراف بشهادته الجامعية وحرمانه من العمل بعد تخرجه** · (انظر : ٥ **مارس** ، العدد ١١) ·

وبالرغم من تعسف هذا القرار الا انه يبدو اخف كثيرا من عدد اخر من القرارات التي اتت بعده بهدف وقف النشاط الوطني في صفوف هذا القطاع الهام من قطاع الشباب · فمنعت كافة نشاطات **الاتحاد الوطني لطلبة البحرين** ، بما في ذلك برامج العمل الصيفي والندوات الثقافية والادبية ، وحتى حفلته السنوية التي تعود اقامتها كل صيف ·

Digitized by Birzeit University Library

ولقد تم تتويج هذه القرارات التعسفية ضد الطلبة باصدار قرار بتعديل مواد **قانون الجوازات** ، بحيث تتم معاملة الطلبة معاملة خاصة ، تتمثل في تحديد مدة صلاحية **جواز سفر الطالب او الطالبة بسنة واحدة فقط ، غير قابلة للتجديد الا بعودته الى البحرين ، وبعد موافقة وزارة الداخلية .**

يشير بيان صادر عن **الاتحاد الوطني لطلبة البحرين** الى ان السلطة البحرانية قد اتخذت ، في ٢٤-٧-٧٧ ، قرارا « بمنع ما يقارب المائتي طالب من السفر لمواصلة دراستهم الجامعية ، وذلك ضمن مسلسل تصفية **الاتحاد الوطني** ، حيث شملت قائمة الممنوعين جميع اعضاء الهيئة التنفيذية للاتحاد ، ومجلسه الاداري ، والهيئات الادارية لبعض الفروع ، كما شملت طلبة من جميع المناطق الدراسية (القاهرة ، الكويت ، بغداد ، البصرة ، دمشق ، حلب ، الولايات المتحدة ، الهند ، المملكة المتحدة) » . (انظر **المسيرة** ، العدد السابع) .

● من الجدير بالاشارة هنا ان الشباب والطلبة ليسوا الوحيدين في التمتع بهذه المعاملة التمييزية ، والتي تؤدي الى الحجز على الحق في ممارسة الحقوق السياسية والمدنية بشكل طبيعي .

● فالمرأة محرومة من ممارسة حقوقها السياسية ، رغم ان نصوص الدستور تؤكد مساواتها بالرجل . ولم ترضخ السلطات لكافة اشكال الضغوطات الشعبية التي مورست بهدف منح المرأة حق الانتخاب والترشيح . وتهتم اجلزة المخابرات بمراقبة نشاط الجمعيات النسائية القائمة ، ولقد منعت قيام جمعيات جديدة ، فما زال طلب لانشاء « **جمعية بنات الريف** » قابعا في الادراج منذ سنوات ، وتمنع الجمعيات النسائية من الاتصال بالاتحادات النسائية في الدول الاخرى او استقبال وفود هذه الاتحادات ، بل ويحظر على هذه الجمعيات اقامة اي اتصال فيما بينها الا بموافقة وعبر وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل .

● من جهة اخرى ، فان القوانين السارية تمنع « المواطنون المتجنسون » (**وهم غير** « المواطنون بالولادة ») من ممارسة الحقوق السياسية والمدنية بشكل طبيعي . فلا يحق « للمواطن المتجنس » ممارسة حق الانتخاب والترشيح، باعتباره حقا من حقوق المواطنة ، الا بعد عشر سنوات من تاريخ حصوله على الجنسية البحرانية .

Digitized by Birzeit University Library

كما يعيش الناشطون سياسيا من ابنـــاء « المواطنين المتجنسين » تحت تهديد مستمر بسحب جنسياتهم ، وخاصة وان حكومة البحرين لم تتورع ، في مناسبات عديدة ، عن القيام بسحب الجنسية من مواطنين بحرانيين ، ثم ابعدتهم عن البلاد رغم احتجاجات اهاليهم والرأي العام .

● نعود الى مرسوم **قانون الاجتماعات** ، الصـــادر في ايلول ١٩٧٣ ، والذي تؤكد المادة الاولى منه على ان « الاجتماعات العامة مباحة ، بالشروط الواردة في المواد الاخرى ..!! اما المادة الثانية فتفرض على من يريد عقـــد اجتماع عام ان يخطر المدير العام للشُرطة قبل ثلاثة ايام على الاقل (٢٤ ساعة اذا كان الاجتماع انتخابيا) ، ويجب ان يحتوي الاخطار على تحديد زمـــن الاجتماع ، ومكانه ، وسببه ، وان يكون موقعا من خمسة اشخاص (شخصان اذا كان الاجتماع انتخابيا) من اهالي المنطقة التي سيعقد فيها الاجتماع ، على ان يكونوا معروفين بحسن السمعة ، متمتعين بالحقوق المدنية والسياسية » .

وحتى بعد حصول المواطنين على ترخيص بعقد الاجتماع ، فان المرسوم يجيز للشرطة منعه « اذا كان من شأنه الاخلال بالامن ، او الاداب ، ولاي سبب خطير آخر . ويبلغ منظمو الاجتماع بأمر المنع قبل الموعد بسب ساعات عـلى الاقل » . ويمنع المرسوم استخدام دور العبادة او المدارس او المباني الحكومية لعقد الاجتماعات « الا اذا كانت لغرض لا يتعارض مع الغاية التي خصصت لها تلك الاماكن » .

وكأن كل ذلك لا يكفي ، فلقد نص المرسوم على ان يكون لكل اجتماع عام لجنة من رئيس وعضوين على الاقل ، وتكون مهمة اللجنة المحافظة على النظـام ومنع الخروج على « القوانين والاداب العامة » .

من جهة اخرى فان المرسوم يعطي « الشرطة حق حضور الاجتمـــاعات العامة في الحدود اللازمة للمحافظة على الامن والنظام ، ولهم حق حل الاجتماع اذا ما طلبت اللجنة ذلك ، واذا وقع اضطراب شديد يخل بالامن والنظام العام ، او اذا وقعت ـ اثناء الاجتماع ـ جريمة مـن الجرائم ـ المنصوص عليهـا في قانون العقوبات او غيره من القوانين النافذة » .

ومع ان هذا المرسوم كان قد صدر بهدف التضييق على النشاط الدعاوي والسياسي ابان الحملة الانتخابية في ١٩٧٣ ، الا ان فوائده تعدت ذلك الهدف

Digitized by Birzeit University Library

المحصور بكثير · فاليه استندت السلطـــة حين رفضت التصريح للعديد من الاجتماعات ، بما فيها اجتماعات دعا اليها – في حينه – اعضاء في البرلمان ، وذلك بهدف الاجتماع بناخبيهم ·

وكذلك حين **منعت الاحتفال بعيد الاول من ايار ١٩٧٥ قبل ساعات قليلة من موعده بعد ان كانت قد منحت منظميه تصريحا بذلك** · وهو نفس المرسوم الذي تستند اليه حين تمنع جمعيات ثقافية او مؤسسات اجتماعية مثل الجمعيات النسائية وغيرها من ممارسة نشاطهما بحرية وفاعلية ·

● وتعاني « **اسرة الكتاب والادباء** » في البحرين من التطبيق التعسفي لهذا المرسوم كما تعاني من قوانين اخرى تستهدف تقييد حرية الفكر والتعبير بل والغائهما · فما زال طلب مقدم من قبلها للحصول على ترخيص باصدار مجلة فصلية **قيد الدرس ، منذ ان قدم قبل عشر سنوات في ١٩٦٨** ! والحمومة تستند في موقفها هذا ، الى « **مرسوم قانون المطبوعات والنشر لعام ١٩٦٥** » ، والذي تنص المادة الثانيـــة منه على « **ان حرية الصحافة مصونة** » ، الا ان مواده الاخرى تضع الكثير من العقبات المالية والادارية في وجه من يرغب في ممارسة هذه الحرية · كما ويمتلك وزير الاعلام ، بحكم مواد هذا المرسوم حق الالغاء الاداري لترخيص اصدار الصحيفة ، ورغـم كل تلـك العقبات وتلـك السلطات التي **يملكها** وزير الاعلام ، **ويمارسها بالفعل** ، فان المادة الرابعة عشر من المرسوم تذكر قائمة طويلة من الممنوعات التي يحظر نشرها · وتتدرج قائمة الممنوعات من **انتقاد الذات الاميرية ، وتعكير صفو العلاقات مع الدول الشقيقة والصديقة ، الى نشر الدعوة الشيوعية ، او التحريض على قلب نظام الحكم ، مرورا بنشر انباء تبلبل الافكار عن وضع البلاد الاقتصادي** · (انظر الملحق ب)

يجدر بنا هنا الاشارة الى تقرير رسمي للكونغرس الاميركي حول الممارسات ضد مبادىء حقوق الانسان ، والذي يشير فيما يتعـلق بالبحرين « **ان البحرانيين احرار في التعبير والتفكير · وتتعرض الصحافة للرقـــابة ، وخاصة بسبب مناقشة علاقة البحرين بالبلدان الاخرى** » ·!!

ويتعرض العاملون في الصحف البحرانية الى الكثير من المضايقـــات والصعوبات ، في مجال ممارستهم لعملهم ، وخاصـــة بسبب تدخل جهـــاز المخابرات في دقائق شؤونهم المهنية · ولقـــد قدم الى المحاكمة العـــديد من الصحافيين بسبب ما كتبوه في صحفهم ، كما وتعرض عدد منهم للاعتقـــال

Digitized by Birzeit University Library

الكيفي ، ويوجد رهن الاعتقال بعض العاملين في حقل الصحافة مثل **ابراهيم بشمي ، وعبد الله علي خليفة ، وجاسم عاشور** ، وغيرهم ·

وتتعرض الصحف البحرانية، رغم ارتباط بعضها المباشر بأوساط السلطة، الى الايقاف الاداري كما حدث مؤخرا لجريدة « **الاضواء** » ، لمجرد انها غمزت من قناة بعض المسؤولين ، بسبب فضائح الرشوة والفساد الاداري ·

● من جهة اخرى ، فلقد استحدثت السلطة مفهوم « الرقابة الذاتيـــة » بالنسبة لوكلاء الصحف ودور النشر العربية والاجنبية · ويعني مفهوم «الرقابة الذاتية » ان هؤلاء الوكلاء مسؤولون عن توزيع اية صحيفة او مجلة او كتاب قد لا ترضى الحكومة عنه · وحيث انه لا توجد قوائم علنية بالكتب والمجلات والصحف الممنوعة فان التطبيق العملي لمفهوم « الرقابة الذاتية » ادى الى خلو المكتبات من اية مطبوعة ذات قيمة ، تحسبا وحذرا ·

■ توفير الضمانات القانونية والسياسية لممارسة المواطن للحريات المدنيـــة والسياسيـــة :

● يبدو واضحا من استعراضنا السابق ان النصوص القانونية المتعلقة بضمان حرية ممارسة المواطن لحقوقه المدنية والسياسية حينما تتوافر ، فانمـا تتوافر كنصوص جامدة ليس الا · فمن خلال الجهاز القضائي المتواطىء مـع رغبات المخابرات ، ومن خلال التفاسير المتعسفة للنصوص ، ومن خلال الاوامر الادارية والمراسيم الاميرية تنقلب اكثر النصوص بريقا وتماثلا مع مبـــادىء حقوق الانسان الى ادوات لحرمانه من هذه الحقوق ، ومبررات لحرمـــانه من حرياتـــه ·

فقانون المطبوعات والنشر يقول بأن حرية الصحافة مصونة ، لكنه يضع عشرات العراقيل والمحظورات في وجه ممارسة تلك الحرية ·

وينص الدستور على ان للمنازل حرمة يجب ان تصان ، الا ان مرسوم امن الدولة يلغي هذه الحرمة ، كما ان ممارسات جهـــاز المخابرات تجعل النص الدستوري طرفة مؤلمة الوقع ·

● واذ ينص الدستور على مساواة المواطنين في الحقوق والواجبات ، وامام القانون ، الا ان ما اشرنا اليه فيما يتعلق بالمرأة والمواطنين المتجنسين

Digitized by Birzeit University Library

والطلبة يؤكد انعدام قيمة هذه النصوص ، من جهة ، وانعدام وجود ضمانات فعلية لتطبيقها ، من جهة اخرى ·

● ان لجهاز المخابرات سلطات واسعة يتمتع بها ، عبر مراسيم وتشريعات حتى بدونها ، للملاحقة ولاعتقال واحتجاز اي مواطن ، ومراقبته ، والتلصص عليه ، وعلى تحركاته وبريده واتصاله ، وكذلك عبر اشتراط حصول المواطن على شهادة عدم ممانعة من هذا الجهاز ، من اجل ان يتمكن من الحصول على وظيفة ، او جواز سفر ، وقبل سفره لمواصلة التعليم او العلاج · ويصل تدخل المخابرات في حياة المواطن الى حد الايعاز بطرده من عمله ، ومنعه من مزاولة عمله الحر ، او سحب رخصة ممارسة العمل التجاري ·

● ان كل هذه السلطات ، التي تتمتع بها المخابرات ، تعني حرمان المواطن البحراني من امكانية الاستفادة من اي ادعاء ، مهما كان شكليا او لفظيا ، بضمان ممارسته لحرياته السياسية وحقوقه المدنية · هذه الممارسة ، التي سيكون ثمنها مصادرة حقوقه كانسان في الحياة ، والعمل ، والعناية الصحية ، والتعليم ، والامان ·

● احترام كرامة الشخص وحرمة منزله وعدم تعرضه للاعتقال الكيفي ولاي نوع من انواع المعاملة الحاطة بالكرامة الانسانية ، والتعذيب والحرمان من المحاكمة العادلة والعلنية ·

● لقد عرضنا الى مرسوم امن الدولة ويجدر بنا ان نذكر هنا ان عشرات المعتقلين بموجب هذا المرسوم مضى على اغلبهم اكثر من مدة الثلاث السنوات التي يبيحها المرسوم ، بل ان من بينهم ثلاثة مناضلين مضى على اعتقالهم اكثر من اربع سنوات (الكاتبين الوطنيين : **احمد الزوادي ويوسف العجاجي**، ورئيس نقابة عمال البناء والمهن الانشائية **عباس عواجي**) · وجميعلم بدون محاكمة او توجيه تهمة ·

علاوة على ذلك فان هناك عدد من المحكومين السياسيين ، الذين حكمت عليهم محاكم صورية عسكرية او مدنية بأحكام طويلة ، رغم عدم توفير الحدود الدنيا من شروط المحاكمة العادلة ، كتوفير الدفاع والعلنية · فالمحاكمات سرية وسريعة ·

Digitized by Birzeit University Library

● وفيما يتعلق بالمعاملة الحاطة بالكرامة ، فان شهادة كل من دخل المعتقل تؤكد ليس فقط عدم اكتراث المخابرات بكرامة المواطن المحتجز ، بل وايضا تعريضه لكل ما هو مهين ·

وفي هذا الصدد يمكن الاشارة الى الاوضاع المزرية للسجون في البحرين وعدم اكتراث المسؤولين لتحسينها ، رغم مختلف اشكال الاحتجاج التي يقوم بها المعتقلون والسجناء ، بما في ذلك الاضراب لمدد طويلة عن الطعام · الا ان جواب المسؤولين يكون ، عادة ، بحرمان المعتقلين والسجناء ، اثر كل احتجاج، مهما كان بسيطا او رمزيا ، من حق مقابلة اهاليهم الشهرية ، ولشهور عديدة ·

● وعلاوة على وضع السجون المزري ، فان الرعاية الصحية معدومة فيها ، رغم ان هناك عددا من السجناء والمعتقلين مصابون بأمراض مزمنة ، ويحتاجون الى الرعاية الصحية · « **فطبيب** » **سجن جدة هو نفسه** « **المرض** » **فيه ، وهو** « **الصيدلي** » **، وهو نفسه مدير السجن الرائد** « **فرانك سميث** » **، البريطاني الجنسية** · وعلى الرغم من كثرة المطالبة والاحتجاجات فما زال سميث ، وهو شخص غير مؤهل لا للطبابة ولا للتمريض ولا للصيدلة ، يقوم بكل هذه المهام لما يزيد عن مائة وعشرين سجينا ومعتقلا في سجن جزيرة جدة ·

● ويتنافس ضباط جهاز المخابرات من الجنسيات المختلفة ، البريطانية والاردنية والباكستانية والبلوشية ، علاوة على البحرانية ، في تطبيق مختلف صنوف التعذيب ، بهدف انتزاع الاعتراف او ارغام المعتقل على الاقرار بما هو مطلوب ·

فهناك الاساليب الاعتيادية ، من سجن انفرادي ، وشتم ، واهانة ، وضرب على اجزاء الجسم والاعضاء التناسلية ، كما ان هناك اساليب مبتكرة ، يتم استعمالها من حين لآخر · ففي صيف ١٩٧٥ بدأ استعمال ما يسمى « **بالموافقة الايرلندية** » والتي تعني اجبار المعتقل على الوقوف على رجل واحدة ، وعلى مدى ايام متتالية ، وبمجرد ان تطأ قدمه الاخرى الارض تنهال عليه ضربات الجندي المكلف بحراسته ومراقبته · ويتم تطبيق « الوقفة الايرلندية » ، والتي كما يدل اسمها مستعارة من الجيش البريطاني في ايرلندة الشمالية ، بعد تعصيب العينين وادخال المعتقل الى غرفة خاصة ، بهدف الوصول الى تلك الحالة الذهنية من الانقطاع عن الزمان والمكان ·

Digitized by Birzeit University Library

● وفيما يتعلق بأشكال التعذيب الجسدي الاخرى ، فاننا نرى ان نقتطف من تقرير نشر في العدد السابع من « النضال » يقول التقرير : « كما يلجا الجلادون الى الضرب بقبضة اليد ، وبالضبط فوق الظهر والبطن ، لمدة ساعات ، والضرب بالخيزران حتى تتكسر الخيزرانة ، وعندها تستخدم الثانية والثالثة، وهكذا ·

« هذا بالاضافة الى شد المناضل من شعره وسحبه على الارض ، او رفعه الى اعلى من شعره · ودفعه بشدة نحو الجدار ، ولمرات متعددة متتابعة، وحتى يسيل الدم من رأسه وجبينه ، وتحرق مواضع مختلفة من الجسد باعقاب السجائر ، ثم يصب الماء شديد البرودة عليها ·

« وايضا ضرب الوجه باليدين (الجودو) فوق الانف والرقبة حتى يصاب الانسان بالدوار ، ويرافق كل هذا التعذيب عبارات الشتم والسب البذيئة والقذف في الاعراض » ·

ولقد ادت أساليب التعذيب المختلفة هذه الى استشهاد المناضل **محمد غلوم** ، من زنازن المخابرات كما أدت الى استشهاد الشاعر والمناضل **سعيد العويني** في زنازن وزارة الدفاع في ديسمبر (كانون اول) ١٩٧٦ ·

وثائق

« مرسوم بقانون بشأن تدابير أمن الدولة »

نحن **عيسى بن سلمان ال خليفة** امير دولة البحرين

بعد الاطلاع على المادة ٣٨ من الدستور ،

وبناء على عرض وزير الداخلية ،

وبعد موافقة مجلس الوزراء ،

رسمنا بالقانون التالي ·

المادة الاولى

اذا قامت دلائل جدية على ان شخصا اتى من الافعال او الاقوال او قام بنشاط او اتصالات داخل البلاد او خارجها مما يعد اخلالا بالامن الداخلي او الخارجي للبلاد او بالمصالح الدينية والقومية للدولة او بنظامها الاساسي او الاجتماعي اوالاقتصادي او يعد من قبيل الفتنة التي تؤثر او من المحتمل ان تؤثر على العلاقات القائمة بين الشعب والحكومة او بين المؤسسات المختلفة للدولة او بين فئات الشعب او بين العاملين بالمؤسسات والشركات او كان من شانها ان تساعد على القيام بأعمل تخريبية او دعايات هدامة او نشر المبادىء الالحادية جاز لوزير الداخلية ان يأمر بالقبض عليه وايداعه احد سجون البحرين وتفتيشه وتفتيش سكنه ومحل عمله واتخاذ اي اجراء يراه ضروريا لجمع الدلائل واستكمال التحريات

ولا يجوز ان تزيد مدة الايداع على ثلاث سنوات ، كما لا يجوز القيام بالتفتيش او اتخاذ الاجراءات المنصوص عليها في الفقرة الاولى الا بأمر من القضاء ·

ولمن قبض عليه طبقا للفقرة الاولى ان يتظلم من امر القبض بعد انقضاء ثلاثة شهور من تاريخ تنفيذه الى محكمة الاستئناف

Digitized by Birzeit University Library

العليا ، ويتجدد التظلم كلما انقضت ستة اشهر من تاريخ القرار برفض التظلم .

المادة الثانية

جلسات المحكمة سرية دائما ، ولا يحضرها سوى ممثل الادعاء والمتظلم وممثله ، وتعقد في محكمة الاستئناف العليا ، ويجوز أن تعقد في اي مكان اخر بالمنامة او خارجها اذا رأت المحكمة موجبا لذلك حفظا لامن البلاد او مراعاة للمصلحة العامة .

المادة الثالثة

للمحكمة ودون التقيد بالاجراءات المنصوص عليها في قانون اصول المحاكمات الجزائية وضع الاجراءات التي تسير عليها في نظر التظلمات مع مراعاة ما يأتي : ـ

١ ـ الاعتماد في اصدار قراراتها على الاوراق والمستندات التي يقدمها الادعاء او المتظلم .

٢ ـ تكون المرافعة امام المحكمة مكتوبة سواء من الادعاء او الدفاع .

٣ ـ يجوز للمحكمة في سبيل تقدير الدلائل وتكوين عقيدتها ان تطلب الى ممثل الادعاء تقديم تقارير اضافية ممن شاركوا في جمع الدلائل على ان يكون ذلك مقصورا على عبر من تقتضي مصلحة الدولة اعتبار اسمائهم ومحال اقامتهم واماكن عملهم من الاسرار التي لا يباح افشاؤها .

٤ ـ يكتفي بالنسبة لشهود نفي المتظلم بالافادات التي تقدم منهم متضمنة معلوماتهم في شأن النقاط التي يرى المتظلم ايضاحها منهم ، وللمحكمة ان ترفض طلب افادات من شهود نفي المتظلم اذا رأت ان الايضاحات المطلوبة منهم غير متعلقة بالواقعة المعروضة. ولا يجوز تأجيل الفصل في التظلم بسبب تراخي هؤلاء الشهود في تقديم افاداتهم .

٥ ـ المستندات والتقارير المقدمة من الادعاء تسلم له في مظروف مغلق عقب صدور قرار المحكمة ، ولا يجوز طلبها في اي تظلم جديد الا اذا جد ما يستوجب الاطلاع عليها . ويكون ذلك بقرار من المحكمة .

٦ ـ محاضر الجلسات تحرر من نسخة واحدة . ولا يجوز كتابة نسخ منها او تصويرها ، وتعتبر هي ومذكرات الدفاع والادعاء وايفادات الشهود من الاسرار .

ويجب ايداعها بعد صدور القرار في التظلم خزانة المحكمة بعد وضعها في مظروف مغلق مختوما بخاتم رئيس المحكمة التي نظرت التظلم ويحظر فتح هذا المظروف ولا يسحب من الخزانة الا بقرار من المحكمة اذا اقتضت الضرورة الاطلاع عليه عند نظر تظلم اخر ، وفي هذه الحالة يحرر محضر بالاجراءات يوضح فيه حالة المظروف ثم يعاد اغلاقه وفق الاجراءات المتقدمة وايداعه الخزانة بعد نظر التظلم ، وهكذا في في كل تظلم .

٧ ـ يخطر وزير الداخلية بصورة من قرار المحكمة في التظلم فور النطق به .

المادة الرابعة

اذا لم يتظلم من قبض عليه على الوجه المبين بالمادة الاولى ، وجب على قسم الادعاء عرض الاوراق على المحكمة المختصة في المدد المعددة للتظلم بطلب استمرار تنفيذ امر القبض .

المادة الخامسة

يجوز لوزير الداخلية ان يأمر في أي وقت بالافراج عن شخص سبق أن صدر قرار بالقبض عليه بالتطبيق لاحكام هذا القانون .

ويفرج حتما عن الشخص المقبوض عليه في اليوم الاخير للسنوات الثلاث المشار اليها في المادة الاولى .

المادة السادسة

كل من كان مودعا السجون المخصصة تنفيذا لامر الحجز الصادر بالتطبيق لنظام الامن العام رقم (١) يعتبر مقبوضا عليه طبقا لهذا القانون وتسري في حقه المواعيد الخاصة بالتظلم على اساس ان تاريخ العمل بالقانون هو بداية الحق في التظلم .

Digitized by Birzeit University Library

المادة السابعة

يلغى قانون الامن العام لسنة ١٩٦٥ والاعلان الصادر في ٢٢ ابريل ١٩٦٥ ونظام الامن العام رقم (١) .

المادة الثامنة

تضاف فقرة جديدة برقم (٣) الى المادة ٧٩ من قانون اصول المحاكمات الجزائية يكون نصها كالاتي : ـ

« وفي الجرائم المضرة بأمن الدولة من الداخل او الخارج المنصوص عليها في قانون العقوبات يكون الاذن بالتوقيف لمدة غير محددة .

وللمأذون بتوقيفه أن يتظلم من التوقيف لمصدر الامر اذا مضى شهر على صدور الاذن ويتجدد التظلم بمرور شهر على صدور القرار برفض التظلم . »

المادة التاسعة

على وزير الداخلية ووزير العدل تنفيذ هذا القانون ، ويعمل به من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية .

امير دولة البحرين

عيسى بن سلمان ال خليفة

رئيس مجلس الوزراء

خليفة بن سلمان ال خليفة

وزير الداخلية

محمد بن خليفة الخليفة

صدر في قصر الرفاع

بتاريخ ٧ شوال ١٣٩٤ هـ .

الموافق ٢٢ اكتوبر ١٩٧٤ م .

« نص المادة ١٤ من قانون المطبوعات والنشر لعام ١٩٦٥ يحظر نشر ما يلي:

١ ـ **النقد الموجه لشخص عظمه الحاكم او** عائلته ، والاقوال المنسوبة الا باذن من ديوان عظمته .

٢ ـ وقائع المحاكمات السرية والمحاكمات التي تتعلق بالطلاق والهجر والبنوه الطبيعية .

٣ ـ الاتفاقات والمعاهدات التي تعقدها حكومة البحرين قبل نشرها في الجريدة الرسمية الا باذن خاص من مدير دائرة الاعلام .

٤ ـ وقائع الجلسات السرية للمجالس الرسمية والحكومية وانباء الاتصالات السرية الرسمية .

٥ ـ الانباء التي من شأنها التأثير في قيمة العملة الوطنية او بلبلة الافكار عن الوضع الاقتصادي .

٦ ـ كل ما من شأنه المساس برؤساء الدول، أو تعكير صفو العلاقات بين البحرين وبين البلاد العربية الشقيقة او البلاد الصديقة

٧ ـ كل ما كان منافيا للآداب العامة ، وماسا بكرامة الاشخاص أو حريتهم الشخصية وكذلك كل ما يتضمن افشاء سر من شأنه ان يضر بسمعة شخص أو بثروته أو باسمه التجاري

٨ ـ كل ما من شأنه التحريض على ارتكاب الجرائم أو اثارة البغضاء ، أو بث روح البغضاء بين أفراد المجتمع .

٩ ـ الطعن في اعمال الموظف العام ، المتضمن قذفا الا اذا ثبت حسن نيته باعتقاده صحة الوقائع التي يسندها الى الموظف العام ويقدم اعتقاده هذا على أسباب معقولة بعد التثبت والتحري ، وباتجاهه الى مجرد حماية المصلحة .

١٠ ـ التحريض على قلب نظام الحكم بالقوة او بطرق غير مشروعة أو نشر الدعوة الى اعتناق الشيوعية ، أو نشر آراء تتضمن سخرية أو تحقيرا أو تصغيرا لدين أو لمذهب ديني »

Digitized by Birzeit University Library

المؤتمر السوري الفلسطيني

جان دايه

قبل القيام بمهمة الاضاءة على **المؤتمر السوري ـ الفلسطيني** الذي جرى اواخر العام ١٩٢١ في جنيف ، لا بد من ايضاح **نقطة** اساسية تتعلق بالمنهجية التي اتبعتها في الدراسة ٠٠ تلك **النقطة** تكمن في التركيز الملحوظ على **حزب الاتحاد السوري** ، ومبادرته الاساسية ، فضلا عن نشاط رئيسه اللبناني المتمصر **الامير ميشيل لطف الله** ٠ ذلك ان **حزب الاتحاد السوري** كان له الدور الرئيسي في كل ما يتعلق **بالمؤتمر السوري ـ الفلسطيني** ٠ فهو صاحب فكرة المؤتمر ٠ وقام ايضا بتنفيذ الفكرة ، من خلال الاتصالات بالاحزاب والشخصيات والصحافة ، الى القيام باعداد المؤتمر في العاصمة السويسرية ٠ ثم ان هذا الحزب دعا الى المؤتمر واعد له على ضوء المبدأ الاساسي الذي يدين به وهو : استقلال سورية بحدودها الجغرافية ٠٠ اي وحدة سوريا اليوم ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن ، واستقلالها ٠ اضف الى ذلك ان مقررات المؤتمر ، رغم معارضة الوفد الفلسطيني ، قد صدرت وفق المبدأ الاساسي **لحزب الاتحاد السوري** ٠ ناهيك بأن رئيس حزب الاتحاد السوري ، **ميشال لطف الله** ، كان رئيسا للمؤتمر ونائب الحزب **محمد رشيد رضا** ، كان نائبا لرئيس المؤتمر ٠ وايضا فان رئيس الحزب استمر يتابع مقررات المؤتمر في المحافل الدولية باوروبا ٠

من هنا التركيز في الدراسة على **حزب الاتحاد السوري** ، الذي هو امر ضروري لفهم المؤتمر ، وسبر غور مقرراته ٠ ولذلك ايضا ، استعملت كلمة سورية بدلا من فلسطين ولبنان وسوريا والاردن ٠٠٠ فضلا عن استعمالي كلمة السوريين في كل مرة كنت بصدد الكلام عن لبنانيين او فلسطينيين او شوام ٠

ولكن استعمالي لكلمتي سورية والسوريين ، كان ايضا ، لاسباب اخرى اساسية ٠ سورية كانت الكلمة المتداولة في **هاتيك** الاعوام ٠ فمن الطبيعي ، اذن ، ان يستعملها كل باحث يتناول التراث وخاصة في تلك الفترة ، وذلك بصرف النظر عن اي لون عقدي او سياسي ، قد اعطي لكلمة سورية فيما بعد ٠ وثمة سبب اخر ، وهو تعذر استعمال عبارة « المشرق العربي » في المعنى السياسي ـ الجغرافي لسورية ، لان المشرق العربي يشمل العراق والسعودية والخليج ، وهي خارج الاطار الجغرافي ـ السياسي الذي كان يضعه لها رواد النهضة ومنهم اعضاء المؤتمر السوري ـ الفلسطيني ٠

Digitized by Birzeit University Library

في اواخر تموز لعام ١٩٢٠ ، سقط **يوسف العظمة في ميسلون** ، دفاعا عن استقلال سورية الطبيعية الغربية ، وكان ان سقط معه حكم الفيصلي الوحدوي في دمشق · نتيجة سيطرة قوات **الجنرال غورو على العاصمة السورية** ، فقد اضطر **الملك فيصل الاول** ، جميع الوطنيين من وزراء واعضاء المؤتمر السوري ، ان يغادروا دمشق بعيدا عن نفوذ وانتداب الفرنسي · وكان ان انتقل معظم الوطنيين السوريين الى القاهرة ، ليلتحقوا بسبقهم الى العاصمة المصرية ، حيث يتوفر المناخ اللائم لمتابعة النضال الاعلامي والسياسي من اجل سورية · وبالطبع ، ليس صدفة ان الوطنيون الذين لجأوا الى مصر ، في تلك الايام ، خليطا من اللبنانيين والشوام والفلسطينيين ، اضافة الى انهم كانوا ينتمون الى جميع الطوائف المسيحية والمحمدية بلا استثناء ·

في ذلك الوقت ، كان في مصر الامير ميشيل لطف الله والصحافي سليم سركيس في طليعة المسيحيين اللبنانيين الذين كتبوا وناضلوا من اجل وحدة سورية الطبيعية ، واستقلالها ·· وكان **حزب الاتحاد السوري** ، الذي شغل **لطف الله** رئاسة لجنته المركزية – اعلى سلطة – **وسركيس** امانة السر فيه ، في طليعة الاحزاب السورية التي تألفت في مصر من اجل سورية ·

لذلك ، ما ان وطئت اقدام اعضاء **المؤتمر السوري العام** ارض مصر ، حتى كان اللقاء والحوار بين اللاجئين السوريين القدامى واللاجئين الجدد · وكان من الطبيعي ان ينضوي عدد كبير من اعضاء **المؤتمر السوري العام في حزب الاتحاد السوري** ، وذلك لوحدة المبدء الفريقين في خطوطها العريضة ·

لنتوقف امام بعض المبادىء الاساسية لكلا الحزبين · ينص المبدأ الاول **لحزب الاتحاد السوري** على ان « تكون سورية ، بجملتها ، وحدتها القومية ، من جبال طوروس شمالا والخابور فالفرات شرقا ، والصحراء العربية فمدائن صالح جنوبا ، والبحر الاحمر فخط العقبة ورفح فالبحر المتوسط غربا » · ويقول المبدأ الثاني باستقلال سورية « استقلالا تاما تضمنه **عصبة الامم** ، وتضمن قانونه الاساسي ضمانا لا يخل بهذا الاستقلال » · اما المبدأ الثالث فينص بالحرف على ان « يكون الحكم فيها – سورية – على مبدأ الديمقراطية اللامركزية ، ويكون اساس قوانينها واحكامها مدنيا بحتا ، ما عدا احكام الاحوال الشخصية فانها تبقى على ما هي عليه » · يبقى المبدأ الرابع والاخير ، الذي يقول بان « يكون قانون حكومتها الاساسي ضامنا حقوق الاقلية » · (كتاب الامراء ال لطف الله – سليم سركيس – باب المبادىء) ·

في المقابل ، يعلن رئيس **المؤتمر السوري العام** على شرفة البلدية في دمشق ، ايديولوجية اعضاء المؤتمر الاجتماعية والقومية وما اتخذوه من مقررات سياسية على ضوئها · فيقول « ان المؤتمر السوري العام الذي يمثل الامة السورية العربية في مناطقها الثلاث الداخلية والساحلية والجنوبية (فلسطين) تمثيلا تاما ، يضع في جلسته العامة المنعقدة ، نهار الاحد ، الموافق لتاريخ ١٦ جمادي الثاني سنة ١٣٣٨ وليلة الاثنين التالي له ، الموافق لتاريخ ٧ مارس سنة ١٩٢٠ ، القرار الاتي : استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية ، ومنها فلسطين ، استقلالا تاما ، لا شائبة فيه ، على الاساس المدني النيابي ، وحفظ حقوق الاقلية ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود ، او محل هجرة لهم » (الثورة العربية الكبرى – امين سعيد – المجلد الثاني – ص ١٣٢) ·

وانطلاقا من وحدة المبادىء والاهداف ، جرى توحيد الصفوف ، وكان ان اصبح رئيس **المؤتمر السوري العام الشيخ محمد رشيد رضا** عضوا في **حزب الاتحاد السوري** ، ونائبا للرئيس · اضافة الى انتساب العديد من

Digitized by Birzeit University Library

اعضاء المؤتمر لحزب الاتحاد ، وفي طليعتهم الدكتور **عبد الرحمن الشهبندر** ·

وسرعان ما « ظهرت الفكرة لعقد المؤتمر ـ **المؤتمر السوري ـ الفلسطيني** في الاجتماع الذي عقدته لجنة **حزب الاتحاد السوري** ، يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١ ، ومدارها عقد مؤتمر من جميع الاحزاب الاستقلالية ، لتوحيد المساعي في جميع الانحاء التي يسكنها السوريون ، وايجاد كتلة يصح ان تمثل رأي السوريين في ما يريدون لبلادهم » · (الثورة العربية الكبرى ـ امين سعيد ـ المجلد الثاني ـ ص ٢٦٤)

بعد الموافقة المبدئية قررت لجنة الحزب تنفيذ الفكرة ، فارسلت الى الاحزاب والجمعيات التي يهمها الامر ، في مصر وفي ديار الاغتراب المنشور الاتي :

« الى جميع الاحزاب والجمعيات المطالبة باستقلال سورية ووحدتها تحية وسلاما · وبعد ، فان لجنة **حزب الاتحاد السوري** المركزية بمصر واثقة انكم كنتم ، وما زلتم ، مواظبين على مبادئكم القويمة الوطنية ، ومساعيكم الشريفة الى ان تتكلل بالنجاح ، ويتحرر الوطن الحبوب ، ويصبح كما يريده ابناءه الاحرار العاملون وطنا حرا ، مستقلا ، زاهرا برجاله ناهضا بهممهم ، سائرا الى الامام ، بفضل ما يبذله هؤلاء الاحرار العاملون في سبيله من التضحيات العديدة والمساعي الجليلة » · (الثورة العربية الكبرى ـ امين سعيد ـ المجلد الثالث ـ ص ٢٦٤) ·

بعد هذه المقدمة العامة يدخل المنشور في صلب الموضوع ، وهو لقاء الاحزاب والجمعيات التي تطالب « العالم المتمدن » بوحدة سورية واستقلالها بواسطة العمل الدبلوماسي لا الثوري ، الذي لا يستطيع احد الا ان يوافق على مشروعيته · لهذا « رأت لجنة **حزب الاتحاد السوري** ، التي كانت ولا تزال تجاهد بجميع الطرق المشروعة ، للحصول على الاستقلال التام للبلاد ، الذي هو امنية كل سوري ابي النفس ان تتآزر جميع الاحزاب والجمعيات السورية التي تعمل لغاية الاستقلال التام ووحدة البلاد ، سواء في سورية نفسها ، او في المهاجر البعيدة المتفرقة ، وتتفاهم فيما بينها على اسس المبادىء والمساعي معا ، وترفع صوتها ، في وقت واحد ، للعالم المتمدن بأسره ، بجميع الطرق المشروعة طالبة الحصول على حقها الوطني الطبيعي ، المؤيد بكثير من العهود والوعود من اقطاب السياسة في العالم المتمدن » ·

طبعا ، من الاسهل ان يتم الاتصال بالعالم المتمدن من خلال **عصبة الامم** · وبما ان مركز العصبة كان جنيف ، فقد ارتأى **حزب الاتحاد السوري** ، لو يحصل المؤتمر في المدينة السويسرية على مكان قريب من مقر العصبة ، وبمناسبة انعقاد مجلس العصبة حيث تكون القضية السورية على جدول الاعمال · وهكذا قررت لجنة **حزب الاتحاد السوري** عقد المؤتمر في ١٠ يونيو المقبل ، لتبرهن بكل ما لديها من الوثائق والحجج والادلة على ما لسورية من الحق في الحرية والاستقلال ، وتتوسل ، بالوسائل المشروعة ، لدى مجلس **عصبة الامم** ، لسماع رأي البلاد قبل ابرام الحكم عليها ، ولاجل تحقيق كل ذلك دعت لجنة **حزب الاتحاد السوري** ، سائر الجمعيات السورية للاشتراك في هذا المؤتمر · وترجو منكم اشعارها باسماء مندوبيكم ، وبميعاد سفرهم ، وبما ترغبون الاشتراك فيه من نفقات المؤتمر العامة » ·

ارسلت لجنة **حزب الاتحاد السوري** هذا الكتاب ، ثم الحقته بالصحافي الوطني **توفيق اليازجي** الى جنيف « لتهيئة اعمال المؤتمر ، وجمع المعلومات اللازمة ، واستقبال الوفود القادمة ، ونشر الدعوة لمبادىء الحزب ، وانشاء مكتب » · (الثورة العربية الكبرى ـ امين سعيد ـ المجلد الثالث ـ ص ٢٦٥) ·

كان من المقرر ان يعقد المؤتمر في ١٠ حزيران ١٩٢١ ، ولكن لجنة المؤتمر ارتأت

Digitized by Birzeit University Library

تأجيله الى الاول من ايلول ، حتى يتوافق وانعقاد **الهيئة العامة لعصبة الامم** · وهكذا غادر وفد **حزب الاتحاد السوري** القاهرة الى جنيف ، في ١١ اغسطس ١٩٢١ » (المصدر السابق ـ ص ٢٦٥) ·

بعد وصول وفد **حزب الاتحاد السوري** ، بدأت الوفود الاخرى تصل الى مكان المؤتمر منطلقة من الوطن ، ومن ديار الاغتراب · وقبل انعقاد المؤتمر ، وصلت برقية من « **الوفد العربي الفلسطيني** » تنبىء بانضمام بعض اعضاء الوفود الموجودة في لندن الى المؤتمرين · وبالفعل وصل الوفد الفلسطيني قبيل انعقاد المؤتمر ، بحيث جرى الافتتاح بحضور الجميع في تمام الرابعة من بعد ظهر يوم ٢٥ اغسطس ، في دار بلدية بلانفاله في جنيف » (المصدر السابق ـ ص ٢٦٥) ·

ولنستعرض بادىء ذي بدء اسماء اعضاء المؤتمر ، الى جانب مسؤولياتهم ، في المؤتمر ، والاحزاب او الجمعيات التي يمثلونها · **الامير ميشيل لطف الله** ، رئيس اللجنة المركزية لحزب الاتحاد السوري ، ومندوبها ·· **الشيخ محمد رشيد رضا** ، رئيس المؤتمر السوري العام في دمشق ، ونائب رئيس الاتحاد السوري ومندوبه · **الحاج توفيق حماد** ، رئيس الجمعية الاسلامية ـ المسيحية في نابلس ومندوب المؤتمر الفلسطيني في لندن · **الامير شكيب ارسلان** ، مندوب حزب الاستقلال العربي · **امين التميمي** ، عضو الوفد الفلسطيني · **وهبه العيسى** ، رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر ومندوبها · **شبلي الجمل** ، مندوب الوفد الفلسطيني ، وسكرتيره ، واحد اعضائه · **رياض الصلح** ، مندوب حزب الاستقلال العربي · **نجيب شقير** ، مندوب حزب الاستقلال العربي ·· **صلاح عز الدين** ، مندوب جمعية السورية الوطنية في بوسطن · **طعان العماد** ، مندوب الحزب الوطني العربي في ارجنتين · **جورج يوسف سالم** ، مندوب حزب تحرير سورية في نيويورك · **توفيق اليازجي** ، مندوب حزب استقلال سورية ووحدتها في سانتياغو ـ شيلي · (المصدر السابق ـ ص ٢٦٦) ·

كان اول ما قام به المؤتمرون هو انتخاب هيئة تدير المؤتمر ، وقد انتخب بالاجماع ، **ميشيل لطف الله** رئيسا للمؤتمر ، والشيخ **رشيد رضا والحاج توفيق حماد وكيلي رئيس والامير شكيب ارسلان** سكرتيرا عاما · (المصدر السابق ـ ص ٢٦٦) ·

وعلى الاثر وقف رئيس المؤتمر والقى كلمة اكد فيها « ان هذا الاجتماع هو دليل حي امام الامم الاوروبية **على رغبة الامة السورية** الاكيدة في الاستقلال » · واضاف : « يزعم الطامعون في بلادنا اننا لسنا اهلا للحرية ، ولا نستطيع ان نكون امة متمدنة راقية ، في حين اننا شعب كانت له مدنية ، بلغت من الرقي ما لم تسبقها اليه مدنية اخرى ، واعمال افرادنا الان في سورية وبقية اقطار العالم تثبت كفاءة السوري » · وختم الخطيب كلمته المرتجلة قائلا : « قد جئنا الى جنيف لنسمع الامم الحرة هذه الحقيقة ، واننا لا نريد الا ان نعيش احرارا في بلادنا ، ولا نطلب لبلادنا غير الاستقلال · واننا نطالب الدول المنصورة في الحرب الكبرى ان تبر بوعدها للامم المحررة · فعلى هذا الامل ، اختم كلامي داعيا لامتنا العظيمة متمنيا ان يراها اولادنا بالغة كل ما نتمناه لها من الرقي والنجاح » · (الامراء ال لطف الله ـ سليم سركيس ـ ص ١٨٥) ·

وعاد **ميشيل لطف الله** يلقي كلمة اخرى · ولكن مكتوبة هذه المرة لحظة افتتاح المؤتمر ·· وهذا هو نص كلمة افتتاح المؤتمر السوري ـ الفلسطيني المكثفة والمتضمنة العديد من الحقائق السياسية البديهية ·

« باسم **الاتحاد السوري** اشكر لكم ايها السادة اجابة دعوتنا الى عقد هذا المؤتمر ، قادمين من وراء البحار ، تاركين عائلاتكم وأعمالكم ايثارا لخدمة وطنكم على مصالحكم

Digitized by Birzeit University Library

الخاصة واشكر احزابكم الوطنية الصادقة التي تديتكم للنيابة عنها في هذا المؤتمر .. علمتم ان الغرض من هذا المؤتمر هو توحيد الاحزاب الاستقلالية وتنظيمها ، للتعاون على السعي ، بالطرق السياسية ، لاستقلال امتنا ووحدة وطننا ، الذي مزقت شمله وفرقت اهله المطامع الاستعمارية ، من غير ذنب جناه ، الا تصديق وعود الحلفاء له ، خاصة ، وللشعوب عامة ، بالحرية والاستقلال . اذا هم ظفروا في الحرب الكبرى الفاصلة بين سلطان الحق والعدل وسلطان القوة والقهر . واخترنا لعقد مؤتمرنا هذه المدينة الحرة مركز عصبة الامم ، لنتمكن من اطلاعها على حقيقة قضيتنا ، واسماع صوت امتنا الخافت في وطننا ، بالضغط الاستعماري ، الى جميع الشعوب الحرة ، وفي مقدمتها احرار بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، لعلها اذا علمت بحقيقتها تساعدنا على الوصول الى حقنا الطبيعي في الحرية والاستقلال لدى حكوماتها ، وبواسطة **عصبة الامم** ، التي هي الملجأ الوحيد الجديد الامين للشعوب المهضومة حقوقها المغلوبة على امرها . وان هون كثير من رجال السياسة امرها ، واضعفها نيط بها من الامال بتعظيم شان نفوذ رجال الاستعمار . فادعو الله العزيز الحكيم ان يأخذ بيدنا ويكلل بالنجاح اعمالنا لخير الوطن العزيز . وانا اعلن افتتاح **المؤتمر السوري ـ الفلسطيني** في جنيف باسم الله وباسم الوطن ، ولتحي سورية حرة مستقلة ، . (الثورة العربية الكبرى ـ امين سعيد ـ المجلد الثالث ـ ص ٢٦٥ و ٢٦٦) .

وبدأ المؤتمر السوري ـ الفلسطيني اعماله في ورشتين متداخلتين : في قاعة المؤتمر حيث يجري التداول من اجل الوصول الى مقررات ترضي جميع المؤتمرين ، وتكون في مستوى القضية التي من اجلها كان المؤتمر .. في اروقة الجمعية العامة ومكاتبها حيث يجري الحوار بين بعض اعضاء المؤتمر وبعض الدبلوماسيين الاجانب ، لايضاح حقيقة القضية وحقيقة ما تقررها الامم المكواسر بصددها ، وبمعزل عن اصحابها .

كان اهم ما استوقف المؤتمرين في مداولاتهم ، داخل قاعة المؤتمر ، هو ما اذا كان مؤتمرهم سيكون حلقة اخرى من سلسلة اجتماعات **المؤتمر السوري العام** ، التي كانت تعقد في دمشق ، ثم في القاهرة . وفي الواقع كان الموضوع بديهيا لدى رئيس المؤتمر ، ونائبه ، ومعظم الوفود . الا ان الوفد الفلسطيني اقترح صيغة جديدة ، تتناول بالتعديل والتغيير « ايديولوجية » المؤتمر ، اذا صح التعبير ، ليصبح مؤتمرا جديدا ، بالاسم والمقررات . وكان ذلك بمثابة مفاجأة كاملة لباقي الاعضاء ، وخاصة **لميشيل لطف الله** لان هؤلاء قد دعوا الى المؤتمر ، وتكبدوا عناء السفر ، انطلاقا من مقررات **المؤتمر السوري العام** ومبادىء **حزب الاتحاد السوري** ، التي تؤكد على رفض **وعد بلفور** واستقلال فلسطين ضمن استقلال سورية .. ولكن ماذا اقترح الوفد الفلسطيني ، حتى فوجىء الاخرون ، وبدت علائم الاستغراب على وجوههم ؟ ..

لنترك الاجابة للشيخ **محمد رشيد رضا** ، نائب رئيس المؤتمر : « دارت المذاكرة بيننا وبين اعضاء الوفد الفلسطيني **على مقاصد** المؤتمر ، وغايته ، واسمه . فذكرناهم بان دعوة **حزب الاتحاد السوري** الى عقد المؤتمر مبنية على قواعده الاساسية في استقلال البلاد السورية ، وحريتها ، وشكل حكومتها ، ولا مندوحة عن تسميته **بالمؤتمر السوري الاول** .. فقالوا ان الدول قد فصلت بعض مناطق البلاد عن بعض ، ووضعت لكل منها اسما ، فاذا اطلق اسم سورية الان ، لا تدخل فلسطين في مسماه ، فنقترح ان يسمى **المؤتمر السوري ـ الفلسطيني** بل نشترط ذلك ، فقبلنا بعد جدال طويل » . (مجلة المنار ـ محمد رشيد رضا ـ مجلد ٢٣ ـ ١٩٢٢ ـ ص ٤٤١) .

ويضيف الشيخ رضا بان **الوفد الفلسطيني** خير المؤتمرين بين **فصل المسالة الفلسطينية** عن القضية السورية ، او ربط المسالة الفلسطينية **بالوحدة العربية** ، لان ذلك لا يعرقل

Digitized by Birzeit University Library

مشروع استقلال فلسطين العتيد ، حسب ظن اعضاء المؤتمر الفلسطينيين · وقد كان هؤلاء الاعضاء يعتقدون ان ربط مصير فلسطين بباقي سورية المنتدبة ، من شأنه ان يعرقل استقلال الاولى ، ولا يساهم في تحقيق استقلال الثانية · ويؤكد **الشيخ رشيد رضا** ان طلب الوحدة العربية بدلا من الوحدة السورية ، او طلب الاستقلال لكل من سورية وفلسطين على حدة ، قد عز على **الامير ميشيل لطف الله** ، لانه راه هادما لاساس **حزب الاتحاد السوري** فلم يقبله ، فوقع الخلاف » · (المصدر السابق ص ٤٤١ ـ ٤٥٩) ·

ولكن الخلاف لم يدم طويلا · فقد توصل المؤتمرون الى حل وسط ، لا يموت فيه الديب ولا يفنى الغنم · فكان ان سمي المؤتمر بـ **المؤتمر السوري الفلسطيني** ·· وكانت المقررات « سورية فلسطينية » ، بحيث ان المسالة الفلسطينية جاءت منفصلة ومتصلة في آن ، بالقضية السورية ·

اضافة الى ان الحل الوسط الذي جاء نتيجة لمداخلة الوفد الفلسطيني قد ساهم في ابراز المسالة الفلسطينية على حساب المسالة اللبنانية ، او اية مسالة اخرى · وقد تجلى ذلك في اسم المؤتمر ، وفي مقرراته ، على حد سواء ·

بعد الوصول الى الرأي الموحد اثر ١٧ جلسة عقدها المؤتمرون اختتم المؤتمر اعماله في ٢١ ايلول ١٩٢١ . « وانتخب لجنة تنفيذية ، عهد اليها بملاحقة قراراته · وقد تألفت كما يأتي : **الامير ميشيل لطف الله** رئيسا ، والسيد **رشيد رضا** ، وكيل رئيس ، **ونجيب شقير** سكرتيرا عاما **وتوفيق اليازجي واسعد داغر** اعضاء » · والملاحظ ان **اسعد داغر** لم يرد اسمه في عداد المشتركين الرسميين في المؤتمر · الا انه كان حاضرا المؤتمر بصفة غير رسمية ، كما هو حال بعض الوطنيين السوريين ، امثال **نسيم صيبعة** · ولعل وطنية هؤلاء ونضالهم الدؤوب من اجل قضية وطنهم ، وتكبدهم عناء الانتقال الى جنيف ·· كل ذلك دفع بالمؤتمرين الى انتخاب احدهم ليكون في لجنة المتابعة ، بدلا عن انتخاب احد اعضاء المؤتمر الرسميين ·

والسؤال الان : ماذا عن مقررات المؤتمر والحيثيات ؟

رفع **المؤتمر السوري الفلسطيني** كتابا ، باللغة الفرنسية ، الى المجمع الثاني **لعصبة الامم** ، ووزعه على اعضائها في جنيف ، استهله بما يلي :

« الى سعادة ه· ا· فان **كارنبك** ، رئيس المجمع الثاني لجمعية الامم ·· والى حضرات مندوبي الدول في هذا المجمع ·· يا حضرة الرئيس ويا حضرات الاعضاء ·· اننا نحن الموقعين ادناه ممثلي الاحزاب والفرق السياسية في سورية ولبنان ومعتمدي اهالي فلسطين من المسلمين والمسيحيين ، الناطقين بلسان اهالي هذه البلاد ، نتشرف بان نلجأ الى سلطة جمعيتكم العليا باسم **المؤتمر السوري ـ الفلسطيني** المنعقد الان في جنيف ، في بسط الحالة السيئة التي آلت اليها امتنا ، واستمداد معونتكم لها ، بجعل حقوقها محترمة ، ومعترفا بها » · (الثورة العربية الكبرى ـ امين سعيد ـ المجلد الثالث ـ ص ٢٦٦ و ٢٦٧) · وتضمن الكتاب نص مواد الرئيس **ولسن** الاربع عشرة ، التي تقول بترك الحرية لكل الامم لكي تقرر مصيرها بنفسها ، حيث ان في طليعتها « الشعب السوري ، الذي يمت الى الامم بتاريخ ومقومات تؤهله ان **يطالب** بالاستفادة من تلك التصريحات ، وبالاعتراف بسيادته ، وفقا للمبادىء التي كان لها الفوز » (المصدر السابق ـ ص ٢٦٨) ·

ولم ينس **المؤتمر السوري ـ الفلسطيني** ان يشير في كتابه الى « المقاتلة من العرب » الذين ساهموا مع الحلفاء في طرد الترك من الاراضي السورية ، مقابل « الوعود الصريحة التي قطعها **للملك حسين السير هنري مكماهون**

Digitized by Birzeit University Library

العميد البريطاني في مصر باسم انكلترة ، احدى دول الحلفاء سنة ١٩١٥ ، وقد ضمنت هذه الوعود الاعتراف باستقلال بلادنا ، .. ويضيف المؤتمرون انه « لسوء الحظ لم يتم شيء مما كنا نؤمله .. فطفق الشعب السوري ينظر الى ماضيه ، والخيبة ملء فؤاده » . (المصدر السابق ـ ص ٢٦٩)

واكد المؤتمرون ، في كتابهم ، ان بلادهم « قد قسمت الى مناطق عملا بمعاهدة سايكس ـ بيكو ، المؤيدة باتفاق لويد جورج وكليمانصو في سنة ١٩١٩ ، فاخذ الانكليز فلسطين والساحل الفلسطيني ، واخذ الفرنسيون ساحل سورية الشمالية ، واحتفظ الامير فيصل بالمنطقة الداخلية ـ فاسفرت هذه الوقائع عن احراج صدور الاهلين ، والتأم في دمشق مؤتمر سوري عام ، في شكل مجلس مؤسس يتألف من مندوبين انتخبوا من المناطق الثلاث ـ وقد عقد هذا المؤتمر ، برغبة الرأي العام الشديدة جلسة عامة ، وأعلن بالاتفاق مع الزعماء السياسيين والرؤساء الروحيين ، من جميع الملل والنحل ، في ٨ مارس سنة ١٩٢٠ ، استقلال سورية التام ، بحدودها الطبيعية ، اي مع فلسطين ولبنان ، ونادى بالامير فيصل ملكا دستوريا على البلاد ، وانصرف الى سن القوانين ، وتنظيم الحكومة الوطنية ، التي كان لديها ممثلون للحكومات الاجنبية . على ان هذه السيادة على المنطقة الداخلية ما لبثت ان انتزعت في صيف سنة ١٩٢٠ ، كما تعلمون » (المصدر السابق ـ ص ٢٧٠)

بعد تلك الحيثيات ، وغيرها ، مما لم يرد ذكره في تلخيصنا للكتاب ، طلب المؤتمرون من رئيس جمعية الامم واعضائها موقفا ايجابيا من مقررات المؤتمر السوري ـ الفلسطيني . وذلك على النحو التالي :

١ ـ الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسورية وللبنان ولفلسطين .

٢ ـ الاعتراف بحق هذه البلاد ان تتحد معا بحكومة مدنية مسؤولة امام مجلس نيابي ينتخبه الشعب وان تتحد مع باقي البلاد العربية المستقلة في شكل ولايات متحدة (فيدراسيون) .

٣ ـ اعلان الغاء الانتداب حالا .

٤ ـ جلاء الجنود الفرنسوية والانكليزية عن سورية ولبنان وفلسطين .

٥ ـ الغاء تصريح بلفور المتعلق بوطن قومي لليهود في فلسطين .

(المصدر السابق ـ ص ٢٧١) .

وينهي المؤتمرون كتابهم برجاء لجمعية الامم كي ترسل « الى سورية ولبنان وفلسطين لجنة تحقيق ذات سلطة كافية ، اذا كانت تشك في كون مضمون الكتاب يعكس « رغائب الشعب الحقيقية » .

ويلاحظ من نص المقررات الخمسة ان الصياغة استطاعت ان توفق بين « سورية » ميشيل لطف الله ورشيد رضا وبين «فلسطينية» الوفد الفلسطيني . بصورة مقبولة . في البند الاول فصلت فلسطين عن سورية ارضاء للفلسطينيين . وفي الشق الاول من البند الثاني اعيد وصلها بناء لرغبة باقي اعضاء المؤتمر . اما الشق الثاني من البند الثاني ، فقد صيغ ببراعة ، بحيث وافق عربيو المؤتمر على مضمونه ، لانه يشكل الحد الادنى المقبول لعروبة فلسطين ، مقابل موافقة سوريي المؤتمر عليه ، لانه لا يتخطى الحد الاقصى ، الذي يرونه ، في عروبة سورية .

طبعا ، لم يحصل تبليغ الكتاب لرئيس واعضاء جمعية الامم بدون تمهيد . ذلك ان المؤتمرين ، كما اشرنا سابقا ، قد اتصلوا قبيل المؤتمر وخلاله ، بالعديد من الدبلوماسيين الاجانب ، الذين يمثلون بلدانهم في الجمعية

Digitized by Birzeit University Library

العامة · ولنأخذ على سبيل المثال ، بعض ما قام به **الشيخ محمد رشيد رضا** في هذا المجال ··

في ٢٤ اب ١٩٢١ اجتمع **الشيخ رضا** برئيس لجنة الوصايات لجمعية الامم **المسيو « رابار »** وهو من علماء سويسرا ، بعد ان مهد للاجتماع **توفيق اليازجي** ، مساعد سكرتير المؤتمر ، طرح رابار على الشيخ **رضا** ، في سياق الحوار الطويل الذي دار بين الرجلين ، السؤال التالي : ارأيت اذا خرج الجيش المحتل من بلادكم وترك امرها اليكم ، اتقدرون على حفظ الامن فيها ، والقيام بشؤون الادارة ؟ واتى جواب الشيخ **رضا** بسرعة ، وثقة بالنفس : « نعم ، واستدل على قولي بالحق الواقع ، لا بدعاوى تحتمل المناقشة · ذلك بان الترك قد جلوا عن سورية وتركوها لاهلها قبل وصول الحلفاء اليها ، ولم يبق فيها احد من ضباطهم ولا من رجال القضاء والادارة منهم ، وقد قام الاهالي السوريون بحفظ الامن وسائر اعمال الحكومة عدة ايام ، الى ان احتلها الجيش العربي المؤلف من السوريين وغيرهم ، وكانت جل الاعمال الادارية في ايديهم الى ان شاركهم الجيشان البريطاني والفرنسي في احتلال البلاد » (المنار ـ مجلد ٢٣ ـ ١٩٢٢ ـ ص ٤٤١) ·

والطريف في نطاق اتصالات اعضاء المؤتمر باعضاء الجمعية العامة ان الشيخ **رشيد رضا** ، الذي كان **والامير ميشيل لطف الله** ، اكثر الناشطين في هذا المجال . كان الوحيد الذي يجهل اللغات الاجنبية ، حيث تولى **وهبي العيسى ويوسف سالم وتوفيق اليازجي** مهمة الترجمان له ولحاوريه ·

ومن التدابير التي اتخذها **المؤتمر السوري ـ الفلسطيني** ، اضافة الى **اللجنة التنفيذية** التي اشرنا اليها سابقا ، تاليفه « لجنة من اعضائه ، تظل في جنيف ، للاحقة القضية لدى جمعية الامم » · (الثورة العربية الكبرى ـ امين سعيد ـ المجلد الثالث ـ ص ٢٧١) وتشكلت اللجنة المذكورة من اعضاء المؤتمر **الثلاثة الامير شكيب ارسلان ، واحسان الجابري وسليمان كنعان** · (المصدر نفسه ـ ص ٢٧١)

ثم جرى تعديل عليها ، فحل **رياض الصلح** محل **سليمان كنعان** كما هو واضح من المذكرات والبرقيات الصادرة في اواسط العشرينات واواخرها ، والتي كانت تحمل توقيع **الصلح** الى جانب **ارسلان والجابري** ·

واخيرا ، عاد اعضاء الوفد السوري ـ الفلسطيني ، كل الى البلد الذي انطلق منه باتجاه جنيف · وما ان وصل رئيس المؤتمر **ميشيل لطف الله** الى العاصمة المصرية حتى « انشد اعضاء **الجمعية الفلسطينية** نشيد سورية المعروف ومطلعه :

انت سورية بلادي
انت عنوان الفخامة
انت سورية بلاد
في جبين الدهر شامة

(جريدة المقطم ، ١٩ تشرين الاول ١٩٢١) واجرت جريدة **الاكسبرس** مقابلة شاملة معه ، حيث طرح عليه مندوبها السؤال التالي : كان مؤتمركم معروفا في بداية الامر باسم **المؤتمر السوري** ·· فلماذا صيرتموه **المؤتمر السوري الفلسطيني** ؟ وكان جوابه دبلوماسيا ومبدئيا : « ان سورية وفلسطين بلاد واحدة · وقد كان خصومنا يتهموننا باننا خصوم فرنسا لانها فرنسا · اتهام فاسد ودعوى باطلة · نحن اصدقاء كل فرنسوي حقيقي ، كل فرنسوي لا تنسيه المطامع الاستعمارية انه يتحدر من اولئك الذين كانوا اساتذة الحرية · وان لقضيتنا العادلة انصارا عديدين في فرنسا نفسها · اما اليوم وقد طلبنا جلاء البريطانيين عن فلسطين فبماذا يتهموننا ؟ ليس المهم بعد هذا سوى ان يقولوا اننا اعداء الاستعمار الفرنسوي والانكليزي على السواء · وهذه حقيقة لا نستحي بها ، بل نفتخر باعلانها على العالم اجمع » · (الامراء

Digitized by Birzeit University Library

ال لطف الله ـ سليم سركيس ـ ص ١٩٢) ·

بعد ذلك ، عقدت لجنة المؤتمر التنفيذية ، في مقرها بالقاهرة ، جلستها الاولى ، يوم ٢ مايو ١٩٢٢ ، فتثبت الوفد السوري الموجود في جنيف ، مفوضة اياه العمل باسمها ، ثم ابلغته قرارها المتخذ في جلستها يوم ٢٨ مايو والقاضي بالحاق رئيسها **ميشيل لطف الله** الى الوفد ، وارسلت بذلك كتاب اعتماد الى وزارات خارجيات الدول العظمى » · (الثورة العربية الكبرى ـ امين سعيد ـ المجلد ٣ ـ ص ٢٧٢)

وفي اللحظة التي تلقى فيها وفد **المؤتمر السوري ـ الفلسطيني** في جنيف اوراق اعتماده كان ينعقد في جنوا « **المؤتمر الاقتصادي الدولي** » · وللحال ارسل الوفد مذكرة مفصلة « الى **السنيور فاكتا** ، رئيس المؤتمر ورئيس وزراء ايطاليا ، والى الرفيق **تشيشرين** ، وزير خارجية روسيا ورئيس وفدها في المؤتمر ، والى كل من توسموا فيه الخير في معرفتهم حقيقة هذه القضية » · (المصدر السابق ـ ص ٢٧٢)

وقد تضمنت المذكرة القرارات نفسها التي اصدرها **المؤتمر السوري الفلسطيني** في جنيف ، بعد ان اكدت لمؤتمر جنوا « ان الحالة الحاضرة في سورية قد تفاقم امرها تفاقما شديدا ، فقد اخفت صوت الشعب اخفاتا ، والغيت حرية القول والطباعة والاجتماع ، وانزلت احكام التوقيف والسجن والجلد والاعدام والنفي بالوطنيين والكبراء من اهل البلد ، وبكلمة واحدة فان الادارة العرفية بالغة اشدها » · (المصدر السابق ـ ص ٢٧٨) · والملاحظ ان المذكرة قد تجنبت المسالة الفلسطينية ، مكتفية بالمسالة اللبنانية والقضية السورية ·وربما يعود ذلك الى طلب الوفد الفلسطيني الموجود في لندن انذاك ·

ولكن الوفد السوري الفلسطيني عاد واثار المسالة الفلسطينية من ضمن اثارته للقضية السورية ، وذلك في المذكرة التي ارسلها الى مجلس **جمعية الامم** ، في ١٧ يوليو ١٩٢٢ · وممارود في المذكرة « ان **المؤتمر السوري الفلسطيني** الممثل لجميع اهالي فلسطين من العرب ولجميع الاحزاب السورية الاستقلالية ـ كان قد عرض على مجلسكم الموقر نداء ، في شهر سبتمبر الماضي ، بمناسبة اجتماع **الهيئة العامة لجمعية الامم** في سنتها الثانية · وبما ان المجلس مجتمع الان للنظر في قضيتنا ، اتينا بهذا الكتاب لنذكركم بمطالبنا المبينة في النداء السابق الذكر ، راجين ان تضعوا هذه المطالب موضوع الاعتبار التام وواثقين بانكم توافقون عليها لمصلحة العدل والحق والسلم ، فهي منطبقة تمام الانطباق على المبادىء التي وجدت لاجلها جمعية الامم » · (المصدر السابق ـ ص ٢٨٠ و ٢٨١)

وهكذا ، فان ٢١ ايلول ١٩٢١ ، تاريخ ارفضاض **المؤتمر السوري الفلسطيني** ، قد غدا ، عبر نشاط **اللجنة التنفيذية في القاهرة** ووفد المؤتمر في جنيف ، وكانه تاريخ بدء نشاط **المؤتمر السوري الفلسطيني** ·

يبقى ان **المؤتمر السوري الفلسطيني** ، سواء في مرحلة انعقاده في جنيف ، ام في سائر مراحل نشاطه الاعلامي والدبلوماسي ، كان من انجح المؤتمرات التي عقدها وطنيو سورية ، واكثرها فائدة للمسالة الفلسطينية ، بصورة خاصة · واذا لم تؤد اعماله الى نتائج حاسمة ، فالامر يعود الى انه قد اكتفى بالاعلام والدبلوماسية ليخوض معركة غير متكافئة مع الانكليز والفرنسيين والصهاينة الذين واجهوا الحق بالقوة العسكرية المتفوقة، اضافة الى تفوقهم في حقلي الاعلام والدبلوماسية ·

Digitized by Birzeit University Library

وثائق

الوضع في فلسطين

ربيع ١٩٣٦

«نحن الامميين حتى النهاية نطمح الى اتحاد طوعي لعمال وفلاحي جميع القوميات ٠٠ اذا كنا نحارب مع ولسون ، وولسون يحول قومية صغيرة الى ادوات له ، نحن نقول ، اننا نناضل مع هذه الادوات » ٠

لينين ، الجزء ٢٤ ، صفحة ١٥٥ ٠

منذ النصف الثاني من شهر ابريل (نيسان) للسنة الحالية (١٩٣٦) ، بدأت تظهر في الجرائد اخبار عن المصادمات المفتعلة بين العرب واليهود في فلسطين ، وكذلك اخبار عن مظاهرات جماهيرية ، ومصادمات ، واعتقالات مع الشرطة والجيش ، وعن اعتداءات على المؤسسات والمراكز الصهيونية ٠ في ٢٠ ابريل (نيسان) اعلن السكان العرب في جميع المناطق اضرابا شعبيا عاما ٠ وتوقف جميع العرب عن نشاطاتهم العادية ، خرجوا الى شوارع المدن ، وتمترسوا في المنعطفات ومفارق الطرق ٠ ان المظاهرات والصدامات العنيفة ، بدأت منذ النصف الاول لشهر نيسان، واستمرت طوال شهر أيار ، واتخذت في اواخر شهر ايار طابع الانتفاضة المسلحة ، وطابعا نضاليا عنيفا للشعب العربي ، من اجل تحقيق اهم المطالب الواقعية والحياتية ، وبشكل خاص ـ توقف الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، والتوقف عن سلب الاراضي العربية من قبل الصهاينة، واقامة حكومة برلمانية شعبية ٠

كيف بدأت ، وكيف تطورت الاحداث ؟ في ١٥ ايار قامت احدى الفصائل الفدائية العامة في البلاد ، تتكون من ثلاثة اشخاص ، بقطع الطريق على احدى المنعطفات بين نابلس ـ وطولكرم ،بواسطة البراميل الاسفلتية ، وقد قاموا بايقاف ٢٠ سيارة ، على دفعات متكررة ، واستولوا بالقوة ، على ما في حوزة الركاب ٠ وقد طالب هذا الفصيل الفدائي الركاب بتسليم الاشياء الثمينة والنقود « من اجل الحصول على البنادق والذخائر والقنابل الضرورية في سبيل الثار لمقتل القائد **عز الدين القسام**

Digitized by Birzeit University Library

ورفاقه ، (١) خلال هذه العملية قتل بطلق ناري التاجر اليهودي ، خازان ، وجرح الجالس الى جانبه ، سائق وصاحب السيارة التاجر اليهودي ، يهودا ، من تل ابيب. بعد جمع النقود والاشياء الثمينة في منديل ، اطلقت الفصيلة سراح المحجوزين ، وطلبت منهم ان « يخبروا الحكومة والجرائد عن كل ما حصل بيننا هذه الليلة » .

تعقيبا على ذلك ، وفي ١٧ نيسان ، قامت الشبيبة اليهودية «خالو تسيم» (*) ، من المستعمرة اليهودية « **رامات جبان** » ، الواقعة على الطريق شمالا من **بتاع تكفا** ، بقتل العامل العربي ، في احدى مزارع البرتقال الكبيرة ، **حسان ابو راس** وضيفه ، النائم عنده في كوخه صديقه ، **سالم المصري** .

في تل ابيب ، وبتاريخ ١٧ نيسان ، بعد دفن القتلى حاول العملاء الصهاينة الانقضاض على المدينة العربية يافا ، وقاموا برش الشرطة ، التي قطعت عليهم الطريق ، بوابل من الحجارة . ١٨ نيسان وقعت اعتداءات على العرب في المدينة اليهودية تل ابيب . ١٩ نيسان انتشرت الاخبار حول مقتل بعض العرب ، وبعد ذلك بدأت صدامات بين العرب والصهاينة على حدود يافا ـ تل ابيب وفي المنشية ومحلات الكرتون والتل الكبير . وقد قام «سكان المناطق المتاخمة لمستعمرات الشبيبة الصهيونية ـ **خالو تسيم** ـ بالاختفاء في تل ابيب . وكذلك حولت بواخر المهاجرين اليهود المتجهة الى يافا ، اتجاهها الى حيفا . واشتعلت حرائق متفرقة في المناطق المتاخمة لتل ابيب .

في ٢٠ نيسان ، مرة اخرى ، كان هناك كثير من القتلى والجرحى نتيجة للصدامات . بعد ذلك اعلن التجمع العربي الكبير ، في مدينة يافا ، بقيادة الاحزاب الوطنية ، الاضراب العام الهادف الى **وقف الهجرة الصهيونية ، ومنع بيع الاراضي الي المهاجرين الصهاينة** . لقد اشعلت هذه الاحداث في يافا كل فلسطين . وانضم السكان

---

١ ـ ان الفلاحين الفلسطينيين الذين طردهم الصهاينة من اراضيهم أسسوا فصائل فدائية مع **شبيبة** بفرق المغاوير ، أطلقت على نفسها اسم « **الاخوة الحطابين** » ، ولم يقتصر اعضاء هذه الفصائل على الفلاحين فقط ، بل شمل المثقفين والعمال . في سنة ١٩٣٤ اعتقل وشنق الفدائي الطليعي محبوب الجماهير الفلاحية الفلسطينية ـ **أبو جلدة** . في يناير ١٩٣٦ طوقت الشرطة واطلقت النار على عناصر الفصيلة الوطنية التحررية « الاخوة الحطابين » الواقعة تحت قيادة الزعيم **الشيخ عز الدين القسام** . تحول مأتم القسام ورفاقه الى مظاهرةكبرى ، قدرت بأربعين الفا ، ضد الامبريالية .

(الصحيح ان القسام وصحبه استشهدوا في تشرين الثاني ١٩٣٥ ـ الكاتب الفلسطيني)

* ـ **خالو تسيم** ـ الشبيبة او الطلائع اليهودية ـ وهي مجموعات من الشباب الصهاينة ، الذين يجري تدريبهم وتجهيزهم في أوروبا وامريكا من اجل الاستيلاء على فلسطين واستعمارها .

Digitized by Birzeit University Library

العرب في جميع المناطق الى الدعوة المعلنة في يافا ، حول الاضراب العـــام ، وظلوا يتابعون تطور الاحداث التي وقعت في يافا وتل ابيب · في ٢٠ نيسان اشتعلت مظاهرات شعبية ضخمة ، في كل مـــن نابلس وطولكرم ، تحت شعارات « **من اجـــل استقلال فلسطين** » « **تسقط الامبريالية البريطانية** » « **المجد والخلود للشيخ عز الدين القسام** » · وقعت في نابلس صدامات بين المتظاهرين وقوات الجيش · واصبح من المتوقع ان تحدث احداث ضخمة،. يوم الجمعة ٢٤ نيسان بعد خروج السكان من المساجد ففي هذا اليوم لم يغادر السكان اليهود مناطقهم في مدينة القدس ، وتجمعوا في الاماكن العامة · وقد قررت العصابات المسلحة الصهيونية نصف العلنية « **الهاجانا** » عدم الظهور خارج حدود المناطق اليهودية · وفي ذلك اليوم قامت القوات المسلحة والدبابات المنتشرة على جميع مفارق الطرق بصد جميع الانتفاضات الجماهيرية · قبل يوم من ذلك جـرت مظاهرات طلابية ضخمة في مدينة القدس ، سيما ، وان الشباب العرب حاولوا بنـاء المتاريس في المنطقة الواقعة بين متحف روزفير ومبنى الحكومة· وقامت في ٢٤ نيسان. في مدن غزة والمجدل وخان يونس ونابلس وجنين وبيسان وطولكرم وعكا وبعد الخروج من المساجد ، مظاهرات ، ووقعت صدامات مع الشرطة ، نتج عنها خسائر بين الطرفين · وقد استمرت المظاهرات في جميع مدن فلسطين لليوم التالي · ووقعت في ٢٥ نيسان صدامات عنيفة بين المتظاهرين والشرطة في مدينة طولكرم · وقد استعملت الشرطة في هذه المظاهرات السلاح ، وجرح ثمانية من المتظاهرين وضابط انجليزي واحد · وفي ٢٨ نيسان وقع في مدينة الناصرة اشتباك بين السكان والشرطة . وقد حاولت الشرطة تفريق المتظاهرين بواسطة الهراوات ، الا ان ذلك ادى الى ازدياد جمـــوع الجماهير . واطلقت الشرطة سبعة عيارات ناريـــة من بنادقهـــا · وكانت اسلحة المتظاهرين . وكما في الحوادث الاخرى ، عبارة عن الحجارة · وبشكل سريع ظهرت الدبابات في شوارع المدينـــة . وكان بين الجرحى عشرون متظاهرا وضابطان انجليزيان ورئيس الشرطة . وقامت في ٢٥ نيسان مظاهرات في مدينـــة جنين . تحت شعار « **تسقط الامبريالية والصهيونية . عاشت الوحدة العربية والتحرر** » ·

في مساء ٢٨ نيسان ، ونتيجة لحوادث الناصرة ولاحدى الصدامات في مستعمرة للشبيبة اليهودية « **خالو تسيم** » ، على طريق صفد « وقعت صدامات عنيفـــة في مدينة القدس ، بين العمال والطلاب من جهة والشرطة من جهة اخـــرى ، وتحصن العمال والطلاب وراء اسوار المدينة القديمة . واستمر اطلاق النـــار ورشق الحجارة ثلاثين دقيقة ، وقد وقعت ١٨ اصابة خطيرة بين المتظاهرين . وجرح عـــدد كبير من الشرطة ايضا · في ٣٠ نيسان تجددت الاشتباكات الدموية في مدينة القدس ، عند بوابة الشام (دمشق) ، وفتحت الشرطة النار على المتظاهرين · وفي يوم الجمعة ١ ايـار . قامت مظاهرة عربية ، عنيفة في مدينة حيفا تحولت الى صدامات مع الشرطة · وقد اطلقـت الشرطة عدة عيارات نارية . ودافع المتظاهرون عن انفسهم بواسطة الحجارة · وقـد قتل احد المتظاهرين ، وجرح عدد من الشرطة · وتمكنت الشرطة من تفريق المتظاهريـن

Digitized by Birzeit University Library

فقط ، بواسطة الهراوات وبعد اطلاق النار عليهم ، وقد سار في هذه المظاهرة عدد من رجالات الدين الاسلامي في المدينة · وجرح خمسة متظاهرين جراح احدهم خطيرة ·

اكبر المظاهرات وقعت في ٨ ايار بمدينة يافا ونابلس · في يافا استمر تحرك عدة الاف من الناس لمدة تقارب الثلاث ساعات · ضيق المتظاهرون على القوة البوليسية ، وحاولوا ، عدة مرات ، احتلال القصر الحكومي ومركز البوليس ، القريب منه · وقد امكن ابعاد المتظاهرين الى الجهة المعاكسة ، بواسطة قوة الاسناد ، التي وصلت في الوقت المناسب · وفي مدينة نابلس لم تقع اي صدامات ، نتيجة لوجود الجيش خارج المدينة ، حيث ابعدته السلطات · وقد كانت فرق الشرطة تجمع ، كل يوم ، من الشوارع ، المسامير وقطع الحديد والزجاج ، التي نثرها المضربون ، من اجل منع سير السيارات·

وبدأت منذ ٢٣ نيسان ، وفي جميع انحاء البلاد ، حرائق شديدة في المزارع ، ومجمات واطلاق نار على مستعمرات الشبيبة « خلو تسيم » وقد شبت النار في مستعمرات بيت الفأر ، وعين حارود وجاجاريش ، وغيرها · ومنذ ٢٥ نيسان ، ولغاية ٥ ايار ، وقع في مستعمرة واحدة ـ عين حرود ـ فقط ، ضواحي ايزدلون ـ ١٤ حريقا ، واتلفت مساحة من الحقول ، تقدر بـ ٣٢٨٠ دونم ، وقد اتخذت السلطات اجراءات مشددة ضد سكان القرى العربية وفرضت غرامات جماعية باهظة ، وقامت باعتقالات جماهيرية ، وغيرها ·

بالرغم من كل ذلك ، فقد اصبحت الحرائق ظاهرة جماهيرية فكثير من الحرائق قام به عمال سكك الحديد ، وذلك بقذف النيران والشرر من القاطرات · واحترق ايضا ، الحرش المزروع لذكرى اللورد بلفور ، بين الناصرة وحيفا · وفي ٢٥ نيسان قامت اعداد ضخمة من بدو بئر السبع وغزة بالتجمع ، على بعد ٢٥ كم الى الجنوب الشرقي من مدينة غزة ، للقيام بمسيرة على الخيول والجمال الى تل ابيب · وتمكن حاكم اللواء ورئيس الشرطة من اقناع البدو ، واعطاهم وعدا بان مطالبهم سوف ترسل الى الحكومة ، في حالة عودتهم وتفرقهم · وفي نفس اليوم قام البدو والفلاحون بمظاهرة في بيسان ، اشترك فيها ١٥ الف شخص ·

وعقد ، في ٤ أيار ، في مدينة رام الله ، مؤتمر لكبار الملاكين والمزارعين ، وقد شارك في هذا المؤتمر ٥٨ قرية ، واعرب المؤتمر عن تأييده للمطالب الشعبية ، واتخذ قرارا بمعارضة واستنكار استعمال العنف ، الذي تسارع الحكومة الى استعماله ، من اجل قمع التحركات ·

وفي اليوم الرابع عشر للاضراب العام رفعت قيادة اضراب سائقي السيارات شعار الامتناع عن دفع الضرائب للحكومة ، تبنى الشعب هذا الشعار ، وبشكل خاص

Digitized by Birzeit University Library

الفلاحين . اخاف هذا الشعار **المندوب السامي**، خوفا شديدا، وطلب من زعماء الاحزاب الوطنية ان يضعوا حدا لهذه الشعارات ، وأجاب الزعماء ان لجنة الدعوة للاضراب تعبر عن ارادة الشعب ، وان الشعب يصرح عن قراره بعدم دفع الضريبة ، وهو مستعد لكل التضحيات المترتبة على ذلك . زعماء اللجنة ، الذين أطلقوا النداء ، بالدعوة لعدم دفع الضرائب ، **حسن صدقي الدجاني وصالح عبده** ، اعتقلوا فورا واحيلوا الى المحاكمة . لقد أقلقت مظاهرات شرقي الاردن الدوائر الحكومية في فلسطين قلقا شديدا ، ولتفادي تكرار احداث عام ١٩٢٩ ، عندما هب البدو من شرق الاردن لنجده الانتفاضة في فلسطين ، عززت الاجراءات العسكرية اللازمة على الحدود مع شرق الاردن ، ومنعت الحركة على جسر اللنبي فوق نهر الاردن .

في أواسط أيار حصلت عدة محاولات من بدو شرقي الاردن لدخول فلسطين ، وتمكن أمير شرقي الاردن **عبد الله** ، ورئيس حرس الحدود الكابتن الانجليزي **كلوب** ـ الذي كان له تأثير كبير في وسط شيوخ القبائل ـ من ردع البدو . منذ الخامس عشر من آذار ، أعلنت **الجبهة القومية العربية** العصيان ، ووقفت الى جانب قرار **اللجنة العربية العليا** ، الداعي الى الامتناع عن دفع الضرائب .

في النصف الثاني من شهر ايار ، اشتد تحرك الجماهير ، أكثر وأكثر . واتخذ طابع الانتفاضة الشاملة والعلنية ، واتخذت الصدامات بين المتظاهرين والفصائل الفدائية مع القوات المسلحة والشرطة تلك الصفة الجماهيرية ، التي من الصعب خضوعها لاي مراقبة وانضباط ، لقد وصلت الجماهير الشعبية العربية الى درجة الاستماتة ، وحطمت المزارع ، وأبنية المستعمرات الصهيونية ، وأعمدة التلغراف ، وأتلفت خطوط السكك الحديدية وفجرت الجسور ، والقت القنابل على مراكز الشرطة ، كذلك النيران على قوات الشرطة والجيش .... الخ . ودارت في الجبال ، حول نابلس والخليل ، معارك بين الفصائل الفدائية العربية والقوات البريطانية ، وانضم قسم من سكان نابلس وطولكرم وغيرهم الى الفدائيين ، واتجهوا الى الجبال . وقد تعرضت المدن الى الاحتلال العسكري ، وشملت العمليات العسكرية المنطقة الواقعة بين نابلس وجنين وطولكرم وحيفا . في أواخر ايار رفض حتى الشرطة العرب ، في مواقع المدن ، العمل وانضموا الى الشعب ، وأعلنت حالة الطوارىء في البلاد ، واشترك الجيش والشرطة والدبابات والقوات الجوية في عملية قمع التحركات .

أجلت الزيارة المقررة سابقا للوفد العربي للسفر الى لندن ، بالرغم من تنازل الحكومة الانجليزية ، المقدم بشكل تصريحات ، **بأن** المحادثات في لندن لن تجري حول اقامة مجلس تشريعي في فلسطين فقط ، بل حول الهجرة وبيع الاراضي أيضا . وقوبلت بالرفض ، أيضا ، من قبل العرب مقترحات وزير المستعمرات البريطاني ، المقدمة في ١٩ أيار ، حول تشكيل لجنة ملكية جديدة لتحري الوضع في فلسطين .

Digitized by Birzeit University Library

قامت **اللجنة العربية العليا** ، قائدة التحرك الجماهيري ، باتخاذ قرارات متعددة ومتتالية باستمرار الاضراب العام ، لحين توقف الهجرة الصهيونية الى فلسطين . وقد اتخذت الحكومة عدة اجراءات ماكرة من اجل تحطيم الجبهة الموحدة للاضراب العام ، ولتخويف العمال العرب في يافا . واتتحت الحكومة ميناء جديدا ، ونظمت عملية تفريغ البواخر في تل ابيب . وقامت بضغوطات ضد السائقين العرب ، مهددة بسحب رخص قيادتهم مستقبلا ، ما لم يتقدموا للعمل . كل ذلك لم يضعف ، بل بالعكس قوى الاضراب العام . والحالة نفسها بالنسبة لمذكرة الحكومة ، حول تخفيض واستبدال الضرائب لبعض المناطق . والتي لم تحقق هدفها . تلك الصدقة (المنة) ، التي بواسطتها اعتمدت الحكومة على تمزيق روح وحدة مشاركة الفلاحين في التحركات .

استقطبت فلسطين الدعم والتعاطف الحار مع نضالها من سوريا والعراق ومصر وتونس وبلدان أخرى . وفي ١١ أيار أعلن الشعب العربي في سوريا اضرابا عاما ، احتجاجا ودعما لنضال الشعب العربي الفلسطيني ، وقام سكان المناطق السورية المتاخمة لفلسطين ، في كل من حمص وحماه . بقطع المواصلات التجارية على الصهاينة في فلسطين ، وجرت ، في جميع انحاء سوريا ، حملة جمع التبرعات ، لتقديم الدعم المادي للشعب الفلسطيني . وفي العراق ومصر استمرت حملة احتجاجات وجمع التبرعات المادية .

في التجمعات العربية التي عمت جميع مدن فلسطين . أقيمت **اللجان القومية** ، من أجل قيادة الاضراب العام . واشترك في هذه اللجان جميع ممثلي الاحزاب السياسية العربية المتواجدة . شكلت لجنة الاضراب العام في القدس من ٦٠ شخصا . وفي حيفا من ١٢ شخصا ، وهلم جرا . شكلت لجنة الاضراب في بئر السبع من شيوخ القبائل . وشكلت لجنة قومية عليا في القدس ، لقيادة الحركة . وارتفعت الروح القتالية للمشتركين في الاضراب العام ، يوما عن يوم . ونظمت **لجان الاضراب** المساعدات الضخمة المادية والطبية ، الضرورية للمشاركين في الاضراب العام ، (طعام مجاني وتعويضات مالية ... الخ) واستمر قسم من المشاغل العربية بدفع أجور العمال ، خلال ايام الاضراب . وبالرغم من الحاجة الماسة والحرمان ، الا ان الجماهير العربية حافظت بصلابة . على الاضراب العام .

بدأت تظهر جماعات من بين العمال العرب ، واضعة لنفسها مهام امداد خزينة **لجان الاضراب** ، بواسطة ارغام الاثرياء العرب على دفع جزء من مواردهم . وقام التجار العرب في مدينة نابلس بتسليم مفاتيح محلاتهم التجارية الى **لجنة الاضراب** ، من أجل حفظها لحين انتهاء الاضراب العام ، في جميع انحاء فلسطين . وانضم العمال العرب في ميناء حيفا الى المضربين ، بالرغم من التهديد المباشر ، من قبل ادارة الميناء ،

Digitized by Birzeit University Library

باستبدالهم فورا بصهاينة ، لتحطيم اضرابهم · وضم الاضراب ، ايضا ، عمال النقليات ، وميكانيكي المواصلات.، وعمال المرافيء · وعملت السلك الحديدية تحت حراسة الجيش · وبتصريح من المنظمات العمالية · اشتغلت المخابز والصيدليات وسيارات الاسعاف فقط ، وأغلقت جميع المدارس · اذ شارك المعلمون والطلاب ، بشكل طليعي ، في جميع التظاهرات ، ووصل عدد المعتقلين ، في نهاية شهر أيار ، الى اكثر من الف شخص ، من بينهم عدة عشرات من الشيوعيين ·

أصدر الثوريون الوطنيون اليساريون بتوقيع **عجاج نويهض وحمدي الحيسني** وغيرهم ، نداء ، يطالبون فيه الاستمرار في الاضراب ، مضيفين مطالبا أساسية **للجبهة الوطنية** ، وذلك بمصادرة السلاح من الصهاينة ، باشراف لجنة مكونة من ممثلين عن الحكومة والشعب العربي ، واطلاق سراح المعتقلين السياسيين العرب ، وحق الاشتراك في الانتخابات لجميع طبقات الشعب العربي ، وكذلك لجزء من السكان اليهود ، الذين قطنوا فلسطين قبل اعلان وعد بلفور ·

استغل زعماء الصهاينة مناسبة دفن قتلى الصدام الاول التسعة في تل ابيب للاعتداء وبث الدعاية الشوفينية · ففي خطب تأبين القتلى (استعملت كلمة شهيد) اعتبروا « ضحايا النضال الحتمي من اجل استرداد الوطن » · ودعا « الاشتراكي » **بن غوريون** ، ورئيس بلدية تل ابيب ، **ديز نكوف** ، السكان اليهود لحمل السلاح وتعزيز الهجرة ، وجعل كل مستعمرة يهودية « حصنا منيعا لاتطاه قدم عربية » ، ومن اجل ان تواجه القوة اليهودية « الشعب المتوحش المجرم المعتدي على اليهود » · اثارت هذه الخطب عواصف السخط والاستنكار في جميع انحاء فلسطين ، وانطلق زعماء الصهاينة المحرضون ، مرة اخرى ، تحت ستار مجموعة من العوامل لبث روح الكراهية للعرب · وتجدر الاشارة هنا الى الاعتداءات على العما ل العرب في سكة حديد يافا ، والاعتداءات على الباصات العربية ، وقتل العرب وحرق بيوتهم ··· الخ · ردا على ذلك ازدادت الكراهية من جانب الجماهير العربية للمؤسسات الصهيونية ، فقد قام العرب الثائرون ، مثلا ، بالهجوم على مصنع السجائر « **ماسبيرو** » في يافا · حيث يوجد مئة وخمسون عاملا يهوديا ، ورشقوا هذا المصنع بوابل من الحجارة وحطموا جميع النوافذ · ولكن الشعب العربي بشكل عام ، وخاصة العمال العرب ، اظهروا مشاعر جد انسانية تجاه السكان اليهود ، حيث قام عمال النقل العرب متطوعين ، بنقل السكان اليهود من يافا الى تل ابيب ، بحرا · وبهذه الطريقة تم نقل حوالي اربعة الاف شخص بواسطة المراكب الى تل ابيب ·

تعيش فلسطين تحت هذه الظروف حالة نهوض للنضال الوطني التحرري العربي هذا النضال المستميت لشعب مضطهد من اجل الوجود · نضال من اجل وقف الجرائم الامبريالية ، التي لا مثيل لها ضد الشعب العربي ، وذلك هو استمرار مباشر لتلك

Digitized by Birzeit University Library

النضالات · التي خاضتها الجماهير العربية ضد الامبريالية والصهيونية في سنوات ١٩٢١ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٣ ، وقد فاق النهوض الحالي ، للجماهير بقوتها الذاتية ، كثيرا، احداث تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٣٥ عندما عم البلاد اضراب الاستنكار العارم ضد تهريب السلاح لتسليح العصابات الصهيونية · **بذلك تكون بداية عام ١٩٣٦ دلالة تغيير ثوري جديد** ، وقد كان ذلك متوقعا · ان الجريمة العامة للامبريالية في المستعمرات واشباه المستعمرات ، التي اقرها **المؤتمر السابع للكومنتيرن** (الاممية الشيوعية) ، ظهرت واضحة في فلسطين · من هنا كان النضال الحازم للجماهير العربية من اجل الحقوق الانسانية الاولية ، نضال من اجل صد جريمة الامبريالية والصهيونية ·

ومن الواضح ان هذا النضال ، الذي تخوضه الجماهير العربية ضد الامبريالية في فلسطين ، ليس له اية علاقة مشتركة مع المذابح ولا المجازر الدينية والقومية التي عمت انحاء المعمورة ·

اضطهد اليهود في كل من المانيا وبولونيا وغيرها ، وتعرضوا للابادة والمذابح · اما في فلسطين فللاقلية اليهودية وضع مختلف ،فباسم الجماهير اليهودية في فلسطين ويتكلم الصهاينة · الصهيونية هي حركة البورجوازية اليهودية ، المعبرة عن نزعتها الاستغلالية والاضطهادية ، فانطلاقا من الافكار حول اقامة دولة يهودية في فلسطين تلك الافكار التي قال عنها فلاديمير اليتش لينين ، انها اوضح مثال على خداع الجماهير ، تهدف الصهيونية الى فصل العمال اليهود والجماهير الكادحة اليهودية في جميع البلدان عن المشاركة في الحركات الثورية لتلك البلاد ، وتوجه انتباههم للهجرة الى فلسطين · وتعتبر الصهيونية احد الد اعداء الاتحاد السوفييتي ، لانه يعطي نموذجا حيا لتشييد عرى الاخوة بين الشعوب ، وحل المسألة اليهودية القومية ، بروح السياسة الوطنية اللينينية ـ الستالينية . والتي ازاحت الستار عن الجوهر الرجعي للصهيونية ، وانهت الى الابد الخداع الصهيوني بين الجماهير اليهودية · وليس عبثا ان احد الزعماء الصهاينة المهيمنين هو من غلاة الفاشيين اليهود المعاصرين : جابوتينسكي · عقد عام ١٩٢١ معاهدة مع المخرب الاوكراني (نسبة الى جمهورية اكرانيا السوفيتية) بيتليوره ، وبها تعهد بمساعدته على طرد البلشفيك (الشيوعيين) من اوكرانيا · وفي نفس الوقت الذي كانت الملاحقات المتوحشة لليهود في المانيا الفاشية مستمرة ، عملت المنظمات الصهيونية هناك ، بشكل علني ، معتمدة على ثقة هتلر ، متفقة معه على عقد صفقات تصريف البضائع الالمانية الى فلسطين · لقد تضاعف الدور الرجعي (المضاد للثورة) للصهاينة بشكل خاص عام ١٩١٧ ، حيث ارتبطت الصهيونية بالامبريالية البريطانية · ان الوعد باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، من قبل الامبريالية البريطانية ، حول زعماء الصهاينة الى حلفاء وادوات للسياسة الاستعمارية في فلسطين · وبهذه السياسة تضرب الامبريالية الانجليزية عصفورين بحجر واحد : تقوم

Digitized by Birzeit University Library

باستعمار فلسطين بواسطة الصهاينة من اجل الرأسمال الانجليزي ، وتقوم بجلب الاموال اليهودية من البلدان الاخرى الى مستعمرتها ، وتبرز الصهاينة كفصيل متقدم لها ضد حركة التحرر العربية . وتوفر لنفسها قواعد موثوقة شرقي قنـاة السويس ، وتؤمـن مساعدة البرجوازية اليهودية في حالة قيام حرب عالمية جديدة ٠

بعد ان تحول الاحتلال الامبريالي الى فصائل مقاتلة ، قادت الصهيونية في فلسطين نضالا استعماريا مدمرا ضد السكان العرب . وتحت حماية الحراب البريطانية استعمر المهاجرون اليهود البلاد . واصبح عددهم خلال ١٩٣٥ فقط يزيـد عـلى ٦٠ الف ٠ وبواسطة الاغتصاب المباشر الذي تقوم به المنظمات الصهيونيـة والرأسماليون اليهود استملك الصهاينة ثلث اكثر الاراضي خصبا في البلاد،وبمساعدة الجماعات الصهيونية طرد الفلاحون العرب من اراضيهم وطرد العمال العرب من اماكن عملهم ٠ ولم يستطع الفلاحون العرب المطرودون من اراضيهم حتى العمل كعمال مياومين عنـد المزارعين اليهود ، لان الصهاينة يحتلون الارض والعمل تحت شعار « العمل اليهودي على الارض اليهودية» ، وتحول عشرات الآلاف من الفلاحين العرب المطرودين من منازلهم واراضيهم بواسطة الصهاينة الى مشردين ٠ ان الجريمة التي تلوح في افق الامبريالية والصهيونية تهدد حتى وجود الشعب العربي في فلسطين ، حيث تقوم بتحطيم حياته الاقتصادية ، وتعرضه للطرد من ارض اجداده ٠

قبل بدء العدوان الصهيوني على فلسطين ، كانت هناك علاقات وديـة بين العرب واليهود ، ولكن ، وبمساعدة الامبريالية ، اقيـم للسكان اليهود في فلسطين وضـع اقتصادي وسياسي متميز جـدا بالنسبـة الى وضع السكان العرب ، وتمكن زعمـاء الصهاينة ، بدرجة كبيرة ، تحويل سكان فلسطين اليهود ، حتى الطبقات الكادحة منهم ، الى ادوات في ايديهم ٠

ولم تكن حركة التحرر العربية . في لحظة من اللحظات ، موجهة ضد الطائفـة اليهودية ، وقد عبر الشعب العربي ، مرات عديدة ، عن رغبته في العيش بسلام وصداقة واخوة مع اولئك اليهود اللذين تواجـدوا في فلسطين ، وبـلـغ عددهم حـوالي اربعماية الف شخص ٠

بذلك توجهت جريدة « الدفاع » ، لسان حال الوطنيين العـرب ، في افتتاحيتهـا بتاريخ ٢٤ ايار عام ١٩٣٦ ، الى السكان اليهود ، بالكلمات التالية :

« كنتم اكثر هدوء وحكمة ، قبل الحرب العالمية، كان شعورنا نحوكم شعور الشفقة والعطف ، عندما لعنتكم كل اوروبا ٠ ولكن وبشكل مفـاجيء ، دارت رؤوسكم مـن اتجاهات غطرستكم واتجهتم لمعاداة العرب ، حماتكم الاولين ، والآن نحن نطلب منكم ان

Digitized by Birzeit University Library

تقفوا ، غير مكرهين ، من اجل العدالة ، طالبوا بانفسكم بوقف الهجـــرة · ارفضوا بانفسكم جميع المطامع السياسية · انظروا الى العرب كاصدقاء لـكم ومدافعين عنكم ، لانكم حين تعتبرونهم اعداء لكم ، تنزلون والى غير رجعة ضربة عنيفة بقضيتكم ، · لا يستطيع الشعب العربي الا ان يثور ضد العدوان الصهيوني والهجرة المستقبلية ،المنظمة من قبل الصهاينة لصالح الاستعمار الانجليزي والتي تهدد حتى وجود الشعب العربي الفلسطيني في بلاده ، ان المساعدات التى قدمها الشعب العربي لمنكوبي الشعب الاثيوبي (الحبشي) من العدوان الفاشي الايطالي لهي اكبر دليل على عطف وتضامن الشعب العربي مـــع جميع الشعوب المضطهدة ، وكراهيته لكل اشكال العـــدوان الامبريالي ، سواء كان بريطانيا ــ صهيونيا ، او ايطاليا او المانيا ·

اولئك الذين لا يميزون موقف لينين من القوميات ذات السيادة والمضطهدة ولا يرون الفرق بين وضع الاقلية القومية اليهودية في روسيا القيصرية السابقة وفي المانيا الهتلرية او في بولونيا ووضع اليهود في فلسطين بانه من السهل جدا عليهم الوقوع في خطأ اذا ما قارنوها بالاحداث الفلسطينية · هؤلاء الناس لا يكلفون انفسهم عنـــاء ادراك النضال ضد الامبريالية في فلسطين وان النضال الثـــوري للجماهير موجه ، وسوف يبقى موجها ، ليس فقط ضد مواقـــع الشرطة والجيش ، بل وضد المستعمرات الصهيونية ، التي اقيمت على تلـــك الارض ، والتي كانت في السنين الاخيرة منتزعة بالقوة وبأقسى اشكال الوحشية ، ضد الفلاحين العرب ·

على ضوء هذا التقييم الخاطىء ، وبدلا من تأييد النضال المعـــادي للامبريالية ، ظهرت الافتراءات الدنيئة على حركة التحرر الوطني العربية ، وانطلقت في هذه الايام جماعة حيدر وبيرجر * ونواب وغيرهم ، من الجماعات الشوفينية ، والتي وقفت خلال الانتفاضة العامة عا م ١٩٢٩ مواقف معادية للشعب ·

في حقيقة الامر ، تجري في فلسطين حرب ثورية شعبية فريدة من نوعها · في هذه الحرب يناضل الشعب العربي الفلسطيني من اجل ابسط الحقوق المعيشية ، حق الوجود، يناضل ضد جريمة امبريالية صهيونية بشعة ، من الممكن ان تنفذ في عدة اشكال مختلفة ليس كالعدوان الايطالي على اثيوبيا او العدوان الياباني على منشوريا ، بل في اشكال اطول زمنا واكثر بطأ ، والتي تأتي بعواقبها على فلسطين اكثر تهديدا ، لانهـــا تشدد من قبضة النير الامبريالي والاستغلال ، وبالطرد من البلاد ·

.....

* حيدر . هو الاسم الحركي لابوزيان · وبيرجر هو جوزيف بيرجر · وكلاهما من قـــادة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الذين أدينوا بالميول الصهيونية وطردوا من الحزب في اعقاب هبة ١٩٢٩ الوطنية الفلسطينية ·
(الكاتب الفلسطيني)

Digitized by Birzeit University Library

في فلسطين يرتدي النضال ضد الامبريالية طابعا شاملا حقا ، وتشترك فيه كل طبقات الشعب العربي ، باستثناء شرذمة من السماسرة الحقراء ، ممن يعملون في بيع الاراضي ، المعتاشون على الاستعمار الصهيوني كخونة لاوطانهم · ان الغضب الشعبي للجماهير في الاحداث الحالية موجهة ، ايضا ، ضد هذه الفئة الحقيرة من الشعب العربي · ان النهوض النضالي الوطني التحرري للشعب العربي ضد الامبريالية والصهيونية قوى ، الى الحد الذي يلزم الجميع الاشتراك فيه ، حتى بعض الفئات الاكثر يمينية في معسكر البرجوازيين الملاكين من العرب الفلسطينين · وقد ادت الاحداث الاخرة الى تماسك واتساع الجبهة الوطنية العربية · وقد انضم الى هذه الجبهة الوطنية المتحدة ، قائد الحزب اليميني « **الاستقلال** » **عوني عبد الهادي** ، ومجموعة من الفئات اليمينية مثل المفتي ، **امين الحسيني** ، ورئيس بلدية القدس ، **الخالدي** . وغيرهم · لا شك ان اتساع الجبهة الوطنية ، حتى ولو كان على حساب اليمين ، قد قوى الضغط الشعبي المعادي للامبريالية في المرحلة النضالية الراهنة · اضافة الى ذلك ، فانهم يشكلون خطرا على الجبهة المتحدة ، بمواقفهم غير الثابتة ، وميولهم للحلول الوسطية مع الامبريالية والصهيونية ، والنضال المشترك اليميني وعلاقة بعض زعماء اليمين مع الامبريالية (**راغب النشاشيبي** ، **الخالدي** ، **امين الحسيني** ، وغيرهم) دون شك ان هذا يساعد عمل الامبرياليين من اجل اضعاف وتمزيق الجبهة الوطنية · ولم تستطع المواقف الطائفية « لليمين » المنتظم في الجبهة الوطنية ، والمتمسكين بالفكرة القائلة « انه لا يمكن ان تكون هناك اية مفاوضات مع الامبريالية قبل اجلائها عن البلاد » من تقوية الجبهة الوطنية · وقد ساند **الحزب الشيوعي الفلسطيني** الجبهة الوطنية المتحدة للاحزاب الوطنية العربية ، وايد شعاراتها · ووقف الشيوعيون العرب في جبهة وطنية موحدة ، وكمناضلين طليعيين من اجل الحقوق الاساسية لشعبهم . وناضلوا ، في نفس الوقت ، ضد الاتجاهات الشوفينية للرجعيين العرب ، وضد رغباتهم الهادفة الى ايقاف وحجب النضال الطبقي في داخل الجماهير العربية واليهودية · وناضل الشيوعيون اليهود ، وكما اثبتت الاحداث ، بعناد ضد محاولات الزعامة الصهيونية . استغلال العمال اليهود كادوات لعدوانهم الشوفيني . ومن اجل الاتحاد الاخوي مع العمال العرب . لكن العمال اليهود في فلسطين لم يتخلصوا ، بعد ، من ثقتهم الواعية بالزعماء الصهاينة ، وتفكيرهم الساذج ، بانهم لا يبنون في فلسطين قاعدة استراتيجية عسكرية للامبريالية البريطانية ، بل وطنا لهم ولاخوانهم المضطهدين في البلدان الاخرى .

ان الانفجار الوشيك الحدوث في فلسطين قد بدأ الاحساس به منذ وقت بعيد . ومن اجل تثبيت الهدوء في فلسطين الثائرة . وفي نهاية عام ١٩٣٥ وبعد فشل عام ١٩٣٢ . قدم مرة اخرى مشروع اخراج **مجلس تشريعي** في فلسطين . هو في واقع الامر عبارة عن مجلس استشاري هزيل لدى المندوب السامي الانجليزي . وقد طالب اكثر الاحزاب الوطنية العربية تأثيرا . بتوسيع صلاحيات هذا المجلس بحيث يشتمل بحثه على مسألة الهجرة اليهودية ومسألة بيع الاراضي ·ومن ناحية اخرى، فان الصهاينة واصدقاءهم ذوي

Digitized by Birzeit University Library

النفوذ في البرلمان الانجليزي ، وقفوا في اذار عام ١٩٣٦ بمعارضة شديدة ضد مشروع «المجلس» ، باعتبار هذا المشروع ضربة سوبيهة ضد تصوراتهم حـــول فلسطين وضد الوطن القومي اليهودي .

الا انه قد تبين ان الوضع في فلسطين في غايـــة التوتر ، لدرجة ان المحاولات الجارية لاستغلال المجلس التشريعي ، كمخرج للوضع ، ادت الى نتائج عكسية تماما .

ومن اجل التراجع عن هذه الافكار ، دعا السياسيون البريطانيون ، في ٤ ايار ، وفدا عربيا من فلسطين الى لندن ، للمحادثات الهادفـــة الى افشال النضال الثوري للجماهير في هذه المرحلة ونتيجة الارادة الشعبية اجلت هذه المرحلة لحين تحقيق المطالب التي طرحها الاضراب العام . في هذه الحالة ، ومن خـــلال نضال الشعب العربي ، تمسك الشعب بمطلب اقامة مجلس نيابي في فلسطين ، وطالب بحكومة برلمانيـة شعبية وليس بمجلس استشاري .

واظهرت الاحداث حماسة واصرارا نادرين للمشاركين فيهـــا ، وتنظيما كبيرا ومشاركة جماهيرية في التحرك لم يسبق لها مثيل . لقد كان تنظيم ووعي ودقة الشعارات السياسية للتحرك الحالي اعلى بكثير من الانتفاضة الشعبية العامة عام ١٩٢٩ ، انها اعلى بكثير من احداث مصر في نهاية عام ١٩٣٥ ، التي ادت الى تلـــك الانتصارات للشعب المصري ، مثل اعادة العمل بدستور عـــام ١٩٢٣ ، وكذلك مظاهرات ومعارك شباط في سوريا ، والتي ادت الى سفر الوفد السوري الى باريس .

ان الكفاح البطولي للجماهير الشعبية في البلدان العربية الاخرى مصر وسوريا ، قد الهب الروح النضالية في فلسطين ، واظهر انه يمكن ، من خـــلال الوضع الحالي ، الحصول من الامبريالية على مجموعة من الحقوق والحريات الديمقراطية وبدون شك ، فانه ايضا الهب الحماسة وادى الى ارتفاع الروح النضالية للشعب العربي في فلسطين ، واطرادا لانتفاضة فلسطين ، وفي بداية ايار قامت الانتفاضة الفلاحية العربية في جنوب العراق ، وبشكل عام يبدو ظاهرا في الشرق العربي ازدياد حدة النضال من اجل التحرر الوطني والوحدة الوطنية للعرب .

لغاية الآن ، تعتبر القوة الشعبية الاساسية للحـــركة في فلسطين هي الفلاحين والبورجوازية الصغيرة في المدن بدون شك . وقد اظهر العمال العرب انفسهم كمناضلين طليعيين نشيطين ، من اجل التحرير الوطني والجبهة الشعبية .

ووجهت الحركة ، في المرحلة الراهنة ، قوتها الرئيسية ضد المحتلين والمضطهدين الاجانب ، الامبريالية البريطانية والصهيونية ، ولم توجه قوتها ضد الاقطاعيين العرب ،

Digitized by Birzeit University Library

حتى ان بعض الاقطاعيين العرب وقف على رأس الفصائل الفلسطينية في النضال ضد القوات البريطانية ٠

هذا النضال ، بمجمل نتائجه ، سواء في فلسطين او في خارج فلسطين ، يكتسب اهمية ثورية كبيرة ٠ لان فلسطين ومجمل السياسة الصهيونية تحتل موقعا هاما في سياسة بريطانيا العظمى ، خلال اعدادها لحرب امبريالية جديدة ، هذه الانتفاضة تتحد ، موضوعيا، مع نضال الطبقة العاملة العالمية من اجل السلام. هذا النضال اظهر، مرة اخرى ، بجلاء عدم جدوى كافة المحاولات الصهيونية من اجل انشاء دولة يهودية في هذا البلد العربي ، معتمدة على حراب الامبريالية البريطانية ٠ وقد اظهر الشعب العربي وعيا قوميا عاليا ٠ واثبت انه لا يمكن تقسيم بلد رغما عن ارادته ٠ ولقد اظهرت الانتفاضة ، ان الصهيونية لا تملك ، ولا بأي حال من الاحوال ان تعتبر ذلك مخرجا للجماهير اليهودية في تلك البلاد ، مثل المانيا وبولونيا وغيرها ، حيث تقوم الفاشية بعملية ابادة جسدية لكادحي اليهود ، ولا بد من الهجرة اليهودية الى فلسطين اعتمادا على المساعدات العسكرية للامبريالية البريطانية ـ هذه الاقامة الدائمة من الرعب ، وتلك الحياة في حصن منيع ، هي ، في حد ذاتها ، الموت المحتم ٠ يقف في المرحلة الراهنة ، السؤال التالي امام الجموع اليهودية في فلسطين : هل تحت قيادة الزعماء الحاليين للصهيونية، امثال **وايزمن وشرتوك وبن غوريون** وبن **تسفيه** ، وغيرهم ـ هؤلاء الحلفاء المباشرين للامبريالية البريطانية ـ يستمر العدوان الشوفيني ضد العرب ، او خلافا لهؤلاء الزعماء يجب البحث عن طريق للعيش بسلام مع الشعب العربي ، والتمثيل الديمقراطي للحقوق والحريات التي تعتبر ضمانات جوهرية للعيش بهدوء وتقدم الشعب اليهودي في فلسطين ٠

فقط ، عندما تحل مسألة الهجرة الى البلاد بشكل ديمقراطي ، وعندما يختار الشعب الفلسطيني بنفسه حكومته الخاصة ، عندئذ ، سوف تكون هذه الهجرة متطابقة مع اماني الشعب العربي في فلسطين ٠

يعتبر النضال الجاري في فلسطين درسا كبيرا لاولئك الكادحين اليهود في جميع انحاء العالم ، الذين يحثوا ، باخلاص ، عن حل للمسألة اليهودية القومية في الصهيونية ٠ ان وضع الجماهير اليهودية في الدول الرأسمالية ، وخاصة الفاشية منها، يعتبر مميتا ٠ هذا النضال يجبر كل كادح يهودي في الدول الرأسمالية ان يفكر ـ قبل ان يتوجه الى فلسطين ـ اليس من الافضل وضع يده بأيدي كادحي القوميات الاخرى ، والعمل من اجل اقامة وتقوية الجبهة الشعبية الموحدة ضد الفاشية ، في كل بلد على حدة ٠ هذا النضال ، فقط ، هو الكفيل بسحق الفاشية والعداء للسامية ، حيث في الامكان ليس ، فقط ، تحسين اوضاع الجماهير اليهودية في الوقت الراهن ، بل الاقتراب من التحرر النهائي للشعب اليهودي من جميع اشكال الاضطهاد القومي ٠ ان

Digitized by Birzeit University Library

وضع الجماهير اليهودية في الاتحاد السوفيتي ، حيث تنمو وتتعزز الصداقة الستالينية بين الشعوب ، وبشكل خاص ازدهار منظمة الحكم الذاتي اليهودي في **بيروبيدجان** . يعتبر بالنسبة لهؤلاء اليهود مثالا حيا والحل الوحيد الممكن للمسألة اليهودية القومية .

عن مجلة « الشرق الثائر » ،

العدد الرابع ١٩٣٦ ،

ر . فيتول .

المادية التاريخية والوعي القومي عند العرب

« الجـــذور »

فرحـان صالح

يدلل الكتاب على ان تطور التاريخ العربي الاسلامي المبكر كان الاساس في تحديد الذات العربيـــة .

ويتضمن الكتاب مناقشة نقدية للاتجاهات اللاقومية واللاممية ، في آن .

Digitized by Birzeit University Library

فلسطينية الرواية السُوريّة

نبيل سليمان

ترتبط اغلب واهم التجليات الفلسطينية في الرواية السورية بالحرب : (١٩٤٨ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، الفدائيون) ولهذا السبب ، تغدو دراسة تلك التجليات جزءا من دراسة (الرواية السورية والحرب) ، على الرغم من ان عددا قليلا منها ظهر من خلال جوانب الحياة المختلفة الاخرى التي قدمتها الروايات المعنية .

وقد كان غالي شكري من اوائل من التفت الى الموضوع الفلسطيني في الرواية العربية ، اذ خص هذا الموضوع بفصل في كتابه (كلمات من الجزيرة المهجورة) درس فيه (ستة ايام) لحليم بركات و (رجال في الشمس) لغسان كنفاني (١) .

اما حسام الخطيب ، فقد كان من اوائل من التفت الى هذا الموضوع في القصة والرواية في سورية (٢) منذ هزيمة ١٩٤٨ حتى هزيمة ١٩٦٧ . وقد حدد الخطيب مآزق البحث بوضع الفلسطينيين المقيمين في الاقطار العربية ، والذين تشكلوا في هذه الاقطار ، فهل يعد نتاج هؤلاء من القطر المعني ام لا ؟(٣)

.....

(١) المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا – بيروت ١٩٦٤ .
(٢) مجلة الموقف الادبي ، العدد ١ – ٢ ، السنة الخامسة ، ايار / حزيران ١٩٧٥
(٣) اتبنى الجواب بالنفي على هذا السؤال ، تكريسا للشخصية الفلسطينية .

Digitized by Birzeit University Library

كما لفتت نظر حسام الخطيب ظاهرة عدم تخصيص رواية سورية حتى نهاية ١٩٦٧ للموضوع الفلسطيني ، وكذلك ظاهرة عدم تركيز اية رواية على الموضوع الفلسطيني ، او اي جانب من جوانبه السياسية او الاجتماعية او الانسانية · ويعلل ذلك بصورة عامة بالسببين التاليين :

ـ موقف الكتاب الماركسيين الذين كان لهم موقف خاص من القضية الفلسطينية ·

ـ موقف الكتاب المحدثين المنصرفين الى تقليد الموضوعات الغربية ·

هاتان الظاهرتان اختفتا في المرحلة التالية التي ندرسها (بعد عام ١٩٦٧) · فقد ظهرت روايات موقوفة بكاملها على الموضوع الفلسطيني ، وهي :

١ ـ احلام الرصيف المجروح	تأليف بديع حقي ·
٢ ـ عرس فلسطيني	تأليف اديب نحوي ·
٣ ـ على الدرب	تأليف ابراهيم الشهابي ·

كما ظهرت روايات عديدة اخرى ، عن الحرب خصوصا ، وعن الحياة السورية عموما ، دخل فيها الموضوع الفلسطيني بنسبة او بأخرى ، وهي :

١ ـ الزمن الموحش	تأليف حيدر حيدر ·
٢ ـ شرخ في تاريخ طويل	تأليف هاني الراهب ·
٣ ـ الف ليلة وليلتان	تأليف هاني الراهب ·
٤ ـ الجائع الى الانسان	تأليف ع· آل شلبي ·
٥ ـ بستان الكرز	تأليف قمر كيلاني ·
٦ ـ ازاهير تشرين المدماة	تأليف عبد السلام العجيلي ·
٧ ـ البرتقال المر	تأليف سلمى الحفار الكزبري
٨ ـ بيروت ٧٥	تأليف غادة السمان ·
٩ ـ كوابيس بيروت	تأليف غادة السمان ·
١٠ ـ المرابي	تأليف محمد ابراهيم العلي
١١ ـ الابتر	تأليف ممدوح عدوان ·
١٢ ـ الايام التالية	تأليف نصر الشمالي ·
١٣ ـ طائر الايام العجيبة	تأليف خيري الذهبي ·
١٤ ـ جرماتي	تأليف نبيل سليمان ·

Digitized by Birzeit University Library

ولعل في رأس الاسباب التي خلقت هـذا الموضـوع المناقض لما كان قبل ١٩٦٧ ، هو أن المسألة الفلسطينية قد غدت بصورة ساخنة وملحة مفصـلا اساسيا في المجتمع السوري ، ممـا لم يكن متوفرا من قبل بهذه الدرجة · ولا نميل الى ان الامر كان بسبب موقف فئة ما من الكتاب · ذلك ان تاريخ الماركسية في هذه المنطقة يحتاج الى اعادة قراءة ، خاصة بعد ان توفرت الوثائق التي تؤكد صورة ايجابية مغايرة للصورة السلبيـة عن موقف الماركسيين المنظمين وسواهم من المسألة الفلسطينية سنة ١٩٤٨ ، او مسألة الوحـدة السوريـة المصرية سنة ١٩٥٨ ، فقد كانت خلف الواجهة الرسمية المعلنة مواقف قويـة وجذرية مناقضة فمثل لها بكتابات فرج الله الحلو ، ووثيقـة رشاد عيسى ، وسواها مما هو ليس موضوع اهتمامنا هنا ، الا بالقدر الذي يضيىء ضمـور او نمو الموضوع الفلسطيني في الرواية السورية ، وصلة ذلك بالكتـاب الماركسيين ·

تنحصر الاشارات الروائية السورية لهذا الموضوع ، قبل ١٩٦٧ ، برواية من الاربعينات لشكيب الجابري (قوس قزح) وفيهـا مشهد بعنوان : صهيوني يتكلم ، وبرواية لمطاع صفدي من الستينات : جبل القدر ، ويوجز حسام الخطيب اثر الموضوع الفلسطيني في القصة والرواية بما يلي :

١ ـ وصف حـياة الفلسطينيين قبـل ١٩٤٨ ، ومعانتهم اثناءها ، وخروجهم وحنينهم ·

٢ ـ مهاجمة الحكام الخونة ·

٣ ـ التنديد بالصهاينة ·

٤ ـ الربط بالثورة العربية ·

٥ ـ وصف الجانـب الحربي مـن الصراع (خاصـة وصف المقاتلين السوريين) ·

٦ ـ الشخصية الفلسطينية الشجاعة المقاتلة ·

٧ ـ الميل الى التقريرية السرديـة ، وعدم تطوير نمـط تقني خاص بهذا الموضوع ·

ثم يخلص الى أن النتاج الذي درسه يتسم بالسطحية في استيعاب النكبة والفقر في تمثلها الفني ·

Digitized by Birzeit University Library

ان النقاط الست الاولى مما أوجزه الخطيب ، لا تزال مستمرة وبقـــوة في النتاج المعني عقب ١٩٦٧ ، أما التقريرية والسردية فقد غابتا عـــن روايات حيدر حيدر وهاني الراهب وغادة السمان ، واتخذت لبوسا فنيا جديدا ومتميزا لدى أديب نحوي وبديع حقي ، بينما استمرت على عهدها القديم لدى الآخرين · ولا ريب أن هذا التطور الحاصل خلال فترة وجيزة ، قد جاء نتيجة التعمق فـي استيعاب النكبة والغنى في تمثلها الفني ، لدى رهط كبير من الكتاب ·

لقد مر بنا في فقرات الفصل الخامس المتعلقة بحروب (١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ـ لبنان) عدد من الروايات السورية التي كانت على صلة ما بالموضوع الفلسطيني وخصوصا : العمل الفدائي كشارة المستقبل المضيئة بعد حرب ١٩٦٧ ·

فممدوح عدوان في (الابتر) يكرر الصور المثالية السائدة للفدائـي في أغلب النتاج الادبي الذي اعقب الهزيمة · ونصر الشمالي في (الايام التالية) يفضح الذين كانوا يخططون سلفا لكسر موجة المقاومة القادمـة عبر شخصية (البلاف) · أما خليل نعيمة في (الرجـــل الذي يأكـــل نفســـه) فقد تغنى بالفدائيين ـ الخلاص ، وجعل بطله يعمل دهانا كصديقـــه الفلسيطني ، أثـــر الخروج من مستشفى المجانين · ان الفلسطيني في هذه الرواية دهان ، كادح ، وهو بارقة الامل الوحيدة بعد ما وصل بطل الرواية البورجوازي الصغير المشبع بهزيمة ١٩٦٧ الى حافة الانهيار ، ولكن هذا البارقة لا تلبث ان تغيب عن ساحة البصر أيضا · أثر الحريق المدمر الذي يأتي على البطل وابيه ، وعلى الجميع·

وقد برزت رواية هاني الراهب (ألف ليلة وليلتان) (١) بين روايات حرب ١٩٦٧ في هذه الناحية ، حيث كان في عداد شخصياته الاساسية تلك الاســـرة الفلسطينيـــة الفقيرة الضعيفـــة ، أسرة أم خلـــف التي حلت في دمشق بعد نزوح ١٩٤٨ ، مخلفة شهيدها أبا خلف ، ووارثة الذكريات الحارقة التي تومض خاصة في رأس أم خلف كل حين : الارض والزيتون ويورام الصهيوني والقتـل والنزوح ·

---

(١) ـ فيما يتعلق برواية هاني الراهب (شرخ في تاريخ طويل) ، وصلتهـــا الحميمـة بالموضوع الفلسطيني ، راجع كتابنا المشترك مع بو علي ياسين : الادب والايديولوجيا في سوريا ودار ابن خلدون ، بيروت ١٩٧٤ ص ١٣٩ ـ ١٤٥ ، حيث قدمنا دراسة اضافية لشخصيتي لبني ومجد في تمردهما وبورجوازيتهما وموقفهما كفلسطينيين · وقد صدرت (الف ليلة وليلتان) ، عن اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٧٧ ·

Digitized by Birzeit University Library

ان أم خلف من اكثر شخصيات (ألف ليلة وليلتان) امتلاء واقناعا . والكاتب يحرص على تقديمها في المفاصل الاساسية لروايته : مقدمات حرب ١٩٦٧ ، غارات الصهاينة على قرية اردنية ، اليوم الاول للحرب ، الايام التالية ، أخبار الفدائيين ... ففي هذه المفاصل ترتسم الحقيقة الانسانية الفذة، لام خلف ، بدموعها مرة ، وابتساماتها مرة .

ان الشخصية الفلسطينية ، والموضوع الفلسطيني ، لم يأتيا فضلة في هذه الرواية بل جاءا عصبا اساسيا فيها . فمحمود ، ابن ام خلف ، صنو امام ، وهما كما مر بنا ، الرمزان الاساسيان للبديل الثوري الذي يقدمه هاني الراهب من الطبقة العاملة ، فمحمود عامل مطبعة ، وهو ايضا مثقف ، فالطبقة العاملة لا تظهر في هذه الرواية دون وعيها ، الا في حالة عامل المطبعة الاخر : ابو نصوح . ويبدو محمود من المثقفين الثوريين اكثر من امام بكثير ، كما ان له شطحاته ، ويبدو متحمسا لحرب ١٩٦٧ ، عكس امام ، وهو بعد الهزيمة يلتحق مع علي وامام بدورة للعمل الفدائي ويقتل في البيان التدريبي النهائي لها . ولنستمع اليه يشخص الوضع السوري قبيل ١٩٦٧ : « عجيب امر هذا البلد الانسان فيه غير قادر على الفعل ، ولا حتى على التحريض ، كل شيء فيها يبدو مهجنا ومدجنا ، الناس يعرفون كل شيء ويفهمون كل شيء ، ولكنهم لا يملكون شيئا سوى ارواحهم القلقة » (ص ١٤٧) .

ان الطارىء الفلسطيني الرئيسي عقب ١٩٦٧ في الرواية السورية المتعلقة بحرب تلك السنة ، هو كما يبدو من الروايات السابقة ، ومن اغلب الروايات المعنية الاخرى : العمل الفدائي كأسلوب ، والفدائي كشخصية . وقد كان هذا الطارىء يشكل ينا كل الوجود الفلسطيني المتواضع في الرواية (الابتر) ، (الايام التالية) او يتزاوج حينا اخر مع الوجود الاجتماعي والسياسي اليومي المتواضع ايضا . (الرجل الذي يأكل نفسه) ولا يستثنى من ذلك سوى رواية هاني الراهب . ولقد رأينا الفلسطيني في رواية حليم بركات ونجيب محفوظ ، من الروايات العربية حول حرب ١٩٦٧ ، منسجما مع هذا التشخيص .

وهذا التجلي للطارىء الفلسطيني ، يستمر في الروايات الاخرى التي تعنينا هنا ، مع بروز احتمالين جديدين :

اولهما : الاكتفاء بالوجود الاجتماعي والسياسي اليومي ، دون العمل الفدائي ، والاحتمال الثاني : الاكتفاء بالعمل الفدائي ، ولكن على ان يصبح محورا رئيسيا للرواية ، او من محاورها الرئيسية .

Digitized by Birzeit University Library

ففي روايات حرب تشرين ١٩٧٣ نرى عبد السلام العجيلي في روايته (ازاهير تشرين المدماة) يتابع اهتمامه القديم بالموضوع الفلسطيني في قصصه القصيرة ، وهو الذي شارك في جيش الانقاذ اثناء حرب ١٩٤٨ (١) .

هي ذي المرضة ياسمين ، احدى شخصيات الرواية الاكثر تميزا ، فلسطينية من الطيرة ، نزحت سنة ١٩٤٨ الى طولكرم ، وسنة ١٩٦٧ الى دمشق . انها مطلقة الشهيد محمود ، الفلسطيني ايضا ، وهي تحاور الملازم سامي الذي كان يرافق محمود ، حول الموقف الاقليمي التخاذلي المتمثل بفصل نضال الشعب الفلسطيني عن النضال العربي ، وتحميل الفلسطينيين منة التضحية من اجلهم :

« اذن ، فليس لكم علينا جميل ، نحن ابناء فلسطين ، اذا حاربتم هؤلاء الاسرائيليين . انتم تدافعون عن ارضكم وعن انفسكم ، لا عنا .

قلت : ما من احد يحارب عن احد . نحن شعب واحد . من يحارب منا يحارب من اجل شعبه » (ص ٣١) .

لقد كانت حرب ١٩٦٧ سبب طلاق ياسمين ومحمود ، حيث (تعقد) الرجل من العسكر وهزائمهم ، بينما كانت تتهمه بالتشاؤم والجبن . وبعد طلاقها هاجر الى الخليج ، ثم عاد الى سوريا فتطوع في الجيش يائسا ، يريد ان يثبت لها عكس ما كانت تتهمه به .

وفي المستشفى ، نرى ياسمين تميل رويدا رويدا الى المساعد نعمان ، الشخصية الروائية المتميزة الاخرى في (ازاهير تشرين المدماة) . ومع نهاية الرواية يكون حبهما قد تكلل بالزواج . ان هذه النهاية (زواج ضابط صف سوري من الفلسطينية) وما اشرنا اليه من النضج الفني لشخصيتي ياسمين ونعمان ، يجعلنا نرى في رواية العجيلي تجليا جديدا للحالة البلزاكية الشهيرة: ان يقدم العمل موضوعيا ما لا ينسجم جزئيا او كليا مع موقف صاحبه ، فقد

.....

(١) ـ انظر دراستنا لقصة نبوءات الشيخ سلمان من مجموعته (فارس مدينة القنطرة) ، وذلك في المصدر السابق (٢٤ ـ ٢٧) . ورواية (ازاهير ...) صدرت عن وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٧ .

Digitized by Birzeit University Library

رأينا في سياق هذا الفصل ، موقف العجيلي المغاير المؤدى غنى ونضج وتميز شخصيتي ياسمين ونعمان ، وزواجهما ، من خلال تغييب الافراد ، والتركيز على كبار الضباط ، والتشنيع على السلاح ، ودلالة الاختيار الفني ، وتراجع مجمل البناء الروائي عن الخطوات الهامة التي سجلها تاريخ العجيلي .

اما سلمى الحفار الكزبري ، فقد رسمت ايضا صورة الزواج الفلسطيني السوري المستقبلية ، ولكنها ظهرت اكثر اخلاصا للموقف البرجوازي من عبد السلام العجيلي ، واكثر انسجاما مع مقدمات روايتها . فبطل رواية (البرتقال المر) (١) الدكتور عصام ، يحلم اثناء حرب تشرين بأبنة عمته الفلسطينية التي خلفها تكمل دراستها في الولايات المتحدة الامريكية ، وهو يكتب في مذكراته : « ترى ماذا تفعل ابنة عمتي (منى) في هذه الساعة ؟ ان صورتها لا تفارق مخيلتي في هذه الايام . ترى هل تفكر مثلي بأننا وضعنا في حربنا هذه الحجر الاساسي لمخطط عربي صحيح ، لا اثر للارتجال والنفاق فيه ، وانه بحجم طموحنا ، وحجم المستقبل الذي نريده لاولادنا ؟ » (ص ١٥٢) . ويخاطب منى مؤكدا انتظاره واصحابه لها ، لتنفيذ مخطط جديد وعمل منظم من اجل العودة الى فلسطين . اما منى ، فهي تحمد الله كأمها ، على صلة القرابة بعصام ، اي السوريين ، بينما كانت ياسمين في رواية العجيلي تتجاهل الملازم سامي حول (من يحارب عن من) كما رأينا .

لقد تزوجت عمة عصام وجيها فلسطينيا ، صاحب مزرعة سنة ١٩٤٥ ، وولدت بكرها غازي سنة ١٩٤٦ ، ثم نزحت الاسرة الى دمشق سنة ١٩٤٨ . وصارت الزوجة تطرز وتحيك الصوف ، بينما عمل الزوج خبيرا زراعيا ومشرفا على عدة مزارع . ودرس غازي مهندسا في بريطانيا ، اما منى فهي تكمل دراستها في الولايات المتحدة ، وقد رضعت مع شقيق عصام ، مما حرمها عليه. وها هنا اضافت الكاتبة فارقا اخر لصورة الزواج الفلسطيني السوري ، تميزه عما رسم العجيلي . ففضلا عن الهوية البورجوازية ، نرى التحريم والاستحالة لدى الكزبري ، مقابل هوية مناقضة ، وامكانية ايجابية تتوج الصورة التي قدمها العجيلي .

.....

(١) دار النهار ، بيروت ١٩٧٤ .

Digitized by Birzeit University Library

يرى عصام ان القضية الفلسطينية سبب كل ما في الاقطار العربيـــة من اضطراب وتخلف · وهو متفائل ، على العكس من منى التي تنتقد احتلال اليهود لامريكا ، وتخشى ان تكون القضية قد قتلت بالكلام والغناء · وقد استمـــدت الكاتبة عنوان روايتها من حادثة تحريم منى عصير البرتقال ، بعد ان قـــرأت على برتقـــال في روما : يافـــا ـ اسرائيل · قالت : « تذكرت سنوات طفولتي واحاديث ابي عن بيارات البرتقال التي انشأها ، ورباها بيديه وقلبه ، ثم تركها مع ما ترك للغاصبين المحتلين ، كنت احب البرتقال حبا جما لانه يمثل شجـرة فلسطين الرائعة الخضراء التي لا تنفك تغدق على الناس زهرا وعطرا ومـــاء زهر وفاكهة ذهبية مواسمها سخية على مدى السنة · ما زلت احبه يا عصام ، ولكن مجرد التفكير بأن حبة البرتقال التي وقعت في يدي ، ليلة اكتشفت مصدرها في روما ، هي من بستان ابي ، او من حقـل جارنـــا ، او حقـل اي مواطن فلسطيني ، وان الذين يبيعونه للعرب يشترون بثمنه سلاحا للقتل بنـا ، بنادق وقنابل وطائرات ، لتشريد المزيد منا ، ان مجرد التفكير بهذه الحقيقة المروعـة يدفعني الى الامتنـــاع عن تذوقه بعد ذلك اليوم · لقد اضحى البرتقال عنـــدي يا عصام ، كل البرتقال ، مر المذاق ، فحرام علي اكله الى ان اعود الى ارض الوطن واموت » (١٠٩/١١٠) ·

ان الهوية البورجوازية (الاصيلة) لابطال رواية البرتقال المر ، والموقف البورجوازي (الاصيـــل) للكاتبـــة ، لن يستكملا مقوماتهما الضرورية الا حين نعود الى الرواية مجددا في الفصل الثامن ، وحسبنا هنا اننا رأينا هذا الجانب من (فلسطينية الرواية السورية) المتميز طبقيا ، لا فنيا ·

ان قمر كيلاني وغادة السمان ترسمان موقفين متناقضين في روايتهما عن الحرب اللبنانية · ففي بستان الكرز تجعل الكاتبة علاقة البطلة سونيا ، مـع الفدائي سامي ، منطلق الرواية ، ومحورها الرئيسي ، وعبر هذه العـــلاقة ، تلتحق سونيا بالمقاومة ، وتشارك في الحرب حتى يكون تتويج هذه المشاركـة باغراض سونيا على المقاومة ، وتضخيم الاخطاء ، وتحويلها الى ذريعة تبـرر النكوص عن موقفها وعن علاقتها بسامي · وهكذا تهرب من معقـل المقاومـة الجبلي الى بيت الاسرة · وامعانا في الاغراض ، فان هربها يكون من مقـاوم معتقل جريح ، يبدو في الرواية ضحية اخرى مثل سونيا ، وكذلك فان سونيـا تقتل برصاصة خاطئة من المقاومة ، وهذا الانعطاف (١٨٠) درجة لا يأتي مقنعا فنيا ، فكأنما استدارت فيه الرواية فجأة على عقبيها تلبية لتأثير خارجي عنها ، وليس نابعا من داخلها ونتيجة لمعطياتها الذاتية · وعلى النقيض من ذلك تبـدو

Digitized by Birzeit University Library

غادة السمان منحازة الى المقاومة الفلسطينية ، والفقراء اللبنانيين ، والحركة الوطنية اللبنانية ، دون ان يعني ذلك انها مغمضة العينين عن الاخطاء ، الا ان رؤية الاخطاء وتصحيحها شيء ، وتوظيفها شيء اخر · وتتزاوج رؤية غادة السمان وموقفها التاريخيان الجذريان مع صورة فنية طموحة ومتقدمة ، فيما طغت التقليدية على رواية (بستان الكرز) كما رأينا في التحليل الفني السابق لروايات الكاتبتين ·

★★★

تلك هي الروايات التي اتصلت بالمسألة الفلسطينية من خلال اتصالها بالحرب ، اما الروايات الاخرى التي جاء فيها هذا الاتصال من خلال ما قدمت من جوانب المجتمع السوري فهي (الزمن الموحش) لحيدر حيدر ، والجائع الى الانسان لـ ع· آل شلبي ، والمرابي لمحمد ابراهيم العلي ، وطائر الايام العجيبة لخيري الذهبي ، ويمكن ان نضيف مبالغة في الدقة ، رواية الرأس والجدار لعبد الله عبد التي ظهر فيها كشخصية ثانوية فلسطيني عامل ، ورواية حسن جبل لفارس زرزور التي لقي فيها بطلها – وهو بطل رواية (لن تسقط المدينة) ايضا – محمد قاديش مصرعه في فلسطين ، بعد ان فر اليها من السجن ، وكذلك رواية (ثوار من بلدي) لصلاح مزهر التي ينتقل احد ابطالها بعد فشل الثورة السورية الكبرى الى فلسطين ويشارك في ثورة ١٩٣٦ ·

لقد ظهر الفلسطيني في رواية حيدر حيدر كأغلب شخصياتها بورجوازيا صغيرا مصابا بالعطب الداخلي · فمسرور ، حزبي متنقل من بلد الى بلد (١) ، متزوج من ديانا المصابة بالتشتت الجنسي · ويتزوج عطب الزوجين بقتل مسرور لديانا قبيل التحاقه بالنضال السري ، كما طلب اليه الحزب · ويتم القتل في حفل لحمي شهده بطل الرواية – راويها وراني ، وتنقل فـ مسرور من امرأة الى اخرى في رقص احتفالي تتوج بالقتل ·

كان مسرور شديد التعلق بديانا · ولعلها كانت بديل . اته في رحلته الشائكة من صفد الى بغداد الى دمشق · وقد نمت اثناء تر . راوي الرواية

.....

(١) سياق الرواية يؤكد ان المقصود بحزبية مسرور : حزب البع ث السوري الاشتراكي · والرواية صدرت عن دار العودة ، بيروت ١٩٧٣ ·

Digitized by Birzeit University Library

على بيت مسرور ، نمت بينه وبين ديانا علاقة عاطفية وجنسية · وظهرت ديانا خلال ذلك لا تحلم الا بالاستقرار · ولا تريد لمسرور ان يدفع ثمن النضال وحده· ولذلك فهي ضد ذهابه الى العمل الفدائي كما طلب الحزب منه · وصله مسرور بالحزب لا تبدو صلة صحية · فالرواية تكاد توحي بأن الانكسار الخفي الذي يطويه صدر مسرور ، هو سبب انتمائه الى الحزب · وحين يلتقي مع الراوي في سهرة القتل الطقوسيه لا يبدو حاسما امره بصدد العمل الفدائي ·

ان القتل الاحتفالي الذي انتهت به علاقة مسرور وديانا ليس غير بداية الدمار المتتالي الذي صوره الكاتب كمصير لشخصياته البورجوازية المعطوبه · على ان في (الزمن الموحش) ما يغارب في الاهميه ، وهو تلك الادوال التي اقتطفها لمناحيم بيغن ، ونشرها في الروايه ، كايقاع خاص جديد ، ينضاف الى ايقاعاتها الملحمية العديدة (ص ١٥٤ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ··) وهذه المقتطفات تقوي النغمة التنبوّية التي ينطوي عليها كل عمل فني عظيم · واخيرا ، فمما يتصل بالمسأله الفلسطينيه هي هذه الرواية ، ذاك الذي جاء فيها عن حرب ١٩٤٨ مع والد وائل الاسدي ، ومع الرجل الفلسطيني المسن الذي يلتقيه الراوي في بيت مسرور ·

ان المسألة الفلسطينية تندغم في هذه الرواية بصلب حياة ابطالها وهمومهم وعلاقاتهم وازماتهم ومستقبلهم · وكما كانت هذه الرواية مرثية ناقدة ومتفجعه للبورجوازية الصغيرة السورية ، كانت ايضا للبورجوازية الفلسطينية المماثلة ·

وفي رواية خيري الذهبي نرى التحالف الطلابي النضالي بين السوريين والفلسطينيين والفقراء في الجامعة الاميركية ، والتحاق شطر من قيادات هذا النضال بالعمل الفدائي ، بينما انحرف شطر اخر متابعا الطريق اليميني للبورجوازية الصغيرة ·

اما في رواية ع· آل شلبي (لجائع الى الانسان) فينقلنا الكاتب الى احد مخيمات اللاجئين قرب بيروت ، حيث يلتقي البطل ـ الراوي الفتاة السمراء التي حارب والدها في ايلول ١٩٧٠ في الاردن ، وكسر ظهره بشظية قنبلة · ويصور الكاتب حياة اللاجئين الشقية ، ويتوقف خاصة عند الارملة التي قتل زوجها الفدائي في ايلول ١٩٧٠ · ان زيارة البطل للمخيم جعلته يهتف « اشعر كأن هذا المساء ولادة ·· مثقل بوعود ·· وعود غامضة » (ص ١٩٥) · وهكذا يتابع ع· آل شلبي الانحياز الحاد الى المقاومة الفلسطينية الذي تجلى لدى هاني

Digitized by Birzeit University Library

الراهب او ممدوح عدوان او نصر الشمالي او غادة السمان ٠٠ ويعرج وحده من بين الروائيين السوريين على حرب ايلول ١٩٧٠ في الاردن ، ويرسم بشارة المستقبل انطلاقا من اللقاء مع الفقير الفلسطيني ، اللاجيء ، المقاوم ٠

وتنقلنا رواية محمد ابراهيم العلي (المرابي) (١) ، في احد مراحلها الاساسية من حماه وريفها وصور الاستغلال والفلاحين الفقراء والاقطاعيين والمرابين والسلطة الفرنسية ٠٠٠ الى باريس حيث قام البطل (التاجر الحاج) مع صبحي بك برحلة لقضاء رأس السنة ، وهناك التقيا بوساطة منظم الرحلة (الياس) مع غولدا ، ابنة سايكس ووكيلة اعماله ، وحبيبة بيكو التي لم يعجبها احد في اوروبا ، وتعلمت العربية في الرباط ، وراحت تمتص ، ومعها رابينا صديقتها ، جيوب الحاج وصبحي بك ٠ وفيما يتابع صبحي بك ورابينا وغلادس الرحلة الى السويد ، ترافق غولدا الحاج والياس في زيارة لمطاحن الحبوب ومزارع تربية الابقار والدواجن والخنازير ٠

وفي شطر اخر من الرواية ، تقوم غولدا وسايكس ورابينا برد الزيارة ، فيحضرون الى دمشق وحماه وحلب ، حيث يتم اللقاء بين غولدا والمستشار الفرنسي الصهيوني المتستر ، ويحرص الكاتب على تأكيد التخطيط الصهيوني للتغلغل وجمع الاموال اثناء الانتداب الفرنسي على البلاد ، وكذلك التخطيط لشراء الاراضي الفلسطينية وبيارات البرتقال ، حيث تتابع غولدا ورابينا وسايكس الرحلة من حماه الى فلسطين ومنها الى الاسكندرية ، ومكدوني باشا الذي يشابه صبحي بك والحاج ٠٠

ان هذه الرواية تشدد على ربط الاقطاع والانتداب الفرنسي بالعمل الصهيوني المبكر للسيطرة على فلسطين وخيرات المنطقة ، ولكن الكاتب يبالغ في تبسيط ذلك وتسييطحه ، خاصة عبر تلك السلسلة من اسماءشخصياته الاساسية : سايكس ، بيكو ، غولدا ٠٠ وكذلك عبر المقاطع التقريرية السردية العادية الطويلة ، والتي اجهضت القدرات الفنية للشخصيات والرواية الى درجة كبيرة ٠

وننتقل الآن الى الروايات التي اوقفت بكاملها على الموضوع الفلسطيني ، ولم تكتف باشارات جزئية ، كما في سائر الروايات السابقة ٠

.....

(١) الجزء الاول ، منشورات فلسطين الثورة ، بيروت ١٩٧٧ ٠

Digitized by Birzeit University Library

لقد اتكأت رواية (على الدرب) (١) لابراهيم يحيى الشهابي على الموضوع الفلسطيني ، ولكن هذا الاتكاء لم ينقذ الرواية من الهزال الفني الذي استبد بها . فالرواية لا تقدر بموضوعها وحده . وكما قال تروتسكي ، فالتقنية تلاحظ بأجلى صورة لدى من لا يمتلكها .

تعج هذه الرواية بالمحاضرات في الدين والقومية وتاريخ النضال الفلسطيني (انظر ص ١٤٨ ـ ١٥٤ وكذلك اخر الرواية) ، وتحكم الكاتب الرغبة القوية في قول كل شيء والاستسلام للاستطراد او الاسترسال الانشائي مهما كان خروجه على السياق الروائي ، وهكذا ، فبالمقدار الذي يعلن فيه الكاتب عن طموحات فنية في مقدمة الرواية ، بمقدار ما تأتي الرواية مناقضة ذلك .

يقول الشهابي : « لقد خرجت على روتين الرواية ، ولكني بقيت في حدودها . اعطيت صورا لو اخذت كل بمفردها لكانت رواية ، وان جمعت معا كانت كلها رواية . وحاولت ان اعطيها صورة الواقعية التسجيلية ، ولكنها تحمل من الرموز والابعاد ما يجعلها تجديدية » (ص ٦) .

لا ريب في انه من حق المبدع ان يخرج على الحدود التي باتت متعارفة للاجناس او الانواع الادبية ، بل ان هذه الاجناس والانواع تتوالد وتتجدد بفعل التراكمات الابداعية التي ينجزها المبدعون ، ولكن ذلك شيء ، وتشويه الجنس الادبي (الرواية في حالتنا) والعودة به الى مراحل تجاوزها تاريخه منذ الخطوات الاولى ، ذلك شيء اخر .

لنقرأ هذه السطور القليلة المأخوذة من الفصل الاول والتي تعطي صورة مبكرة وكافية لاسلوب الكاتب : « فأمطرت السماء لهبا وهاجا ، وتفجرت الارض نارا حامية ، وصم الاذان ازيز الرصاص ودوي القنابل ، فأدرك الناس ان هجوما يهوديا قد وقع ، فما دب الرعب بقلب امرأة ، ولا ارتعش قلب طفل ، ايمانهم بالله وبشجاعتهم كعرب وبنذالة الاعداء وبجبنهم ، ولثقتهم بالنصر على عدوهم ثقة مستمدة من تاريخهم معه حتى تلك السويعات ... » (ص ٩) .

.....

(١) مكتبة اطلس ، دمشق ١٩٧٣ .

Digitized by Birzeit University Library

انه يصف الهجوم اليهودي على القرية ، فينطلق بتلك الخطابية التي كانت رائجة قبل هزيمة ١٩٦٧ خاصة · وليت الامر يقف عند خطابية الجمل او الالفاظ ، ان (خطابية) الفكر ايضا يعكسها هذا المقتطف الذي يتدعم بالكثير مما يشبهه او يبذه ·

وفي صدد البناء الروائي نجد الكاتب يزواج بين طريقتي الشاهد والتاريخ للبطل ، فهو يبتدىء بوصف معركة القرية ثم يعقبها بهذا الاعلان : « وفيما سيأتي عرض لبعض المشاهد في ميدان المعركة على الجبهات الاخرى · وليس القلم في الواقع بقادر على تصوير حقيقة ما كان يدور في ساح الوغى تصويرا كاملا ، فليعمل القارىء خياله محاولا اتمام الصورة ، عساه يحيط بعالم وافر ، من تلك المشاهد الرهيبة بلمساته الذهنية » (ص ١٦) · ومن ابرز المشاهد التي يصفها بالاسلوب الذي رأينا ، ما يتعلق بجيش الانقاذ ، حيث ينتقل الى قصة بطله خالد ، فيلاحقه منذ طفولته ، وفي دراسته ، ثم في عمله معلما وفي هجرته الى الكويت ··· ومن خلال التاريخ الشخصي للبطل ، يعرج الى هذا الحد او ذاك على التاريخ السياسي الحافل للخمسينات والستينات ، ويدير حوارات مطولة حول الحزب القومي السوري ، وحول الاخوان المسلمين ، وقيام الوحدة ، والانفصال ··· وقد عمد الكاتب الى حيلة ساذجة في الكتابة (الواقعية التسجيلية) كما سمى في المقدمة ، اذ انه ترك فراغا منقطا للدلالة على اسماء الاحزاب والقوى والشخصيات التي تحدث عنها ، وكأن اصطناع بعض الاسماء البديلة لشخصياته الواقعية ، او تسمية الاحزاب والقوى بمسمياتها ·· كأن ذلك خروج على ما توخاه من واقعية او تسجيلية ، او منجاة له من الاحراجات التي قد يتسبب بها ان للرواية ظلا واقعيا حرفيا معروفا ·

على النقيض من صنيع ابراهيم الشهابي تأتي روايتا اديب نحوي (عرس فلسطيني) (١) وبديع حقي (احلامي الرصيف المجروح) (٢)·

اما رواية اديب نحوي فقد جاءت محاولة فريدة في كتابة (الملحمة الفلسطينية) ، لا نكاد نقع على شبيه لها مي (ملحميتها) سوى رواية اميل حبيبي (الوقائع الغريبة) (٣) · وبالطبع ، فالمعنى بالملحمية هنا ليس ذلك

.....

(١) دار العودة ، بيروت ١٩٧٠ .
(٢) دار الآداب ، بيروت ·
(٣) دار ابن خلدون ، بيروت ١٩٧٤ .

Digitized by Birzeit University Library

الطابع الاغريقي والحد الارسطي للملحمة ، فعصر الملاحم الارسطية قد ولى حقا ، ولكن ذلك لا يعني اختفاء الاسطورة من حياة الشعوب في المرحلة التاريخية الراهنة · ان عنصر البطولة الفردية التي محورت الملاحم القديمة عامة ، وعنصر البطولة الجماعية الشعبية ، لا يزالان قويين ، وكذلك : الطبيعة ، وان كانت مواقع كل عنصر قد تبدلت عما كان لها في الملاحم القديمة ، وهذه العناصر ، ايا كان توافرها في النص ، لا تقوي من الطابع الملحمي له اذا لم يجسدها اسلوب خاص يتوفر فيه الحد المناسب من الغنائية ، او الحكاية الشعبية ، والا ، فانها تستحيل الى ديكور اثري (الاسطورة) ، او اجواء مؤثرة (الطبيعة) ، او مغازلة غريزية للجمهور (البطولة) · ولقد نجا اديب نحوي بروايته من هذه المزالق جميعا ، متابعا نهجه الخاص في التسجيل شبه الوثائقي للحياة الحلبية ـ مدينة حلب ـ (٤) ·

استخدم اديب نحوي اسلوب الراوي المحيط بكل شيء ، فهو الذي يقص قصة العرس ، الذي استدعى تواجد جمهور كبير ومتنوع ، وبمعنى اخر : وفر الاحتفال الجماعي المناسب للبناء الملحمي بما فيه من الغناء المتأوه في الحزن والفرح جميعا ، وبما فيه من جثوم الخطر المسك بالانفاس ·

والراوي ، عبر الاسترجاعات ، يقص قصة السيل الذي غمر الخيام ، وفي مواجهته ماتت ام العروس وهي تنقذ ابنتها ، وبمعنى اخر : وفر عنصر الطبيعة ، والصراع ضدها ، الموصول لدى (الجماعة) بالسؤال عن السماء والرب : اهو غضبان لان الجماعة نزحت عن الارض ؟ اهو راض لان ابا فاطمة استشهد على باب الضيعة ؟ هكذا نسير خطوة ابعد نحو الملحمة : الجماعة ، الطبيعة ، الصراع ، المأساوية ، القدر ·

ومما يكمل ذلك اندماج حبكة الرواية بالاسطورة · فالعريس الفدائي (فهد) يذهب الى قبر والد فاطمة ، خلف الحدود ، كي يستأذنه الزواج من

(٤) يثمن بدر الدين عرودكي تجربة اديب نحوي ، ولكنه يظلم تجربة حسيب كيالي حين يقول بوحدانية تجربة نحوي · وقد عد (عرس فلسطيني) تبشيرا بميلاد قصة ذات شكل متميز ، تحمل خصائص البيئة المحلية الشعبية العربية شكلا ومضمونا ، ووقف مطولا عند اشكالية اللهجة الشعبية وقدرتها على الايصال في النطاق العربي· انظر المعرفة ، العدد ١٠٨ ، شباط ١٩٧١ ·

Digitized by Birzeit University Library

ابنته · وفاطمة تذهب الى قبر امها للغاية نفسها · انها العادة الشعبية القديمة: استئذان الموتى · وقريب من ذلك المدورات التي ادارها الراوي بين فهد وابي فاطمة ، ثم بين فاطمة وجثة فهد الخارجة من النعش ·

ان استشهاد فهد قبيل عرسه ، وعودته على اكتاف رفاقه فيما العرس قائم ، قد غلب في نهاية الرواية العنصر المأساوي ، واصل فيها الطابع الملحمي، وتداخلت الحدود في شخصية العريس الفدائي اهو بطل اسطوري ؟ اهو من لحم ودم ؟ انه واقع وممكن ، كما هو حلم ومحال · وهكذا يكون الكاتب قد جمع العديد من العناصر الملحمية التي تخرج بعمله من نطاق حجمه الصغير ، لتجعله معادلا عصريا لذلك الحجم الكبير الذي كانت تظهر فيه الملاحم القديمة · اجل ، لقد تضافرت في (عرس فلسطيني) عناصر (الموت ، الخطر ، الغناء ، السيل ، الراوي ، البطل ، الجمهور الشعبي ، لغة الحكاية ، التخيل ···) لتجعل منها عملا متميزا ، وتجربة فذة ، تكاد ان تكون نسيج وحدها (١) ·

في النهاية ، نأتي الى الرواية الثالثة والاخيرة وهي (احلام الرصيف المجروح) لبديع حقي · لقد سبق لهذا الكاتب ان اهتم بالموضوع الفلسطيني كثيرا ، وقدم مجموعته القصصية القصيرة (التراب الحزين) منذ مطلع الستينات (٢) ·

ان بطل رواية حقي ، فلاح فلسطيني في الاصل ، نزح سنة ١٩٤٨ وسكن المخيم ، ثم حارة قولي ، معتمدا على مساعدة وكالة الاغاثة ثم العمل بمسح الاحذية · وفي اثناء ذلك توفيت زوجته بالولادة تاركة له ولدين وبنتا ·

كيف تحول الفلاح الفقير في المدينة الى البروليتاريا الرثة ؟ « ماذا تفعل حين يجوع اطفالك ؟ انك ترضى بأي حرفة تعرض لك لتكسب لقمة العيش · كذلك تعلمت مسح الاحذية · كانت يداي في البدء ترتبكان امام الحذاء الوسخ ، فقد تعودنا الحرث والزرع والحصاد · كانتا تميلان الى الحركات المألوفة فوق

.....

(١) يرى غالي شكري ان هذه الرواية قريبة من التراجيديا ، تزاوج الشعر والاسطورة بحرارة ، بعيدة عن الافتعال العاطفي ، ·· انظر كتابه العنقاء المعاصرة ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٥ .

(٢) وزارة التربية ، دمشق ، ١٩٦٧ .

Digitized by Birzeit University Library

لعلنا لاحظنا من خلال دراسة هذا النتـــاج الروائي السوري المتصـــل بالموضوع الفلسطيني ، انه صور التدرجات الطبقية الفلسطينية المختلفة ، فثمة البورجوازية (رواية البرتقال المر) ، والبورجوازية الصغيرة (رواية الزمـن الموحش) والطبقة العاملة التي ظهـــرت قوية في رواية بديع حقي وهـــاني الراهب ، وثانوية في اشارات روايتي خليل النعيمي وعبد الله العبد ، وهـــذا الظهور يتوازى في مجمله مع ظهور الطبقة العاملة السورية في النتاج الروائي، كما سنفصل في الفصل الاخير ٠

على ان التجلي الفلسطيني الاكبر في الرواية السورية هو : الفـدائي ٠ وها هنا نرى الانحياز الكامل ، سوى الاستثناء الضعيف في رواية (بستـان الكرز) ٠ وقد توزعت في هذا النتاج الروائي اشتات من صور ما قبل قيـام دولة اسرائيل ، وسنة النزوح الاول ١٩٤٨ ، وهزيمـــة ١٩٦٧ ، والمقاومـــة الفلسطينية ٠ وصدر جل هذا النتاج من مواقع ايجابية (حتى في رواية عبـد السلام العجيلي كما رأينا) ، وان كانت بعض بصمات البورجوازية الصغيرة قد تخللته ٠ اما المستوى الفني الذي ظهر فيه هذا النتاج ، فقد سجل تفوقـــا كبيرا في روايات اديب نحوي ، وحيدر حيدر ، وغادة السمان ، وبديع حقي ، وهاني الراهب ٠ كما ان رواية العجيلي ـ فقط فيما يخص ياسمين ونعمان ـ سجلت تفوقا ملحوظا ٠ اما الروايات الاخرى فقد تابعت ما لاحظه حسام الخطيب حول روايات ما قبل ١٩٦٧ من سردية وتقريرية تنمان عن محدودية في التعمق والتمثل الفني للموضوع الفلسطيني ٠

آفـاق

مجلة اتحاد كتاب المغـرب

تنشر الانتاج الفكري والادبي الذي يشكل الطليعة الثقافية الفاعلة بالمغرب ٠

يساهم في تحريرها اعضاء اتحاد كتاب المغرب

عنوان المجلة : **زنقة سوسه ـ الرباط ٥ المغـرب**

Digitized by Birzeit University Library

القصاص اليمني الأول
محمد عبد الولي

علي حسين خلف

صدرت عن دار العودة بالتعاون مع دار الكلمة في صنعاء « الاعمـــال الكاملة » للاديب اليمني الراحل **محمد عبد الولي** · وشملت الاعمـــال الكاملـة الطبعة الثانيـة من المجموعتين القصصيتين « **الارض يا سلمى** » و « **شيء اسمه الحنين** » ورواية « **يموتـون غربـاء** » ، والطبعة الاولى من رواية « **صنعاء مدينة مفتوحة** » ، والمجموعة القصيـة « **عمنا صـالح** » ·

وخلال حياة الاديب الشهيد كان اصدر مجموعتين قصصيتين هما «الارض يا سلمى» عن دار الاداب عام ١٩٦٦ ، و « شيء اسمه الحنين » عن الدار الحديثة للطبـــاعة والنشر ـ تعز عام ١٩٧٢ · اما رواية « يموتون غرباء » فقد نشرها على حلقات في جريدة **الشرارة** المسائية ، التي تصدر في عدن · وظهرت في كتاب مطبوع بعد موته ·

ومثلما تولى **اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين** طبع الرواية ، فانه واصل التنقيب عن بقية اعمال **محمد عبد الولي** ، وهي التي صدرت ، مؤخرا ، برواية « صنعاء مدينـــة مفتوحة » ومجموعة « عمنا صالح » القصصية ·

محمد عبد الولي اديب مميز ومبـــدع ، ومن القلة القليلة التي واصلت الكتابـة الابداعية والنشر · وكانت الكتابة الوجه الاخر لحياته ومعاناته ، والصورة الاكثر تكثيفا عن « اشكالات » هذه الرحلة الغنية ·

● **فهو** من مواليد عام ١٩٤٠ ، من قرية في منطقة الحجرية ـ لواء تعز ، ومن اب يمني وام اثيوبية · ونظرا لاضطرار والده الى الهرب من قمع الامامة ، عاش حتى الرابعة عشرة في اديس ابابا ·

Digitized by Birzeit University Library

و « المشكلة » في هذا المولد ، ان الرأي الشعبي الشائع في عموم اليمن ، يطلق على من تكون امه غير يمنية لفظة « مولد » والمهانة التي يحملها التعبير في طياتـه هي اتهام مباشر للشخص بعدم « نقاوته » اليمنية الخالصة ، وهي احد التعابير الاقليمية الحادة والشوفينية التي ولدتها عزلة اليمن لقرون عديدة عن العالم **ومحمد عبد الولي** يستشعر هذه « المهانة » ويحـاول الخروج من قشرتها المنغلقة ، فيجعلها احد وجوه اضطرار اليمني للهجرة عن وطنـه ولذا فهو يمقتها ويعافها ·

● الاشكال الثاني الذي عاشه بنفسه هو « الهجرة » · ففي اثيوبيا راعه ان يجد جالية يمنية كبيرة لا تفكر بالعودة الى ارض الوطن · وراعه ان تهـرب المولدة من حقيقتها وان تغير اسمها · والنماذج الادبية التي تعامل معها في قصصه ورواياته تحاول الخروج من تهمة « الاغتراب » عن همومها و « الغربة » عن الوطن · وهي ذات « التهمة » التي كتب **محمد عبد الولي** معظم قصصـه تحت وطأة الاحساس بها ·

● وفي المنفى (وطنه الثـاني من حيث الام) فتح عيونـه على الجنس الرخيص والبارات في اديس ابابا · وراعه التناقض الحاد بين صرامة التربية والتوجيه المنزلي وبين الجو الاباحي الذي تعبق به العاصمة الاثيوبية · فالاستعمار حول عواصم شرق افريقيا (اديس أبابا ـ اسمرا ـ مقديشو ـ نيروبي) الى محطات استراحة تشكل « الدعارة » دخلها الرئيسي ، تماما كما كان يتعاطى الامريكيون مع هافانا في عهد باتيستا البائد · واقتحم **محمد عبد الولي** ، في قصصه هذه ، الساحة « الجنسية » بسلاحين بارزين : سلاح رومانسي مثالي « العاهرة تملك قلبا طيبا » ، « في داخل كل عاهرة امرأة فاضلة » ، وواقعي رومانسي « ما يحدث خيانة ، خيانة زوجية » ·

● وفي كل الابعاد الثلاثة اصبح **محمد عبد الولي** ، وجها لوجه ، امام مفهومـه الوطن والثورة · في سن الرابعة عشرة عاد الى اليمن ، وتزوج · وبعد عام سافر الى القاهرة للدراسة (الازهر) · وفي عام ١٩٥٩ طرد من القـاهرة بتهمة الشيوعية ، فالتحق بمعهد جوركي للاداب في موسكو ، ودرس لمـدة سنتين · قطع دراسته ، والتحق بثورة ٢٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٦٢ ، انتي اطاحت بالامامة · وانغمس في النشاط السياسي اذ شغل منصب القائم بأعمال سفارات الجمهورية الفتية في كل من موسكو وبرلين ومقديشو ، وعمل لفترة كمدير عام لشركة الطيران اليمنية · وفي اخريات حياته استقال من منصبه وفتح دارا للنشر في تعز · واستشهد محترقا ، عندمـا تحطمت طائـرة الدبلوماسيين في اليمن الديمقراطية ، يوم ٣ـ٤ـ١٩٧٣ ·

هذه الرحلة الغنية جعلت من **محمد عبد الولي** رائدا للقصة في اليمن · والريـادة هنا ليس بمعنى الاسبقية الزمنيـة ، فمن حيث الزمن تعتبر مجموعة **صالح الدحـان**

Digitized by Birzeit University Library

« انت شيوعي » الصادرة عن دار البعث للطباعة والنشر ، في عدن ، عام ١٩٥٧ ، اول مجموعة « قصصية » مطبوعة · وعدا عن كون **صالح الدحان** قد توقف عن متابعة الكتابة الادبية ، فان باكورته الاولى هي من جملة انطباعات وخواطر لا تربطها بالقصة القصيرة اية رابطة ·

واصدر **عبد الله سالم با وزير** مجموعته القصصية الاولى « الرمان الذهبية » عام ١٩٦٥ ، وتتميز المجموعة بتقيد صارم في « الحبكة » التقليدية ، وفق رؤية رومانسية مثالية · وعاد **با وزير** ، مرة اخرى ، واصدر مجموعته الثانية « ثورة البزكان » عام ١٩٦٨ ، ثم توقف ·

والاديب الثالث الذي اصدر مجموعة قصصية واحدة ثم توقف هو الاستاذ **علي باذيب** ففي عام ١٩٦٥ صدرت مجموعته الاولى « ممنوع الدخول » ، وهي المجموعة الاولى التي حاولت الابداع وفق منهج الواقعية الاشتراكية ·

اديب واحد بدأ قبل **محمد عبد الولي** ، واصدر قبل شهور مجموعته الثالثة « يا اهل هذا الجيل » ، وهو القاص المبدع **احمد محفوظ عمر** · ففي عام ١٩٦٠ اصدر مجموعته الاولى « الانذار المزق » ، وبعد ثمانية عشر عاما اصدر مجموعته الثالثة ، وهو المرشح ـ اكثر من غيره ـ لاحتلال المكانة الشاغرة التي خلفها غياب الاديب **محمد عبد الولي** ·

كما ان ريادة **محمد عبد الولي** لم تكن بسبب منهجه ، فقد سبقه الى الواقعية الاشتراكية **علي با ذيب** ، والى الواقعية الرومانسية **احمد محفوظ عمر** ، والى الرومانسية المثالية **عبد الله سالم با وزير** · وانما تعود ريادته الى احتلاله مكانة القصاص اليمني الاول ، بغض النظر عن زمن ظهوره الادبي وبغض النظر عن مناهجه المتعددة فمكانته في الادب اليمني مماثلة لمكانة **غسان كنفاني** في الادب الفلسطيني ·

وحتى نلم بجوانب هذه الرحلة الغنية سنتناول كافة اعماله وفق تسلسل ظهورها زمنيا ·

■ **الارض يا سلمى (قصص)**

صدرت المجموعة وعمر **محمد عبد الولي** لا يتجاوز السادسة والعشرين ، فيما كتب معظم قصصه ما بين سن ١٨ الى ٢١ سنة ، وهو سن مبكر لصياغة موقف متكامل من الثورة والوطن والاغتراب والجنس ، ومع ذلك التقط **محمد عبد الولي** المفاتيح الاساسية للخروج من الغربة ولاعادة رسم الوطن على نحو جديد ·

ففي قصته « الارض يا سلمى » ، التي كتبها عام ٥٨ ، وعمره ١٨ سنة ، حاول ان يجد النقيض مع قصته « امرأة » ، والمكتوبة بذات العام · والقصة الثانية المستوحاة

Digitized by Birzeit University Library

من ذكرياته في اديس ابابا مع الجنس ، حيث يرسم تجربة مراهق تكفي قبلة مومس التقاها في الشارع مصادفة ان يقول « واحسست نحوها بالحب » ، هذه القصة كان يريد نقيضها على ارض الوطن ، ولذا جعل بطلة قصته « الارض يا سلمى » امراة · فسلمى تعمل في الارض بصمت من اجل اهل زوجها « ومن اجل الارض » ، وعندما تحتضن طفلها في نهاية القصة تهتف لنفسها : سأعلمه ، سأعلمه كيف يحب الارض » ، فيما كانت المياه تغوص في اعماق الارض · انه يريد ان يقول ان اعتناء اليمني بأرضه كفيل بالغاء مبررات هجرته الى الخـــارج ·

ولكنه يكتشف ان الاعتناء بالارض وحده لا يكفي ، فهناك السلطة السياسية ، هناك الامام ، هناك الغول · فيكتب قصته الكفاحية الرائعـــة « الغول » ، والتي اثارت ، في حينها ، ضجة كبرى ، واضطر مؤلفها الى الاختفاء ، كما اضطر رئيس الجريدة التـــي نشرت القصة (وهو الاستاذ الفقيد **عبد الله با ذيب**) الى الاختفاء ، ايضا ·

والقصة عبارة عن رسالة من صديق الى صديقه ، يحدثها فيها عن الغول الـذي استباح كل شيء « بمنطق القوة ، وبالاساطير التي تنسج حوله مع كل ضحية » · ثـــم يحكي لها عن « هند » ، الام الفقيرة التي فقدت كل ما تملك من مال وارض وحلي (كل شيء لتهب ابنها الوحيد الحياة) وكيف ان الاطباء وصفوا لها دواء لعلاج ابنهـــا باحضار قلب الغول ! فتذهب الام وتواجهه مغارته قائلة :

– انك لست سوى مخلوق تافه ، صنع الاخرون اسطورتـــك ، فصدقتهـــا انت ، وصدقها الاغبياء في القرية ·

فيرد الغول :

– انك امام من خضعت الرقاب له ، امام ملك الجبل والقرية ! امام من انتصر على الجميع ! امام من لا يموت !

وتنتصر الام في معركتها مع الغول ، وبجانب « بوابة المغـارة تمدد ملك الامس ، وفي القرية ، في زاوية مظلمة من منزل صغير متهدم كان انسان الغد يتحرك » ·

فالرمزية هنا مشتقة من اسلوب الاسطورة والحكايـــة ، وذلك لتقريب القصة الى المزاج الشعبي والثقافة الشعبية ، وليتمكن من تغليف الدعوة الى الثورة · فالغول (الامام والنظام الامامي) يمكن ان يسقط ، اذا واجهته هند (الشعب) ، وتحررت من هيمنـــة الاسطورة حوله ، وبذلك تنقذ نفسها ، وتنقذ ولدها (الجيل الجديد) · والقصة اول نبوءة ادبية بالثورة ، واكثر الدعوات الادبية نجاحا ·

Digitized by Birzeit University Library

ويستكمل **محمد عبد الولي** رسم خارطة موقفه في طريق الصين ، يا خبير ، الدرس الاخير ، سوق السبت ، عند امرأة · ففي « طريق الصين » يجسد بعدا امميا للثـــورة عندما يقول العامل اليمني **علي التهامي** « انا ·· انت ، اقوى من الجبل » ، وبذلك يصبح **علي التهامي** الذي كان عبدا عند (**هادي هيج**) مسؤولا عن هدم الجبل بمساعدة ليو ، كرمز للمعسكر الاشتراكي · وفي « يا خبير » يضيف صديقا جديدا لقوى الشعب المنتجة من العمال والفلاحين ، مشيرا اليـــه بالعسكري كرمز للجنود ، فالعسكري الذي رأه في « القبيطة » والشيء « الوحيـــد الذي لم اكن اتوقعه هو ان يتكلم هذا الرجل عن الظلم والشريعة واصحاب الكروش » ، « فالذي تعودناه ، نحن الرعية ، هو ان نرى العسكر بالدرجة الاولى ادوات لهذا الظلم ، هم الذين ينفذون اوامر الحكام ، ولا ينسى ايمـن كيف كان هؤلاء العسكر يستبدون بالرعية » · وحتى لا يتحول العسكري كرمز الى الجيش ككل ، كشف **عبد الولي** عن مأساته حيث اخذ المشاريع الارض منه ، لذلك « فالعسكري مثلك حاكم ثاني ينهبه في بلاده بالحق او الباطل » ·

وفي « **الدرس الاخير** » يثور على التربية القديمة ويطالب بمدرس من نوع جديـد ، بمدرس يسمع الطلبة منه لاول مرة كلمات جديدة « الشعب ، الامـــة ، الوطن » ، ويخط (على السبورة بأحرف انيقة عنوان الدرس الاول (تاريخ اليمن) » ·

وفي « **سوق السبت** » ورغم الفاقة والفقر ، يحلم سكان وادي الصميتة « بأشيـاء واشياء » · وفي « **عند امراة** » يتطلع من النافذة ويحلم « هناك في احضـــان (صبر) ستبنى اجمل منازل الدنيا و (قلعة القاهرة) مكان ممتاز لبناء فندق عالمي ، دعنا نحلم بالمستقبل » ·

هذه هي خارطة (موقف) **محمد عبد الولي** ، ولاستكمالها حـــاول اعـــادة تدمير المنفى ، تدمير الهجرة · ففي قصة « **على طريق اسمرا** » ، يضطر للجلوس في بار عـلى الطريق « كانت المرأة تنظر الي ، وفي البار قوارير فارغة ، ولا احد سوانا ، ومجموعة من الذباب والطريق نائم وفي احشائه كسل يولد » ، « بقدر كراهيتي للذباب اكره النوم في المدن الصغيرة الضائعة على طريق اسمرا » ، « نظرت الى ساقيها ، ان شيئا جذابـا يلمع منهما ، ومن خلال الساقين رأيت محطة بنزين قديمة ! لقد مر الايطاليون من هنـا مرة ، وتركوا خلفهم الكثير من امثال هذه الاربعينية » ·

ان هذه المهدات في القصة سرعان ما تتحول الى هدف مغاير لسياقها ، عندما يلتقي بمهاجر يمني ، هو صاحب دكان في المحطة ، ويدور بينهما هذا الحوار :

– هل انتم كثيرون معنا ؟

– من ؟

– اقصد اليمانيين ·

– أوه ، لقد كنا في زمن الايطاليين ، اما الان فلم نعد هنا سوى ثلاثة · صـــاحب ذلك الدكان المغلق ، واخر يملك طاحونا بالقرب من هنا ·· وانا ·

Digitized by Birzeit University Library

ـ واين ذهب الاخرون ؟
هز رأسه بحزن :
ـ مات من مات منهم والبعض انتقل الى العاصمة ، والقلة عادت الى الوطن »
ثم يعيد الحوار ليقدم مشكلته بادئا باليمني المهاجر :
ـ انت مولد ؟
اجبته بهزة من رأسي :
ـ ان ذلك اهون ، فانت لا تشعر بانك غريب ، انك ابن البلاد .
ـ وانت ؟
ـ وانت ؟
وفي مقطع حواري ثالث يدور الحديث بينهما :
ـ كم مضى عليك منذ قدمت من اليمن ؟
كان يحاول ان يتذكر . ثم قال :

ـ اعتقد ثلاثين سنة او اكثر . كنت هنا قبل ان يدخل الايطاليون . كنت اعمل مع قوافل الجمال لسنوات . كنا ننقل السلاح من الساحل حتى المناطق الجبلية ونمد الاحباش بها ليستمروا في المقاومة . قتل الايطاليون قائد قافلتنا . كان اسمه نعمان سعيد وتفرقنا بعد مقتله . كان رجلا شجاعا لا يخاف احدا . وجازانا الاحباش بعد الحرب بالسجن »

وخلال المقاطع الحوارية كان **عبد الولي** يزداد عمقا في تقديم شخصية المهاجر ، واولاده الذين لا يعرفون العربية ويتكلمون الامهرية ، حتى يصل الى المقطع الحواري والختامي :

ـ ألا تفكر في العودة الى اليمن ؟
فكر طويلا وقال :

ـ اليمن .. لقد نسيتها . انني انتظر الموت فقط . لن يعرفني احد هناك اذا عدت . ثم ما الذي سأحمله لهم بعد غياب عمر كامل ؟ لا .. سوف ابقى هنا حتى النهاية لا احد بقي معي هناك . لن اعود . قد يعود ابنائي يوما ما اذا عرفوا ان اباهم كان غريبا .. وقد لا يعودون ، قد يظلون مثلي غرباء .

ثم يقدم شخصية اخرى من المهاجرين في قصة « ابو ربية » ، المهاجر اليمني والرسام الفقير ، الذي يتجول امام محلات اليمنيين في الخارج ويرسم (على الجدران صورا للناس مثل الكلاب) . وعندما عاد الى ارض الوطن ، لم يتغير ابو ربية ، وظل الناس ينعتونه بالجنون !

وفي (**اللطمة**) تتكرر ، للمرة الثالثة ، صورة اليمني المهاجر الذي يملك دكانا صغيرا ، وعجزه عن الوفاء بمتطلبات ابنه من الملابس « التي طلبها المدرس السوداني لقرب موعد عيد جلوس الامبراطور » .

■ **شيء اسمه الحنين (قصص) :**

Digitized by Birzeit University Library

شهد الفاصل الزمني بين مجموعته الاولى والثانية عدة تغييرات على خارطة اليمن السياسة ، وعلى حياة وعمل محمد عبد الولي نفسه والمفترض ان تحدث هذه التغييرات نقلة جديدة في ادبه · الا ان الاحساس بخيبة الامل ، نتيجة سقوط تجربة الجمهورية وقسوة التخلف ، دفعته مرة اخرى الى المراوحة بين الغربة واليأس وبين احياء الامل بانتصار الثورة · ووجد في الرمزية ملاذا للفرار من تجربة استباحة العاصمة صنعاء واجهاض الثورة :

ورغم هذه المرارة حاول فتح فجوة في الجدار المغلق ، وحافظ على ابراز المرأة اليمنية ـ البطلة مثلما فعل في « فول » و « الارض يا سلمى » فبطلة قصته الاولى « وكانت جميلة » في مجموعته الثانية « شيء اسمه الحنين » ، امرأة تنزل من الجبل لتبيع في المدينة تجارتها · وكان « يومها الاول في المدينة وتجربتها الاولى بالذات في الاحتكاك بالجماهير » · وامها كانت ، مثلها ، جميلة في عام ١٩٤٨ ، ولذلك اصبحت محط حديث الحي وهمساته ، وبؤرة يتصارع عليها وحولها الجميع ! واول خاطب (كان ضابطا في قسم الشارع الذي تعيش فيه ، ويقال انها رفضته) ، ثم سرعان ما اكتشفت جريمة قتل « وجدوا الضابط مقتولا في مكتبه ، وقيل انه سرق » ·

وتزوجت مرة ثانية من ضابط امن المنطقة فكان الطلاق بعد عدة اشهر · وبذلك خلت الساحة له (القصة بلسان الانا) ، وهو صاحب دكان عبارة عن (مكتبة صغيرة) ، وفوق ذلك هو « باحث عن الحقيقة ، وصادق في تقديرها دون اطماع ذاتية » ، خاصة وان علاقتها بالتاجر فشلت ايضا ·

في هذه القصة يجدد محمد عبد الولي انتماءه للثورة ، فالعسكر فشلوا في الارتباط النهائي بابنة الجبل (رمز اليمن الارض والشعب) ، وفشل مثلهم التاجر ، وفاز بها صاحب المكتبة ، الباحث عن الحقيقة ، والمحب الحقيقي دون اطماع ذاتية !

وفي قصة « شيء اسمه الحنين » التي سمى الغلاف على اسمها ، تحول الحوار الى مناظرة فكرية عن الغربة وحقيقة مستوى تطور الشعب والتجربة السياسية · والحديث بين شخصية يمنيه عائدة من المهجر (امريكا) وبين شخصية اخرى مقيمه وفيما يتوجهان من صنعاء الى تهامة ، يتطلع العائد للجبل حيث « البدو » ويقول :

ـ ·· انهم كادوا يقتلوننا · هنا مجموعة من الحفاة العراة كل ماله قيمة بندقيتهم فقط · اية حياة بالله ان تكون نهايتك على يد مثل هؤلاء ؟! الهذا تعلمنا وسافرنا ؟ وحلمنا بالعالم الجديد ؟ وبأننا سنناضل ونبني ؟! لمن ؟ لهؤلاء !! الذين يبيعونك بجنيه ذهبي ، واحيانا بلا شيء ، يا الهي ! » ·

وعندما يتطلع الى جبال الحيمة يقول :

ـ المنازل عالية فوق القمم · الانسان هنا يحلق عاليا ، ولكن يحيا حياة القاع ·

Digitized by Birzeit University Library

ويستطرد :

ـ هناك كنت يساريا فعلا ، كانت قضية ما تربطني بالجميع ، اما هنا فنحن نعيش في داخل انفسنا، والكذب غذاؤنا اليومي » .. نحن اليمانيون مكتو ب علينا ان نهاجر ونهاجر بلادنا ليست لنا .

فيرد عليه بطل القصة بجملة خجولة ، برغم صدقها :

ـ نحن جزء من كل هذا التخلف ، نحن جزء منه ، صدقني ستفقد كل شيء .

وينتصر بحياء . وبذلك فقد التوازن في عرض وجهتي النظـــر ، لصالح العائد من امريكا . صوت المقيم كان خافتا ، خجولا ، وكأنه يعكس تردد **محمد عبد الولي نفسه** بين الهجرة والبقاء . كما عكست القصة بعض المفاهيم الخاطئة حول الناس والوطنية واليسار. فالبدو « يبيعونك بجنيه ذهبي ، واحيانا بلا شيء » ، واليسار في الخارج عملية نضالية أما في الداخل فهو « مجموعة من المجانين » ، بل وأكثر من ذلك عندما يستشهد بجملـــة ولقد صدق من قال يوما ما « بأن الوطنية آخر ملاذ للوغد » . وتتكرس مفاهم الغربة اكثر في قصة « ليته لم يعد » ، حيث عـــاد المهاجر « محمولا على نعش ، مريضا لم يعرفـــه الاطفال » . وباعت الزوجة اللبن والسمن والحبوب لتجد له الشفاء ، الا انه « ظل على السرير لا يتحرك ، عيناه تزوجت بالسقف ، ورأسه لا تتحرك ، ولكنه لم يمت » وبـرغم الصورة الضمنية المشرقة ، الا ان العودة تعني بيع كل شيء وملازمة المنزل مريضا دون أمل في الشفاء !

وفي « **أصدقاء الرماد** » يواجه عفونة الجهاز الاداري الذي يتآمر على طبيب مخلص، رفض الرشوة والسرقة ، فنقلوه الى قرية حيث « لا مستشفى » و « لا حتى عيادة بـــلا شيء البتة ، لا أدوات طبية ولا علاجات ولا حتى مبنى » !! وبعد أن يستمر في صدقـــه ، يستدعيه المدير ، ويهدده بمسايرة الوضع والا ... « ستتعب كثيـــرا ، ولن تجد مـــن تعالجه » . واستدعاه محافظ المنطقة ، ليقول له « أنت في اليمن ، وعليك ان تتأقلم » . ويواجه الطبيب المخلص المدير والمحافظ والوزارة وينتصر ، ولكنه ينتهي الى موظف في قرية دون مستشفى أو عياده .

وفي « **الاطفال يشيبون عند الفجر** » يستشهد سبعـــة أطفال وضابط وهـــم يقسمون « اما نحن واما الربوة » ويدافعون عن الثورة ، عـــن صنعاء في حصار السبعين يـــوما الشهيد .

ثم قدم مومستين يمنيتين في موقفين من الهجرة . الاولى مهاجرة في اثيوبيا ومولده في قصة « مومس » ، وزيادة على ذلك انكـرت اسلامها ولبست الصليب : « قلت له انني اثيوبية ابتسم ، كان ذكيا وهو يلعب بالصليب ويتحسس نهداي » . والثانية في اليمـــن « يمامة » فحولها من عاهرة الى السجن وهي نظرة لازمت **محمد عبد الولي** في قصص العاهرات المقيمات ، حيث يجد العذر لعاهرة في الداخل ويجرد المهاجرة منـــه ، ويجعـــل الاولى وطنية والثانية متنكرة حتى لاسم موطنها الحقيقي .

Digitized by Birzeit University Library

ونلاحظ أن موضوعات مجموعته الثانية لم تتغير عن موضوعات مجموعته الاولى ، وان قلقه في الثانية نحو الهجرة ، وبدت ملامح الرغبة في تحقيق ذلك ·

يموتون غرباء « رواية »

هي اول رواية يمنية ، بالمفهوم الحديث للرواية · وما سبقها مجرد حكايات تختلط فيها السمات التمثيلية بالحكاية والوعظ الاجتماعي والاسطورة واخل تكثيفها الشدد بنمو الشخصيات ونمو عملية الصراع بينها · موضوعها مكرر ويدور حول الغربة · ولعل القصص القصيرة في مجموعته لم تستوعب فكرته عن الهجرة ، فاعاد توكيدها في هذه الرواية ـ القصيرة ·

نشرها اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين ، بعد استشهاد **محمد عبد الولي** ، وهي اول كتاب مطبوع للاتحاد ·

وانطلاقا من الفكرة الجاهزة ، رفض الهجرة ، رسم **محمد عبد الولي** شخصيات روايته ، وانتقاها بدقة لتتناسب مقاس وحجم فلسفته · ولا يهرب من (مشكلته) كمولد ، فيتقمص شخصية سكرتير الحاج عبد اللطيف ، ويفتح صدره بوضوح ، حتى تكاد تتبينه يخاطبك من بين السطور ، مثلما فعل في « **شيء اسمه الحنين** » و « **ليته لم يعد** » و « **هومس** » في مجموعته القصصية الثانية ·

لقد مزج معاناته الذاتية بالمعاناة الجماعية للمغتربين ، وبذلك حول الغربة من قضية فردية الى مشكلة وطنية ·

بطل الرواية (عبده سعيد) مهاجر يمني يملك مكانا « يشبه حجر فأر » في حي (سديست كيلو) في العاصمة الاثيوبية أديس ابابا · وبمرور الايام يحبه الاهل الحي ويتفوق على (الارمني) صاحب الدكان الحديث الممتاز ، ولا يغادر الحي الا الى حيث يشتري احتياجات دكانه ثم يعود ·

قال البعض لصبحي الارمني « اذا اردت يا صبحي أن تجذب اليك عملاء كاليمني فعليك بارضاء النساء » ، فيما قالت امرأة اخرى عن اليمني «كم هو شهواني هذا الرجل» · ولكن شهرته الجنسية التي تجعله بطل أحلام المراهقات ، وتجعل « طائتو » المراهقة تأتيه مختارة ، وتستسلم له على اكياس الارز ، وتقبل بزهو ، أن تصبح عشيقته ، ليست هي مفتاح نجاحه الوحيد ، حتى وأن تمكن عن طريقها ، أن يهرب من دفع الضرائب ، من خلال ترتيب علاقته الجنسية مع زوجة موظف كبير · ولكثرة علاقاته ، فان اطفاله بالحرام (زنوه) لا يستطيع حصرهم ، وهذا ما حدث مع « فاطمة » ·

Digitized by Birzeit University Library

جاءته طائتو ، عشيقته القديمة وقالت :

ـ اسمع ، لقد أتيت اليك لاقول لك ان فاطمـــة قد ماتت بالامس ، ولقد تركت في غرفتها الصغيرة ذات السرير خيث كانت تحملطفلا صغيرا ، وأنت تعرف انـه

ابنك ، انا اعرف مقدما انك انسان تافه ، ولكن لعل فـي اعماقك تولد عاطفـة اسمها الابوة ، أنه ابنك يا عبده ، يجب أن تعمل من أجله أي شيء ، يجب .

ـ أنا لا أستطيع أن آخذه الى هنا واقول انه ابني ، ستأتي كل النساء الاخريات ويقذفن باطفالهن عندي .

ـ انت تعرف انك حقير ، ولكنني ظننت انك قد تعطف على الطفل . ونسي موضوع الطفل ، ولم يكن يفكر بغير امتلاك (طائتو) .

ـ ولكنك جميلة يا (طائتو) ، جميلة جدا وانت تبكيني ! فتضربه وتصرخ :

ـ كلب ، قذر ، حمار ، سوف أريك ، سوف أفضحك أيها الحيوان .
ومع ذلك فعندما يعرض عليه المشروب يقول :

ـ لو قطعت قطعا لما شربت ، اتريدين ان اخرج من ديني ؟!

اذن فهو يرتكب كل الخطايا ليغسلها الحج « سأذهب الى الحج ، ستغفر كل ذنوبي ، سأعود الى قريتي » .

وحتى يعمق كراهيته يقدمه بعاداته ، فهو « لا يأكل » و « يلبس ثوبه ، نفس ثوبه ، منذ عشر سنوات » ، و « يغتسل مرة في الشهر » ، ولم يحضر اجتماعا للجاليـة ولم « يدفع مرة تبرعا » ، وكان دائما يشكو الخسارة وانه « لا يربح اي شيء »

ثم فجأة اوقف هذه الكراهية ، التي زرعها بتمعن واتقان ، ليفتح صفحة مجهولة من حياة « عبده سعيد » . فعبده سعيد كان راعيا ووالده فلاح صغير (يملك عدة مدرجـات في الجبل ، ومنزلا من طابقين ورثه عن سلسلة طويلة من الاجداد) . وأمه « ماتت عندما اجتاح القرية مرض نسي اسمه » ، وجدته توفيت بمرض آخر ، وفي الخامسة عشر تزوج، فظل يعمل في الارض ، وتجلب له زوجته ، عند الظهر (صحن الحلبة ورغيف الغرب .

كان قانعا بحياته حتى (أرسل أحد أولاد قريته الذي هاجر مبلغا من المال ، وبـدأ والده في بناء منزل مـــن ثلاث طوابق . فنمت فكرة الهجرة في ذهنـــه ، مثلما توهم القرويون جميعا « كل من ذهب البحر عاد غنيا . ففاتح والده بالموضوع ، وسافر من اجل

Digitized by Birzeit University Library

بناء الطبق الثالث في منزله ، ولرفع مستوى حياة اسرته ، وترك زوجته في القريـــة . وبعد اثنتي عشر سنة من الهجرة والعمل بدأ يشعر بالراحـــة ، وقرر العودة . والرسائل التي تاتيه تقول أن (المنزل الجديد عروسة القريـــة) ويستطرد ابنه (ان البعض يريد أن يبني مثله) ، وعندما شاهد احد الاحياش صورة البيت المعلقـــة في دكان قال « ان هذا المنزل يصلح لشيخ قبيلة غني » .

أبنه الذي تركه في الثامنة تزوج ، وأصبح (اليوم صاحب دكان في المدينة) ، ويقول في رسائله (ان دخل الدكان يكفينا) .

وبذلك أصبح عبده سعيد جدا « واصبح مالكا لاحسن منزل في القريـــة ، واصبح يمتلك الكثير من الارض ، خاصة ذلك البستان الذي يحد الوادي تحت الجبل ، حيث كـــان يسرق منه عندما كان راعيا للماعز » . هذا ما جعله يخاف من وشي الارمني عليه لعدم دفعه الضرائب منذ ست سنوات فلو قال ان المنزل منزله وانـــه اشترى اراض اخرى ، فمعنى ذلك أنه يكسب مالا كثيرا ويهربه الى بلاده ، واذا عرفت الحكومة بالامر « لفقد كل شيء حتى حريته ولعرف السجن وظلامه » ، وبتحقيق احلام عبده سعيد استنفدت الهجرة اغراضها ، واصبحت العودة هي الحل المنطقي ، لكنه يموت ، أو يميته **محمد عبد الولي** دون ان يحقق هذا الحلم . وكأنه يريد ان يرفض الهجرة حتى ولو حققت الاغتناء ، لانهـــا لا تحقق الحياة . وتعمد اظهار ثمن هذا الاغتناء بعادات الاتساخ وعدم الاكل وبـــدكـــان يشبه حجر فأر ، ليدق جرس الانذار امام كل راغب في الهجرة .

واستكمالا لتعرية الارتزاق على ذمة « الثورة » و « اللـــه » و « الوطـــن » ، عرى **محمد عبد المولي** شخصيـــة التاجر الحـــاج عبد اللطيف ، الذي ينتمي لحركـــة الاحرار وشخصية الصوفي الدجال ، الحاج امين .

والشخصية الايجابية الوحيدة هي شخصية سكرتير الحاج عبد اللطيف ، الذي يشبه وبقدر معين من التفاوت شخصية محمد عبد الولي . انه الشخص الوحيد مـــن الجالية الذي يقبل اخذ الطفل بعد ان رفضه (عبده سعيد) ، والشخص الوحيد الذي يواجه الحاج عبد اللطيف ويكشف زيفه :

– انت تتحدث اربعة وعشرين ساعة عن تحرير بلادك ولكنك لن تحررها مطلقا ، لقد هربت ، ان تحرير بلادك يتطلب ان تحارب لا من وراء البحار ولكن هناك وامام العـــدو وجها لوجه » .

صنعاء مدينة مفتوحة « رواية »

صدرت الرواية الثانية في مطلع تموز مـــن هذا العام ، وهي على عكس « يميون **غرباء** » تتخذ القرية اليمنية مسرحا اساسيا لها ثم تنتقل الى مدينـــة عدن . والروايـــة بمجملها عبارة عن رسالة يوجهها نعمان الى صديقه المسافر في الخارج . وموضوعهـــا

Digitized by Birzeit University Library

يكرر المضوعات السابقة في رواية **يموتون غرباء** وفي القصص القصيرة · والتناقض الحدي بها ينتقل بين واقعين :

قسوة الحياة اليمنية ، ادانتها ، واليأس من امكان تغييرها · الصراع بين البقاء في القرية والهجرة عنها ، الثبات في مواجهة الواقع على أرضه ، أم مواجهته في أراض بعيدة واسم الرواية غريب ، وأغرب ما فيه أنه لا يعكس موضوعها ، ومكان حوادثها (قرية من قرى الحجرية ومدينة عدن) ، ولعله اجتهاد خاطىء من أحد أصدقاء الشهيد ·

الغريب الاخر ، بعض الجمل التي تبدو وكأنها مقحمة على النص الادبي · جمل شعارية ، تكثر من تكرار كلمة اليمن ، بما هو غير مألوف في « **الارض يا سلمى** » و « **شيء اسمه الحنين** » و « **يموتون غرباء** » · وتحولت بعض المقاطع والجمل الى ما يشبه المقالة والتقرير ·

والرواية من حيث الحجم متماثلة مع **يموتون غرباء** ، (٩٤ صفحة من القطع المتوسط) · والشيء الملحوظ التقدم النسبي في اغناء الشخصيات واختبارها من خلال الحوادث ، ومحاولة اقامة توازن ما بين الشخصيات والحوادث والافكار · ويمكن تقسيمها الى فترتين : فترة القرية ، وفترة المدينة ·

ففي الفترة الاولى يعود نعمان الى قريته ، ويبدأ يخط رسالة الى صديقه ، ويصف افتراقهما في دار سعد (أحد أحياء أطراف عدن) ، ثم يصف مشاعره ومواقفه في القرية · وحاول بلورة موقفه من القرية في اول مقطع من الرسالة :

كانت هادئة ، ميتة ، لا حياة فيها لامثالي / لا شيء سوى النوم حتى منتصف النهار والكسل ، وأكل القات وحيدا ، حيث انني لا أحب الذهاب الى منازل الاخرين ، حيث يجتمع عشائر القرية ويتحدثون حديثا مسئما / القرية يا صديقي أصبحت كابوسا ثقيلا علي ، وأصبح وجودي فيها لا فائدة منه / الناس يا صديقي هم ناس بلادنا ، بدون تفكير بدون امل في المستقبل / سمعت احدهم يقول انني أعامل والدي معاملة سيئة وانني أرفض العمل معه في الارض ·

تلك فاتحة علاقة مع القرية ، وهي ممهد الهروب من هذا الجو · فوالده كان جبارا في بلاد الاخرين ولكنه أصبح محطما ويخرج من هذه العزلة ، فيصعد الى الجبل ويلتقي فتاة الجبل النارية الجمال « انها يا صديقي زوجة لاحد أصدقاء الطفولة » · وتنمو علاقة عاطفية بينهما ببطء « فليقولوا أن نعمان يعشق زوجة درهم بكر وليقولوا انها ايضا تعشقني » ثم يسمي لقرية « مقبرة الموتى » ، ويسخر من « الدراويش » عن طريقة (درويش) اقنع القرية بانه يتكفل بانزال المطر بعد فشل دعاء الاستسقاء ، وشاهده في الجبل يخرج « الرسمة » من جيبه ، ثم يدسها في الارض ، ويخرجها مرة أخرى ، واختفى الرجل بعد ان وضع ١٠٠ ريال في جيبه ·

Digitized by Birzeit University Library

وسقطت الامطار بغزارة ، وحولت القرية الى جحيم من السيول ، وانهارت دار فتاة الجبل السمراء عليها وعلى اهلها وماتوا جميعا · ومن خلال مساهمته في رفع الانقاض ، يجلو قصة الفتاة التي تركها زوجها وهاجر دون أن تعرف عنوانه ، فتذكره بزوجته « هند » التي يهملها ، وانها حامل ! ويلخص لصديقه سر حبهما فهي « محرومة من زوجها منذ سنوات وأنا لا اجد ما اريده في المنزل » ·

وبعد أن ينهي قصة فتاة الجبل ، يطل علينا محمد مقبل ، العائد من عدن ، والذي اشترك في حرب الحبشة مع الايطاليين ، ليعيش معهم في المنزل · ويعتز محمد مقبل بأن « أجدادنا هم الذين حملوها الى هنا في هذه المدرجات » ولكن نعمان وجد أن الاشياء التي آمن بها تتحطم « ذهبت مني فاطمة اختطفها اخي ، واختطف القدر مني فتاة الجبل السمراء » · وفاطمة هنا صديقته القديمة في عدن ·

واخذ يرثي لهذا الشعب « الذي انهكه كل شيء حتى حكومته » وحيث وصل الى القرية اكثر من عشرة « عساكر » وطلبوا ضرائب هذا العام وضرائب لارض وانتاجها · « اتتصور ذلك » · فالحكومة تطالبهم « بضرائب زرع لم يجنوه ، وضرائب على رؤوس ماشية جرفها السيل ذات يوم »· فيما اخذ السيل الماشية وبعض الاطفال وبعض الاسر ·

الفترة الثانية تبدأ بتحضيره للرحيل الى عدن · وهنا سيتذكر محمد مقبل قصته مع الجمرك حيث اخذ العسكري بعد اهانته ابريق الشاي الذي احضره هدية لنعمان · انه يسخر من (الجمرك) والعكفة (الاجرة) التي يأخذها الجنود عنوة واقتدارا من الفلاحين وعابري الطرق · ويسخر عبد الولي من هذا الجيش (بقوامه) المزقة وبنادقه المصداة وعمائمه المزقة وباقدامه العارية ! وهذا ما يجعله يصل الى القول « فبلادي كما اراها ليست سوى زريبة للحمير »

ويصل عدن ، ويعود الى مقهى (الحاج علي) ويسمع بعض حكايات العمال الذين « ليس لديهم اي تنظيم حقيقي يستطيع ان يقودهم » ، ويلتقي بالصنعاني ـ الغامض · فيجلو قصته كمهاجر من صنعاء بعد ان داهم العسكر بيته وقتلوا زوجته وطفلته الوحيدة (خلال اسقاط الجمهورية والسلال) ، هربا من (الامام الجديد) ·

ثم يتعرف على « علي الزغير » البحار في احدى بواخر شركة انجليزية · ويجلو عبد الولي قصة هذا البحار في زبيد حيث عاش من دخل ترتيل القرآن ومعاشرة زوجات العامل والحاكم على المدينة · واخيرا هرب من هذا الفسق المغلف بالتراتيل الى الحديدية، ثم التحق بمجموعةمن لاخدام ووصل عدن وعمل بحارا !

واصبح ثلاثتهم ، نعمان والصنعاني وعلي الزغير اصدقاء قات وكأس ونوم · واخذت رسائل محمد مقبل تفد من القرية تطلب مالا ثم تخبره بوفاة زوجته والجنين اثناء الولادة المتعسرة ويحاول ان ينس زوجته في احضان (زينب) حتى انقذه منها الصنعاني ·

Digitized by Birzeit University Library

وبعد ان جاءت رسالة اخرى من محمد مقبل يطلب نقودا تنتهي الرواية بعودة نعمان والصنعاني الى الشمال ٠ ٠

اي انه قرر ان يواجه الحقيقة على ارضها ، لا بالهرب منها ٠ والرواية تبشيريـــة تحريضية لرفض الهجرة ، وهي الفكرة المحورية في معظم ادب وحياة محمد عبد الولي ؛ حيث ظل يجاهد حتى استشهاده في عدم الوقوع في التناقض مع ارائه ٠

عمنا صالح « قصص »

الكتاب الاخير لمحمد عبد الولي عنون في الغلاف الداخلي بـ « قصص متناثرة » ، وهي مجموعة « قصص » وجدت بين اوراقه بعضها نشر ومعظمها لم ينشر خلال حياته ، بالاضافة الى مسرحية « الشيخ بشر بن الحافي » ومشهد مسرحي ٠

اربع قصص من المجموعة تتحدث عن مكان واحد هو سجـن القلعـــة ، ويظهر بها جميعا السجين المجنون العم صالح العمراني ، مما يدل انها تخطيطات لمشروع روايـة عن السجن وليست مجموعة قصص ٠ خاصة وان رواية « صنعاء مدينة مفتوحة » هي دمـــج لاربع قصص قصيرة يمكن فصلها بقليل من التدقيق ٠

القصص الاخرى ذات موضوعات مكرره ٠ ففي قصة « النهاية » يعيدنا الى مشهـد جنسي في اديس ابابا ، بل ويكرر اسم المعشوقة العاهرة زينب ، ويجدد معزوفة المولدين٠

ـ هل انت مولد ؟

وقالت وهي تنظر ليه بعينيها السوداوين الواسعتين ٠

ـ نعم ٠ لماذا ؟

ـ انني احب المولدين ٠٠

ـ آه ٠٠ اما انا فاكرههم

ـ لماذا ؟

ـ لانهم تافهين

ـ انا ايضا مولده ٠٠ فهل انا تافهة ؟

ـ ما دمت مولده ٠٠ فنعم ٠

فالقصة استعادة لانفاس قصتيه « **على طريق اسمرا** و « **مومس** » ٠

وقصة « لاجديد » هي بالفعل لا تحمل جديدا ، مجرد امراة تنتظر رسائل زوجهـــا المهاجر مع الجمال العائد من عدن ، وبعد استلام هديتها تظل تنتظر ولا يعود !!

Digitized by Birzeit University Library

وفي « غربة » تجري عملية اغتصاب عاملة التنظيف باعصاب باردة ولا يجد ما يقوله في الخاتمة سوى انه اخذ يغسل الارض وقميصه الابيض من آثار الدماء ! (وكأنه في مجزرة)

اما قصص السجن فهي تخطيطات لروايـــة ، أو كما يقول الفنانون هي (كروكي) العمل · ففي (قصة) « عمنا صالح العمراني » يقترب من الخواطر التسجيلية والمذكرات ويكثر من مخاطبة القارىء « والغريب ـ اقسم لكم ـ ان ذلك تحقق اكثر مـن مرة طوال بقائنا مع العم صالح العمراني » ثم يعود فيقسم مرة اخرى امام القارىء مؤكدا صحـة وجود العمراني و « اذا لم تصدق فما عليك الا دخول القلعـة اما كمجنون وهذا صعب لا يأخذون الى هناك الا المجنون المبنوس من شفائـه ، واما كمعتقل سياسي وهذا مـن اسهل الامور ، وهناك ستقابل عمنا صالح العمراني وستعرف قصته » ·

هذا عدا عن بعض المزاح التجريبي الممكن كتباتـه في المسودة مثل « الذي يقـود صاروخا ـ آسف يومها كان يقود سيارة » ، « تتابعه من اجهزة التلفزيون ـ آسف هـذا بالطبع مبالغة » ·

وقصة « **ذئب الحلة** » هي الاخرى لنموذج من مساجين القلعـة · وهي قصة تثير القرف والغثيان للصفات التي تحلى بها السجين ـ المجنون الملقب بذئب الحلة فهو : لا يشرب الماء الا اذا انسكب على الارض/ يشرب بوله/ يأكل بقاياه / لقد رأيتذئب الحلة وهو يمسك بفأر ميت ويقضم لحمه/ قدمت له قطعة خبز فرماها في الارض وتبول فوقها ثم اكل القطعة/ قدمنا له قطعة لحم فمرغها في التراب وجلس يلعب بها اكثر مـن ساعـة ثم بدأ يأكلها ·

ورغم ذلك يجد ذئب الحلة من يعشقه في السجن ويموت في سبيله عندما « وقـع الصرح وضرب رأسه في الاسمنت ومات » · وفي النهاية يموت ذئب الحلة ، ولم يطلقوا سراحه الا في اليوم التالي !!

لقد فشل محمد عبد الولي في تحويل عناصر الكراهية ضد القمع الرسمي في صنعاء فبرزت ضد ذئب الحلة الذي يمقته (القارىء) ويتمنى نهايته !

القصة الثالثة (**ماجد**) هي لواحد من الطف مجانين سجن القلعة · حيث قال ان ادمانه للقات هو سبب جنونه وقال آخرون ان السبب الحقيقي قصة حب فاشلة وخيانـة زوجية · الى هنا وانت تنتظر ان يقـول لك شيئا مهما عـن (ماجد) فاذا بجو القصـة يتحول الى الرعب · ركض العسكر وصرخوا وهم يلوحـون بالعصي « كل في محلـه يا محابيس » · وفيما تراكض المساجين الى غرفهم صرخ العسكر « اقفلوا الشبابيك ولاحـد ينظر منها » ، وتحت الضرب « اطفئت الانوار فجأة وساد ظلام دامس » والقضية مجموعة جديدة من المساجين ، عرفوا ذلك من خلال صوت السلاسل التي تقيد ارجلهم · وفجـأة

Digitized by Birzeit University Library

يتحول ماجد المجنون الذي يجمع اعقاب عيدان القات الى وسيط متعاطف مع المساجين الجدد ، ويبذل جهدا كثيرا في جمع السجائر لهم .. ثم تنتهي القصة !!

القصة الرابعة هي « ليلة حزينة اخرى » وهي من سجن القلعة ايضا ، حيث بدأ يؤذن صالح العمراني ثم يرحب بالضيوف فعرف الجميع ان دفعة جديدة من المساجين قد حضرت « ولفنا من جديد الصمت الذي كان يبكي » .

نلحظ من القصص الاربع خيوط رواية بالحوادث والشخصيات ، ولانها لم تنجز كان المفترض باللذين اشرفوا على تقديم العمل للمطبعة ان يراجعوا هذه المواد ، بما يحفظ لمحمد عبد الولي مكانته وسمعته الادبية كقاص مبدع . كما كان المفترض ان يتم التعريف بهذا الكتاب بمقدمة تشرح ظروف المواد ، وتبرر انزال مسرحية قصيرة ومشهد مسرحي مع كتاب وضعت على غلافه الداخلي « قصص متناثرة » .

تلك هي رحلة **محمد عبد الولي** التي لم تستقر على منهج واحد في الكتابة . عندما يكتب بالواقعية الرمزية يحرص على عدم الاغراق في الرمز حتى لا يصل الى التجريد وعلى عدم الاغراق في المباشرة والسرد التقريري حتى لا يقع في التسطح . ويحاول ان يربط افكاره الفلسفية العامة بالاسماء الحقيقية للمدن والقرى والاماكن واحيانا الاشخاص . وتراوح فلسفته بين حدين : البقاء على ارض الوطن او الهجرة عنه . وعندما تخونه التلقائية في النص يكثر من الحوارات ، وعندما يريد قطع الحوارات المطولة منعا للملل يلجأ الى الطبيعة فيعيد وصف الاشجار والقمر والشمس

يواجه الجيل القديم باللوم والتقريع ، فهو جيل عاجز استسهل الهجرة على مقاومة الامام ، ثم ادمن المهاجرة ونسي الوطن . ويخرج من دائرة صراع الاجيال من حيث السن ، فيحولها الى صراع المسؤولية الوطنية والاجتماعية ، فالجيل الجديد عليه ان يعود الى الوطن وان يوجه الطاغية .

المراجع

(١) الدكتور عبد الحميد ابراهيم، **القصة اليمنية المعاصرة** . بيروت دار العوردة ، ١٩٧٧ .

(٢) عبد العزيز المقالح . **قراءة في ادب اليمن المعاصر** . بيروت دار العودة ، ١٩٧٧ .

(٣) علي حسين خلف . الثورة والوطن والقربى من ادب محمد عبد الولي . **١٤ اكتوبر** (عدن) ١٧/ ٧ و ٢٠/ ٧ و ٢٤/ ٧/ ١٩٧٣ .

Digitized by Birzeit University Library

عن السينما الجزائرية

نبيل الدبس

كان هدفي في البداية ، الحديث فقط ، وبالحد الادنى من الانفعال ، عن فيلم (سنوات الجمر) للاخضر حامينا ـ الذي عرض في نطاق اسبوع الافلام الجزائرية الاخير ، خاصة وان هذا الفيلم قد قوبل بحماس كبير سواء من الجمهور أم من بعض النقاد الذين عودونا الحديث عن السينما عبر صحافة القطر السوري ولايماني بأن الفيلم السينمائي يجب ان يناقش لا كعمل مطلق مستقل بذاته ، وانما كنتاج مشروط بواقع اقتصادي واجتماعي وسياسي محدد ، ولدراسة « سنوات الجمر » انطلاقا من هذا الاطار ، كان من الضروري أن أتطرق الى واقع التجربة السينمائية الجزائرية ككل : تاريخها ، تطور جهازها الاداري ، والاتجاهات التي تميزت عبرها مضمونا وشكلا .

طبعا سأخدع نفسي واخدعكم اذا قلت انني توصلت الى دراسة شاملة لكل هذه الجوانب . كل ما هدفت اليه هو ابداء بعض التساؤلات التي اثارها بالاصل فيلم (سنوات الجمر) نتيجة موقف نقدي اردته ايجابيا لقناعتي ان تجربة السينما الجزائرية تجربة رائدة دون ادنى شك في سينما العالم الثالث ، وربما عبر هذا الالتفات الى تجربتنا التي تعاني ـ ويا للمصدفة ! ـ غير القليل مما عاناه الفن المهابع الجزائري .

مراحل تطور البنيـــة التنظيميـة للسينما الجزائرية :

لا بد لاي سينما وطنية أن تكون بشكل ما ، تابعة للنظام السياســي الذي يفرض شروط وجودها وسينعكس هذا مباشرة على مستوى وجودها الاقتصادي نفسه ، بالاضافة الى تأثيره على المضامين التي تعالجها هذه السينما ، وعلى أساليبها الجمالية . وخلال خمسة عشر سنة أظهرت السينما الجزائرية رغبة صادقة في الاستمرار والتطور ، وذلك عبر جهاز اداري أريد له في البداية أن يكون مساعدا على التحرر ، ولكنه لم يخل فيمـا بعد من بعض الظواهر المرضية ، التي جعلته ـ الى حد ما ـ مقيدا لانطلاقة هذه السينما، مانعا اياها احيانا من القيـام بدورهـا النضالي الموكل اليها في مجتمع اختـار الاشتراكية هدفا لـه .

ان المصاعب التي واجهتها السينمـا الجزائرية على المستوى الاداري ، وحتى على مستوى الاختيار الايديولوجي ، ليست الا انعكاسا للخط النضالـي الذي اختارته الثورة الجزائرية ، والعراقيل التي يحـاول البعض وضعها فـي طريقهـا ، وبالتالـي للتركيبة المتداخلة والمعقدة للواقع الجزائري بمختلف ابعاده .

ولعل استعـراض مراحـل تطـور المؤسسات السينمائية ، يعطينـا فكـرة عن

Digitized by Birzeit University Library

حجم هذه الصعوبات وعن المحاولات الدؤوبة الرامية لايجاد الصيغة المناسبة للكادر الذي يسمح بنمو سينما وطنية جزائرية حقة ·

١ ـ مرحلة ما قبل الاستقلال :

من المعروف أن الانطلاقة الاولى للسينما الجزائرية جاءت من قلب جبال الاوراس ، اثناء حرب التحرير ، لترافق الثوار ، وتنقل انتصاراتهم · لم تكن بالطبع تهتم بالجانب الفني ، وانما فقط بتسجيل معارك جيش التحرير بهدف فضح الدعاية الفرنسية ، وتعريف الرأي العام العالمي لحقيقة الصراع الدائر هناك ، وجاء تأسيس مدرسة التأهيل السينمائي عام ١٩٥٧ ، من قبل جبهة التحرير الوطني (F.L.N) لتحقيق هذه الاهداف استمر عمل المدرسة لمدة أربعة أشهر ، أنتجت خلالها عددا من البرامج التلفزيونية ، كانت توزع على الدول الاشتراكية · ولم يكن للسينما أي اطار تنظيمي ، عدا بعض التنظيمات النضالية التي لم تكن تتميز بأهداف سياسية واضحة · وفيما بعد كان لا بد من اعطاء العمل السينمائي شكلا تنظيميا ، والسعي لجمع الافلام المنتجة في أرشيف للفيلم ، لذلك ـ وفي فترة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ـ تم افتتاح ثلاث تنظيمات للانتاج : لجنة السينما التابعة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، دائرة السينما التابعة أيضا لهذه الحكومة ، دائرة السينما التابعة لجيش التحرير الوطني ·

ظهرت في تلك الفترة بعض الشخصيات التي لعبت دورا أساسيا في مراحل البناء الاولى للسينما : الفرنسي رينيه فوتييه ، الذي التحق بجبهة التحرير منذ بداية الحرب والجزائريان : الاخضر حامينا وجمال شاندرلي اللذان حققا الافلام الجزائرية الاولى ·

أهم الافلام التي وصلتنا من تلك الفترة :

ـ « الجزائر تلتهب » ، ١٩٥٩ (١٦ مم ملون ، مدته ٢٠ دقيقة) تنفيذ مجموعة السينمائيين ـ بقيادة رينيه فوتييه ـ التابعة لجبهة التحرير الوطني · يعكس الفيلم بدقة درجة وعي الجماهير اثناء النضال ، ويظهر جيش التحرير كجيش شعبي من خلال تصويره لحياة الثوار ، ونشاطاتهم ، ومصير الجماهير الجزائرية التي اضطرتها الحروب للنزوح ·

ـ « جزائرنا » ، ١٩٦٠ ، لمجموعة السينمائيين التابعة لجبهة التحرير

ـ « صوت الشعب » ، ١٩٦٠ ، لخرج مجهول ، ويصور واحدة من هجمات جيش التحرير على أحد المراكز الفرنسية ·

ـ « يا سمينة » ، ١٩٦١ (٣٥ مم ، أبيض وأسود) · اخراج جمال شاندرلي ، وتصوير الاخضر حامينا ، وثائقي عن مصير النازحين الجزائريين ·

ـ « بنادق الحرية » ، ١٩٦١ · اخراج جمال شاندرلي وتصوير الاخضر حامينا ، وهو روائي **قصير** ، يحكي قصة احدى صفقات الاسلحة على الحدود التونسية الجزائرية ·

٢ ـ المرحلة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤ :

تأسست في تلك الفترة ثلاثة مراكز للانتاج :

١ ـ مؤسسة الاخبار الجزائرية (١٩٦٣) · أول محاولة للتخطيط في مجال السينما الجزائرية ·

(أنتجت عددا من الافلام القصيرة ، تناولت من خلالها الشعارات الرسمية التي كانت مطروحة في تلك الفترة ، وعالجت مواضيع حملات التوعية التي كانت تنظمها الدولة عندئذ مثل : غرس الاشجار ، النظافة، الحفاظ على الصحة ، محو الامية ···) استلم ادارتها منذ تأسيسها ، محمد الاخضر حامينا ، واعتبرها « حصنه المنيع » ، أنتجت هذه المؤسسة خلال فترة وجودها كمركز انتاج عددا كبيرا من الافلام القصيرة نذكر منها :

وعد تموز ـ النور للجميع ـ مرة اخرى ـ تبحث عن العلم ـ حرب الاكواخ ـ اعتن بنفسك ـ ولكن ··· في يوم من تشرين ـ

Digitized by Birzeit University Library

وقت للصورة ... والافلام الطويلة : رياح الاوراس ، حسن الطيرو ، وكلها من اخراج الاخضر حامينا !! .. بالاضافة الى فيلم « الحاجز » لمحمد بو عماري عام ١٩٦٦ .

٢ ـ المركز السمعي ـ البصري لرينيه فوتييه ، الذي جاء امتدادا لالتزام هذا الفنان المناضل الذي يعود الى بداية النضال المسلح . ومن خلال هذا المركز ، وتحت اشراف فوتييه ، ظهرت « الفيديرالية الجزائرية للسينما الشعبية » ، التي كانت تنظم عروضا في مختلف انحاء البلاد ، تقدم فيها كلاسيك السينما الثورية ، ابتداء من افلام العشرينات السوفييتيه ، وحتى افلام الواقعية الايطالية الجديدة ، مرورا بافلام مثل « ملح الارض » للاميركي بيبرمان، و « هكتاران من الارض » للهندي بيمال روي. وغالبا ما كانت تعقب هذه العروض مناقشات حامية يشارك فيها الحضور الذي كان يتالف في المدينة من جماهير العمال والحرفيين والعاطلين عن العمل ـ واغلبهم من الشباب ـ ومن جماهير الفلاحين في الريف . ولكن هذه التجربة لم تدم طويلا ، فقد اجهضت بعد سنة واحدة من بدايتها ! .

انتج هذا المركز عددا لا باس به من الافلام القصيرة منها : استفتاء ـ لجنة للادارة ـ مشاكل الشباب ـ كوبا .. نعم ـ والفيلم الطويل « شعب يتقدم » وهو فيلم وثائقي يعرض واقع الجزائر في اعقاب الاستقلال (يبدو أن هذا الفيلم قد واجه بعض الصعوبات لعرضه في الجزائر) .

٣ ـ شركة (كاسباه ـ فيلم) : تاسست عام ١٩٦٦ وهي شركة خاصة كان يملكها ياسف سعادي (أحد المقاتلين الذين قادوا التمرد في مدينة الجزائر منذ عام ١٩٥٦ . لم يحدد أي اطار قانوني لهذه الشركة ، ولكن بدا واضحا أن عملها ينطلق من مبدأ الربح (كاية شركة انتاج خاصة) . مولت (كاسباه ـ فيلم) اول انتاج مشترك « معركة الجزائر » للمخرج الايطالي بونتيكورفو كما مولت افلاما اخرى ذات تكاليف عالية : «ثلاثة مسدسات ضد القيصر » ١٩٦٦ لبيتري و « الغريب » لفيسكونتي (١٩٦٧) .

ونذكر أخيرا فيلم « نزاع » الذي اخرجه محمد بو عماري في فرنسا عام ١٩٦٢ ـ وهو فيلمه القصير الاول ـ عالج فيه حياة الجزائريين في فرنسا أثناء حرب التحرير من خلال قصة عامل جزائري يعيش في باريس وقد شكل هذا الفيلم العلامة الاولى للتيار السينمائي الشاب ، ولكنه لاقى توزيعا محدودا جدا سواء في فرنسا او في الجزائر .

٣ ـ مرحلة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧ :

أدى غياب التخطيط الفعال في الفترة السابقة الى تناثر النشاط السينمائي ، وعدم ظهور نتائج تذكر . ولم يطل انتظار رد الفعل طويلا ، فقد جاء تاسيس المركز الوطني للسينما عام ١٩٦٤ تحت اشراف وزارة الاعلام ، كتعبير عن رغبة في المركزية ، أريد منها الوقوف في وجه التناقضات والصراعات الايديولوجية للمراكز السابقة الذكر . وأنيطت بهذا المركز مهمة اعادة تنظيم وادارة كل جوانب النشاط السينمائي في مختلف أنحاء البلاد (الانتاج والتوزيع والاستغلال) ومن أهم المبادرات التي اتخذت في تلك الفترة :

١ ـ تاسيس المعهد الوطني للسينما عام ١٩٦٤ الذي قام بتخريج عدد من السينمائيين الشباب (مرزاق علواش) (سيد علي مازيف) (الامين مرباح) ولكن هذا المعهد لم يلبث أن أغلق عام ١٩٦٧ (مع ولادة الديوان الوطني للتجارة والصناعة السينمائية) ومنذ ذلك التاريخ يضطر الجزائريون للسفر الى خارج الجزائر لدراسة السينما ، مما يجعلهم (خاصة أولئك الذين يدرسون في دول أوروبا الغربية) يخضعون ـ ليس فقط على مستوى الاسلوب وانما على المستوى الايديولوجي أيضا ـ لعدد من التاثيرات التي قد تساهم في ابعادهم عن الواقع الجزائري ، ووضع عراقيل جديدة في طريق بروز الشخصية الوطنية المتميزة للسينما الجزائرية .

Digitized by Birzeit University Library

انتج هذا المعهد عددا من الافلام القصيرة (كان أغلبها مشاريع تخرج) نذكر منها :

« اللص » و « فكرة حميمة » لمرزاق علواش · و « الجنود الثلاثة » لسيد علي مازيف و « اللعبة » لرباح لاراجي ·

٢ ـ تأسيس الارشيف الجزائري للسينما (السينماتيك) الذي ساهم فيما بعد مساهمة على جانب كبير من الاهمية · في دفع الحياة الثقافية في مدينة الجزائر (وسنعود فيما بعد للحديث عنه) ·

٣ ـ جرى عام ١٩٦٤ تأميم دور العرض السينمائية (٢٠ صالة ، ٣٥ مم كلها موروثة من الاحتلال) · وتم ذلك دون الاهتمام بتطوير النوعية الثقافية والاتجاه السياسي للبرمجة ، من خلال تخطيط واضح وهادف · وأوكلت ادارة هذه الدور فيما بعد للبلديات التي كانت تستعمل ايراداتها لتمويل مشاريع أخرى · يصف (غي هايڤل) هذا الاجراء بأنه : « قابل للنقاش ، حيث أن البلديات ترغب قبل كل شيء في كسب المال ، ولذلك فهي تمارس الضغط في سبيل عرض الافلام التي تدر الربح الاكثر وبأكبر سرعة دون أي اعتبار لقيمتها الثقافية أو السياسية » · ولكن للاسف فالافلام التي تدر الربح الكثير في الجزائر ـ وعندنا ايضا ـ هي الافلام الغربية (والامريكية خاصة) ؟!

تميزت هذه المرحلة على مستوى الانتاج السينمائي ببروز الافلام الروائية الخيالية التي تعالج مختلف جوانب معارك التحرير ومن هذه الافلام :

ـ « سلام فتي جدا » للمخرج الفرنسي جاك شاربي (كان ينتمي الى احدى الخلايا التابعة لجبهة التحرير الوطنية العاملة في فرنسا) · انتاج المركز الوطني للسينما عام ١٩٦٥ وحصل على جائزة السينما الجديدة في مهرجان موسكو · وقد شكل هذا الفيلم نقطة البدء لعمل المركز ·

ـ « فجر المعذبين » لاحمد راشدي (جائزة المؤتمر العالمي للسلم في مهرجان لايبزغ) انتاج المركز الوطني للسينما (١٩٦٥) وهو الفيلم الوثائقي الوحيد (بين الافلام الطويلة) لتلك الفترة ويعكس التأثر بنظريات فرانز فانون ويحاول فضح التزييف الاستعماري للحقائق التاريخية من خلال وثائق استقاها المخرج من أرشيف المستعمر نفسه وعالجها بصرامة ايديولوجية ودرجة من الوعي ، ساعده في ذلك التعليق الذي كتبه الاديب المعروف مولود معمري ·

ـ « رياح الاوراس » لمحمد الاخضر حامينا ، انتاج مؤسسة الاخبار الجزائرية ·

ـ « الليل يخاف الشمس » لمصطفى بادي ، انتاج المركز الوطني للسينما (١٩٦٦)، وهو الفيلم الجزائري الاول من نوعه بجرأته حيث طرح جوانب ظلت بعيدة عن متناول السينما الجزائرية فترة طويلة : الدور الانتهازي الوصولي للبرجوازية الزراعية · وشراهة أولئك الاثرياء الجدد الذين ظهروا مع الاستقلال ، ووصول العناصر اليمينية الى بعض مرافق الدولة ، بالاضافة الى الخيبة التي شعر بها بعض المناضلين الحقيقيين أمام الواقع الذي وجدت الجزائر نفسها بمواجهته بعد الاستقلال · ولكن رغبة المخرج بمعالجة عدد كبير من المواضيع في نفس الوقت ، أدت الى طول الفيلم ، تفككه بالاضافة الى وقوعه أحيانا في فخ الميلودراما ·

وفي نفس الوقت ظهر عدد من الافلام القصيرة لمخرجين شباب عبرت الى حد ما عن رغبة في اعطاء السينما اتجاها اخرا ودورا اخرا أقرب الى واقع الجزائر الراهن (أنظر التيار الشاب) نذكر منها :

ـ الحاجز : روائي لمحمد بوعماري (انتاج مؤسسة الاخبار الجزائرية ١٩٦٦)، فضح فيه خضوع المرأة في الجزائر ·

ـ هن : لاحمد لاعلام ، وثائقي ، يصور فيه تحرر الطالبات الجزائريات في المرحلة الثانوية ·

الا ان مواقع المركز الوطني للسينما في الجزائر ما لبثت أن اهتزت تحت تأثير التناقضات [illegible] بالاضافة الى

Digitized by Birzeit University Library

تسرب البيروقراطية الى ادارته . ومن جديد اضطرت السينما الجزائرية الى اعادة النظر في نفسها .

٤ ـ مرحلة ما بعد ١٩٦٧ :

بدا واضحا أن تعدد مسؤوليات المركز الوطني للسينما يشل نشاطه ، لذلك فقد تقرر عام ١٩٦٧ بمرسوم جمهوري تقسيم هذا المركز الى مؤسستين :

ـ المركز الجزائري للسينما ، ومهامه الادارة والتنظيم والرقابة والبرمجة .

ـ الديوان **الوطني للتجارة والصناعة** السينمائية ، وأوكلت اليه مهمات الانتاج والتوزيع :

وهنا بدأت وبحق مرحلة جديدة حددها دور الدولة في الانتاج والتوزيع . وكأية مؤسسة من مؤسسات القطاع العام فقد كانت سياسة الديوان الوطني ونوعية الافلام التي تنتجها تتحدد في كل فترة نتيجة للتوازن الذي كان يحصل بين ضغط التيار التقدمي الهادف للاشتراكية وتطلعاته ، والقوى التقليدية الرجعية والبيروقراطية بكل ادواتها. ولا مجال هنا لتطوير هذه الفكرة ، ولكن اتمنى أن يتوصل القارىء الى استخلاصها بنفسه من خلال استعراض قضية المضمون والشكل في السينما الجزائرية ، ومن خلال آراء ومواقف المخرجين الجزائريين انفسهم والتي سيجدها في نهاية المقال .

قضية المضمون والشكل في السينما الجزائرية :

١ ـ الفيلم الاستعماري :

أثناء الاحتلال . وطيلة الفترة الممتدة من العشرينات وحتى بدء حرب التحرير عام (١٩٥٤) حققت شركات اميركية وفرنسية عددا كبيرا من الافلام ، عالجت كلها تقريبا نفس الموضوع من خلال العناصر الثلاثة التالية :

ـ الاحتلال : وذلك عبر شخصية المحتل ـ الجندي الذي يحرث الارض متنكبا بندقيته ، ويناضل بعناد ضد صعوبة هذه الارض ، وضد ظروف الطقس القاسية ، مؤكدا حقه في العيش على التراب الجزائري .

ـ الوطن المحتل : الشروط الجوية الصعبة، الارض البور ، الجبال والمسالك الوعرة ، المستنقعات والحشرات ، وظفت كلها لابتزاز « نضال » المحتل وشجاعته . أما الشمس الساطعة ، البحر،الارض الخصبة ، بحبوحة العيش ، فقد جاءت تعكس نجاحه المستحق وغبطته بهذا النجاح وأمله في المستقبل السعيد .

ـ المواطن الجزائري : هو أولا ذلك الشرير الذي يجب على المحتل النضال ضده وهو يعطي ملامح اللص قاطع الطرق « ذو البرنس » (وهو لباس تقليدي في الجزائر) ، المتوحش الخالي من الرحمة الذي يقتل ويحرق ، وهو أيضا ناكر للجميل وغير مأمون الجانب ... وثانيا لا بأس من اعطائه أحيانا صفات الانسان الطيب القلب اللطيف ، ذلك انه يثير الشفقة ، وسذاجته تبعث على الابتسام ، وهو بذلك موظف لابراز دور المستعمر بكسر الميم) بنشر الحضارة والتمدن ، وأيضا « لحمايته» من اخوته « المشريرين » ـ أي الثوار ـ .

ولا بد من ذكر الأعمال السينمائية الفرنسية لفترة ما قبل الاستقلال التي تعرضت بشكل أو بآخر لحرب الجزائر من منطلق يختلف عن هذا الذي تبنته السينما الاستعمارية ، وغالبا ما جاء ذلك بصورة عارضة من خلال أحداث بعيدة عن الجزائر ، أما فيلم « أكتوبر في باريس » عام (١٩٦١ ـ ٦٢) الذي حققه « أرمان بانجيل » بشكل سري وبمساعدة مجموعة من الفنيين الفرنسيين . فقد كان الفيلم الطويل الوحيد الذي فضح بوضوح حرب الجزائر والتعذيب الذي كان يلاقيه المناضلون الجزائريون ، وفي عام ١٩٥٩ أخرج غودار فيلمه « الجندي الصغير » الذي تعرض بالعكس ـ للتعذيب الذي كانت جبهة التحرير تستعمله ضد الفرنسيين « في الوقت الذي كانت فيه الـ O.A.S تمارس ارهابها ، كان يجب ، ان تتطرق لتعذيب الـ F.L.N » هذا ما قاله غودار وقتها ولكنه مارس نقده الذاتي وبشكل ديالكتيكي بخصوص هذا الفيلم في السينماتيك الجزائري عام ١٩٦٧ عندما قال :

Digitized by Birzeit University Library

لقد كنت بورجوازيا غير مهتم وغير واع ، كنت لا أفهم شيئا » .

ولنلاحظ هنا أيضا أن « الموجة الجديدة» الفرنسية التي ظهرت عام ١٩٥٨ لم تلتفت الى حرب الجزائر ! .

٢ ـ الفيلم الجزائري :

ـ وجاء الاستقلال . ومعه كان على السينما الجزائرية أن تجيب على أسئلة عديدة طرحتها:

أولا : **طبيعة المرحلة السابقة :**

ولدت هذه السينما أثناء النضال المسلح ، الذي تطلب وجودها وحدد شروط عملها . ما دورها الان ؟ وأية اتجاهات يجب ان تأخذ ؟ . ثم ان اعمال فترة ما قبل الاستقلال لم تكن موجهة للجمهور الجزائري بشكل خاص ، وهذا يفرض ايجاد اللغة الجديدة المناسبة لمخاطبة هذا الجمهور دون الوقوع في فخ السينما الاستعمارية .

ثانيا : **متطلبات المرحلة المقبلة :**

كان على الجزائر بعد الاستقلال ، أن تبدأ عملا ايديولوجيا جبارا ، لمحاربة مخلفات الاستعمار من جهة ، والاستعمار الحديث الذي يهددها من جهة أخرى . وجاءت مهام بناء المجتمع الجزائري الحديث على أسس جديدة ، لتطرح على السينما الجزائرية فيضا من المواضيع الرافدة الفن فقد تميزت سنوات الاستقلال الأولى بحركة جماهيرية واسعة لاسترداد الاراضي التي كانت مغتصبة ، وإقامة أسس الادارة الذاتية للانتاج ، واعادة دفع وبناء الاقتصاد الذي خربته الحرب ، والمنظمة الارهابية الفرنسية (O.A.S) (المنظمة المسلحة السرية) . وفيما بعد ، البناء المخطط للاقتصاد الوطني وتشييد صناعة ثقيلة وطنية ، بالاضافة الى الثورة الزراعية التي شكلت تجربة رائدة وعلى قدر كبير من الاهمية ليس فقط بالنسبة للجزائر نفسها ، وانما لكل دول العالم الثالث.

لقد أردت مما سبق أن أصور للقارىء حجم المهمات التي كان على السينما في الجزائر أن تأخذها على عاتقها ،هذا**اذا** اردات حقا أن تكون امتدادا « للسينما الثالثة » ضمن الوطن العربي ، فمهمة السينما الثالثة هي « أن تكون سلاحا فعالا لقلب المفاهيم ومحركا ومحرضا ايجابيا للجماهير».

٣ ـ حول موضوع سينما الحرب والانتاج أضخم :

« أقول أن هذا الفيلم افريقي . اذا كان قد صنع بأيدي افريقيين ، عن مواضيع افريقية » . اقترح هذا التعريف النقاد الافريقيون المجتمعون في مهرجان قرطاجة ١٩٧٠ . واذا انطلقنا من هذا التصنيف ، نجد أن عدد الافلام الجزائرية الطويلة التي ظهرت بين عامي ١٩٦٢ و ١٩٧١ يصل الى ١٧ فيلما ، ولكن نلاحظ أن بينها ١٤ فيلما تعالج مواضيع تخص حرب التحرير بشكل أو بآخر . ومن بين الافلام الثلاثة الاخرى ، اثنان انتجا في فرنسا : « مكتوب ؟» لعلي غانم و « نجمة في الاسنان » لدري بركاني (الذي يعمل في التلفزيون الفرنسي ويقيم في باريس) والثالث«سفرة لضابط اسرائيلي» لمحمد سليم رياض عن القضية الفلسطينية (أنظر السينمات الافريقية عام ١٩٧٢) .

طبعا كان لا بد من تخليد حرب التحرير الجزائرية ، وكلنا يعلم حجم التضحيات التي قدمها الشعب الجزائري للحصول على استقلاله . وعلى السينما بالتأكيد أن تستلهم هذه الحرب ، وأن تساهم في تخليد ذكراها ولكن المشكلة ان هذا الموضوع قد احتكر فعلا الانتاج السينمائي ، وبدا فيما بعد أنه استخدم بشكل ما لتحويل السينما الجزائرية عن المشاركة في معركة البناء التي تواجهها الجزائر بالاضافة الى منعها ايضا من خلق نفسها كسينما وطنية متميزة .

ان سينما الحرب بطبيعتها تتطلب اصلاحات وقيودا خاصة للاسلوب ، بالاضافة الى طريقة السرد ، والميتولوجيا ، والاجواء الدراماتيكية المميزة ، والتي اعتاد عليها المتفرج الجزائري الذي تربى تاريخيا على القراءة المثابرة للسينما الاميركية و الفرنسية (وليس افضلها غالبا) . ان سينما الحرب التي تحكي قصة المقاومة ، ليس لها معنى الا اذا شكلت مرحلة من مراحل المسيرة الثورية

Digitized by Birzeit University Library

(سينما الحرب السوفيتية مثلا) · لقد كان الشعب الجزائري يحـــارب بالبندقية ، ولكنه اليوم يخوض حربا مختلفة ، وعلى السينما أيضا أن تحارب معه ، كما فعلت بالامس · ومع الاسف جاءت اكثر الافلام الجزائرية (التي عالجت الحرب) متأثرة الى حـــد بعيد بالاسلوب الغربي وخاصة الهوليودي : القراءة السطحية للموضوع ، الميلودرامية ، اظهار البطولة الفردية بشكـــل يقترب من الخيالي ، التكاليف العالية ، اللعب بنظـــرة المتفرج وعواطفه عن طريق الابهار ، والاخطر من ذلك غياب التحليل العميق والمرتكز على خلفية ايديولوجية واضحة العالم · كل هـــذا يظهر الجانب الخطر لهذه الافلام ، التي تدفع المتفرج للانغلاق على نفسه بنوع من الرضى الذاتي والتفاخر بالماضي مما قد يساهم فـــي دفعه الى الابتعاد عن المشاركة الفعالة فـــي عملية الصراع اليومي ·

استلم أحمد راشدي ادارة الديوان الوطني منذ تأسيسه ، واستلم الاخضر حامينا ادارة مؤسسة الاخبار الجزائرية منذ تأسيسها ، وسرعان ما اظهرا نوعا من التسلط على انتاج هاتيـــن المؤسستين متناسيين أن السينما الجزائرية يجب أن تنطلق من كونها سينمـــا فتية لدولة حديثة الاستقلال · ففي مقـــال نشر في مجلة « الجيش » كانون الاول ١٩٧٠ عن السينما الجزائرية جاء ما يلي «الافضلية معطاة للمواضيع التي تعالج حرب التحرير، كما لو أن الثورة الجزائرية قد تجمدت عام ١٩٦٢. وهكذا نجـــد السينمائيين وكأنهم يمارسون نوعا من الرقابة الذاتية الخطيرة جدا على نوعية افلامهم· بالاضافة الى ذلك فان فرض البيروقراطية غير الضرورية والتي تقف حائلا امام هؤلاء السينمائيين ، يخـلق بيئة غير صحيحة ، فتراهم يشهدون (دون القدرة على التدخل) تلاعب المسؤولين ، وخنق بعض المشاريع ، بينما يجري التبذير وبـلا حدود لصالح مشاريع أخرى ، فالافلام التـي تتطلب ميزانية ضخمة تشكل المجال المحجـوز للمدراء الذيـــن لا يوفرون شيئا : كتاب السيناريو المختصون ، الوسائل الهوليودية ، الشهرات العالمية » ·

يثير هذا المقـــال جانبا على درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة للتجربة السينمائيـــة الجزائرية ، لقد تخلى راشدي وحامينا عـن اتجاه سينما العالم الثالث التي ظهرت الى حد ما بعد الاستقلال ، ليتوجها للانتاجـات الضخمة ، التي ربما ارادوا منها منافسة الانتاج الغربي القائم على أسس رأسمالية احتكارية · ولا يخفى على أحد العوائق التي تضعها هذه السياسة في وجه المخرجيـــن الشباب المتطلعين الى سينما مختلفة نابعة من الواقع · ان انتاج فيلم (سنوات الجمر) مثلا احتكر القسم الاكبر من مخصصات الانتاج لمدة عامين على الاقل ، وكلف اكثر من عشرة أضعاف فيلم (**الفحام**) لبوعماري ولا مجال للمقارنة بين مضمون الفيلمين ·· !

أما أحمد راشدي ، فقد جاء فيلمه الاول « شعب على الطريق » الذي كان عملا جماعيا لمركز السمعي البصري ١٩٦٣ كوثيقـــة سوسيولوجية وسياسية عن الوضع الجزائري في أعقاب الاستقلال (بالرغم من كونه عاديا على مستوى الشكل السينمائي) · كما جاء « فجر المذنبين » (١٩٦٥) كذلك وثيقـــة وشاهدا لنضال العالم الثالث · ولكن فيلمه الثالث الطويل « الافيون والعصا» (١٩٦٩) فقد حمل كل سمات الالية الهوليودية · وتعمد المخرج بشكل واضح استعمال كل « طبخات » فيلم الحركة « على الطريقـــة الاميركية » والفيلم البوليسي أو فيلم الحرب ، هادفا من ذلك جذب الجمهور ، وقد نجح الفيلم مـــن وجهة النظر هذه ، ولكن « من أين لعمل فني صنع على الطريقة الاميركية أن يخلق قيمـا جمالية جزائرية حقة » ·

يقول راشدي : يجب أن نصنع أفلاما عن الثورة المسلحة ، لان منذ خمسين سنة حتى الان (الحديث عام ١٩٦٩ وكان مديرا للديوان الوطني) لم ننتج افلاما حقيقية عن المقاومة، جمهورنا يحب أفلام الكاوبوي · انه ينتظـر أفلام الحركة ·

Digitized by Birzeit University Library

وعن السؤال : هل تفكرون بأفلام اجتماعية؟ اجاب : نعم ولكن ليس حاليا ، ربما استطعنا بعد حين أن ننتج أفلاما عن الحياة الاجتماعية في الجزائر ، ولكن اولا يجب «نعلب الثورة الجزائرية وهذا مهم جدا ٠»

واذا استرجعنا أعمال الاخضر حامينا ، نجد أنه بعد أن حقق عددا كبيرا من الافلام القصيرة ، والتي كانت على مستويات مختلفة من الاهمية ، جاء فيلمه الطويل الاول « رياح الأوراس » الذي برهن فيه عن مهارة سينمائية لا تقبل المناقشة ، وكان عملا متكاملا ومتميزا بحق ٠ الا ان « السمات الجمالية والانسانية التي حملها (رياح الاوارس) ربما كان لها الدور السيء في جعل المعاني الايديولوجية لهذا الفيلم ـ الذي أراد أن يكون أيضا شهادة عن حرب التحرير ـ تتلاشى قليلا ، وأول ما يلفت النظر هنا أن رد فعل المرأة ، أي بطلة الفيلم ـ وقد أدت دورها الممثلة كلثوم باتقان منقطع النظير ـ لا يطابق موقف العديد من النساء الجزائريات اللاتي قدمن متطلبات الثورة على المهن الخاصة » ، ومن جهة اخرى فقد أشار بعض النقاد وعن حق الى أن جمالية (رياح الأوارس) تذكر حينا بالواقعية الجديدة الايطالية ، وحينا اخر بسينما العشرينات السوفياتية ، مما يجعلنا نعتقد أن هذا الفيلم بالرغم من روعته فانه « لم يساهم في خلق جمالية وطنية اصلية » ٠

أخرج حامينا بعد ذلك فيلم « حسن الطيرو» عام ١٩٦٧ ، وكان حصيلة اعداد سينمائي لمسرحية شعبية ، قدم حامينا خلاله عددا كبيرا من التنازلات على المستوى السينمائي، لم تخل من بعض « الديماغوجية » ، ليثبت أنه قادر على تقديم سينما « شعبية » ٠ ولذلك فقد أظهر هذا الفيلم تراجعا كبيرا بالنسبة لفيلمه الاول (رياح الأوارس) ، وفي عام ١٩٧٢ أخرج فيلم «ديسمبر» عالج من خلاله الصراع النفسي لضابط فرنسي يقوم بتعذيب أحد الثوار الجزائريين ، وجاء مضاهيا للافلام الاوروبية ذات الميزانية العالية وخاليا من كل جديد على مستوى الاسلوب ٠

وكان انتاجه الاخير « سنوات الجمر » انطلاقة أخرى بدون شك ولكنها قاصرة أيضا عن اعطاء أي جديد ٠ (سأعود الى هذا الفيلم فيما بعد) ٠

لنذكر أخيرا وفي مجال التأثر بالاسلوب الغربي بعض المقاطع من فيلم مصطفى بادي « الليل يخاف الشمس » ، على الرغم من أهميته التي ذكرتها مسبقا ٠ والفيلم الكوميدي « عطلة المفتش طاهر » لموسى حداد ، و « الخارجون عن القانون » لتوفيق فارس الذي جاء تقليدا لاسلوب افلام الكاوبوي الاميركية ٠

٤ ـ التيار الشاب :

جاء في مقال اخر لمجلة « الجيش » ظهر في نهاية عام ١٩٧٠ : « التوصل الى اكتشاف تطلعات الجماهير بواسطة تحليل عميق وصارم ، هذه هي مهمة السينمائيين الان ٠ يجب على هؤلاء الاشارة الى الجوانب التقدمية وفضح الهجمات الرجعية التي نلحظها في بلادنا وذلك للتوصل الى تشجيع سينما وطنية ثورية وغير تجارية » ٠

ويتمنى حليم مقداد في جريدة المجاهد (٥ تشرين الثاني ١٩٦٩) أن تستلهم السينما الجزائرية تجربة السينما السوفييتية في العشرينات اي ان تتناول مشاكل الثورة ٠ ويلاحظ أن الافلام القصيرة والوثائقية هي الموحيدة التي اهتمت حتى هذا الوقت بمسائل تخص الواقع الحالي ٠ وأن السينمائيين الشباب يبدون اكثر اهتماما بالقضايا الاجتماعية من أسلافهم ، ويتمنى ان يأتي التجديد انطلاقا من الاخذ بعين الاعتبار للواقع الحالي ، وأن يولد اللغة المميزة والشخصية الفنية التي ما تزال السينما الجزائرية تبحث عنها ٠

ويقول المخرج سيد مازيف متحدثا عن فيلمه القصير « اللقاء »(واحد من الاكتشافات التي يتألف منها فيلم « الجحيم في سن العاشرة ١٩٦٩) : ان المتفرجين من الشباب قد اهتموا بمأساة الفلاح الشاب المهاجر من الريف اكثر من اهتمامهم بحكاية الحرب ٠

Digitized by Birzeit University Library

كل ذلك يظهر أن الاتجاه الذي اخذته السينما الجزائرية حتى تلك الفترة لم يكن يتفق مع أهواء الجميع ·

لقد حمل ما يمكن تسميته بتيار السينما الشاب منذ البداية على الجوانب الديماغوجية لسينما الحرب ·

ولسينما الواقعة تحت سلطان النزعة الاكاديمية ، والتي كانت حتى الان مستلبة الشخصية · لقد أراد السينمائيون الشباب لاعمالهم ان تنطلق من الواقع لتعود اليه · وغالبا ما جاء تطلعهم هذا انعكاسا لالتزامهم بخط ثوري ولايمانهم بدور السينما في معركة البناء الحالية · لذلك فقد كانت المواضيع تعالج من زاوية سياسية تحليلية بعيدة عن التأثيرات الخارجية (الابهار والوسائل الضخمة) ، وهنا يجب تقييم النتائج من خلال اعادة النظر بظروف العمل السينمائي لكل فترة والامكانيات التي كانت تعطي لهؤلاء السينمائيين ، بالاضافة الى درجة الحرية التي كانوا يتحركون ضمنها · ولم ينج هؤلاء بالطبع من أثقال السياسة السينمائية المتبعة ، الا انهم واجهوها برغبة واضحة لتحرير التعبير السينمائي الشكلي والايديولوجي لصالح سينما وطنية اصيلة ·

من الاهمية بمكان توضيح القصد من تسمية هذا التيار بالشاب ·· طبعا الشباب هنا لا يقاس بالسنين وانما بتلك الرغبة بالالتصاق بالواقع التي اشرت اليها ·

ولا اقول ان هذا التيار يتميز بعدم معالجة موضوع حرب التحرير ، لقد قام بذلك وتناول الوضع قبل الاستقلال (نوه ـ بني هندل ـ ريح الجنوب) ، الا ان معالجته لتلك الفترة جاءت مرتكزة على تحليل سياسي غالبا واضح المعالم، يجعلنا نتفهم تواصل الماضي والحاضر ، أي امتدادات الماضي الى الواقع الحالي ، وليس فقط الاستعراض الحيادي لاحداث الماضي · وكل ذلك بأسلوب سينمائي خال الى حد ما من التأثيرات الفردية وغيرها·

في فيلم « الطريق » (١٩٦٨) ، يحكي سليم رياض قصة الصمود ، والحفاظ على الكرامة الوطنية من خلال تتبع الحياة اليومية ، وعلى مدى ست سنوات ، للسجناء الجزائريين في أحد سجون المحتل (وكان سليم رياض أحدهم) ، في معالجة مباشرة بعيدة عن الاستعارات الاسلوبية المستوردة وبعيدة عن المشاعر المزيفة · وبالرغم من بعض المآخذ على الاخراج وخاصة ادارة الممثلين فقد كان « الطريق » يتوضع عبر تحليل سياسي عميق وعرض بعيد عن السطحية (نال الفيلم جائزة تقديرية في طشقند)

محمد بو عماري و « الفحام »

منذ بدايات سينما ما بعد الاستقلال ، لاحظنا أفلاما متميزة يمكن اعتبارها جذورا للتيار الشاب ، ولا شك أن المخرج محمد بو عماري يأتي في طليعة السينمائيين الذين أدركوا وبعمق واجبات السينما الجزائرية في هذه المرحلة ·· يقول بو عماري متحدثا عن فيلمه القصير « نزاع » (١٩٦٢) : «يجب علينا أن ننطلق من واقعنا وان نبحث بعدها للتعبير عنه بطريقة خاصة بنا · وبذلك سنتوصل شيئا فشيئا الى خلق جمالية جزائرية · وان السخافة تقليد السينما الامريكية أو غيرها » · وحول فيلمه التالي « الحاجز » (١٩٦٦) قال : « أردت ارغام الناس على التفكير مظهرا لهم عقم بعض التصرفات وبعض التقاليد » · طبعا كلام بو عماري واضح ويمكن أن يشكل بحد ذاته تعريفا لما أردت تسميته بالتيار الشاب · كما أننا وبقليل من « التمحيص »نستشف رفض بو عماري للاتجاه الذي اتخذته السينما الجزائرية في تلك الفترة : (نقد التقليد ، ضرورة الحديث عن الواقع ، فضح الرجعية المحلية ومخلفات الاستعمار ، ايمانه بضرورة خلق جمالية متميزة أصيلة) ، بالاضافة الى ميله لاستخدام أسلوب بعيد عن التأثير الخارجي ـ **العاطفي** ، أسلوب « يدفع الناس للتفكير » ·

وطبعا لم تخل مسيرة هذا المخرج من الصعوبات · وهنا نعود مرة أخرى لطرح المعادلة الصعبة التي تضع في طرفها الاول واقع البنية التنظيمية التي هي بدورها

Digitized by Birzeit University Library

انعكاس لواقع ايديولوجي - سياسي - اجتماعي ، وفي الطرف الآخر نوعية العمل الفني المطروح .. لقد أراد بو عماري « السماء والأعمال » (١٩٦٧) فيلما طويلا يفضح من خلاله الشعوذة وتخريب تجربة الادارة الذاتية في مجال الزراعة ، وجوانب اخرى للهجمة الرجعية ومخلفات الاستعمار . الا أنه واجه مقاومة عنيفة من قبل بعض المسؤولين في ذلك الوقت ، انتهت به الى فيلم قصير خال من أكثر معانيه وأفكاره الاصلية .

وتأكدت شخصية بو عماري وبوضوح أكثر في فيلمه « الفحام » (١٩٧٢) والذي أنتجه الديوان الوطني . والفحام هو هذا الانسان الذي اعتاد الغابة .. يحرق شجرها ليبيعه فحما ويعيل أسرته . يعيش في قرية تبدو بعيدة عن كل ما يجري حولها .. وعندما يداهمه التطور الصناعي حاملا الغاز والبترول يصطدم الفحام بالحقيقة الجديدة . لم يعد يستطيع بيع انتاجه . يدفعه ذلك الى المدينة ليعمق من شدة الصدمة . انه يعيد النظر في نفسه ، في وضعه ، ويبدأ باكتشاف ما يجري . كانت الثورة قد نسيته ، ولكنه يلقاها الان ، وها هي امرأته تنزع حجابها وترميه أرضا .

أسلوب ساحر حقا . تصوير كوخ الفحام في القرية ، عمله ، زوجته التي لا تفهم الثرثرة التي يرسلها المذياع الصغير - في برنامج المرأة كانت المذيعة مندفعة في شرح طريقة تحضير « الكاتو بالكريم » وأشياء من هذا القبيل ! - انها السينما التي تحاكي فكر التفرج ، تزعجه ، تقلقه وتجعله يتساءل ويعيد التساؤل .

وحتى عندما يتعرض بو عماري للحرب ومخلفاتها ، كما في فيلم « الارث » (١٩٧٥) نراه يعري جذور الاقطاعية ، والتي لم تقتلع كلها بعد الاستقلال ، بل ظلت تحاول الامتداد . هي أيضا تشكل جزءا من الارث الذي خلفه الاستعمار . ربما كان صحيحا أن هذا الفيلم جاء الى حد ما مبهرا للانظار ، خاصة باستعماله الالوان على عكس « الفحام » الذي صور بالابيض والاسود وبتكاليف قليلة جدا ، الا أن هذا لا يجعلنا نفقد الثقة بهذا المخرج المبدع .

دور التلفزيون :

نحن على ابواب ١٩٧١ .. يبدو واضحا أن التطور المستمر للواقع الجزائري من خلال حركة وديناميكية الثورة الجزائرية (التأميمات .. التصنيع . وعلى الاخص الثورة الزراعية) يزيد من الضغط على قوقعة ما يسمى بالبنية التنظيمية ، محاولا تفجيرها لصالح السينما الحقة . وفعلا جاء التجديد من التلفزيون الذي كان بمثابة المنطقة الضعيفة لتلك القوقعة . فوجود ادارة لا تمثل اتجاها ايديولوجيا متزمتا ، وسينمائيين متحدين الى حد ما ، وقادرين على التأثير في اتجاهات الانتاج ، ثم توفر الامكانيات الخفيفة - كاميرات ١٦ مم وتكنولوجيا خفيفة - دفع التلفزيون الى أن يصبح أداة انتاج سريع لافلام استطاعت أغلبها في البداية المشاكل الزراعية . ومن خلال ذلك ظهر فيما بعد مجموعة من المخرجين الذين تميزوا بارادة واضحة بالاستعاضة عن الاسلوب السطحي والمبهر للاخضر حامينا ، بأسلوب محرض داع ،وعن الملاحم والافلام الضخمة التي تمجد نضال الامس ، بأفلام تعالج الحياة اليومية ، والافلام « المناضلة » . انها الرغبة بخلق سينما يمكن أن يقال عنها فعلا أنها ذات تطلع اشتراكي .

بدأ هذا المشروع لعمل ١٢ فيلما عن الثورة الزراعية ، ولكنه أوقف فيما بعد الى أن أتيح له التنفيذ - وبمساعدة من رئاسة الجمهورية بمناسبة الذكرى العاشرة للثورة - ، وكانت أفلام طولبي ومرباح وحداد عن الثورة الزراعية التي ساهم نجاحها في صياغة مشاريع أخرى ذهبت أكثر فأكثر في طريق التحليل السياسي للواقع وترسيخ القواعد لانطلاقة جديدة للسينما الجزائرية .

« نوه » لعبد العزيز طولبي :

١٩٧٢ ، انتجه التلفزيون ، استمر

Digitized by Birzeit University Library

تصويره ثلاثة أشهر وبتكاليف رخيصة جدا ، كان واحدا من أهم الافلام التي أكدت أصالتها وتمايزها عن كل الاعمال السابقة وليس فقط التلفزيونية . يقول طولبي : « لم تأت كل مصاعب الجزائر من الاستعمار . لقد أردت أن أفضح جوانب النقص في بنائنا الاجتماعي ذاته ، لكي يجري اصلاحها . لقد رحل الاستعمار ولكنه ترك أعوانه : الاقطاعيين يجب اقتلاعهم . الان . علينا ، نحن الفنانين، أن نكون في الطليعة ، وان نساعد الجماهير كي ترى أوضاعها بوضوح ، ولذلك يجب الا نتردد في نقد عيوبنا وهذا ما سيساعدنا على ايجاد شخصيتنا الثقافية الحقيقية » . ولادراك أهمية هذا الفيلم رأيت ان اقتطف هذا المقطع ـ الطويل ـ من تقديم (قيس الزبيدي) له في نشرة النادي السينمائي بدمشق رقم ٢٢ : « لا شك أن طولبي يعرض في هذا العمل الفني الاصيل وثيقتين نادرتين عن المجتمع الجزائري ، أولهما فنية ـ روائية (تاريخية) ، وثانيهما تسجيلية ـ فنية (معاصرة) . و (نوه) هو حاصل وحدة وتناقض هاتين الوثيقتين ، فالفيلم يتناول الظروف الاجتماعية العسيرة التي نشأت في قلبها حرب التحرير الجزائرية . اي بمعنى أنه فيلم عن (تاريخ) الجزائر . غير أن العناصر التي يشكل منها هذا (التاريخ) ، ويعيد بناءه ، تخص مظاهر التخلف الاجتماعي الحالي الذي لم تصل اليه بعد التحولات الاجتماعية الناتجة عن انتصار الثورة . وصحيح أن مظاهر هذا التخلف الحالي في الريف الجزائري ليست تماما بالشكل الذي يعرفنا به الفيلم ، لان هذه المظاهر موظفة فنيا في صياغة بناء الماضي وتناقضاته الطبقية الحادة ، لكنها مع هذا موجودة ، وتضمينها الفني بشكله التسجيلي هو دعوة ثورية لتغييرها .. ويحدد الفيلم الطبقات التي ارتبطت مصالحها بمصالح النظام الامبريالي الفرنسي ، وكانت الواسطة الطبقية القوية في بسط نفوذه ، يحدد هذه الطبقات بالاقطاعيين والاجهزة البيروقراطية وبرجال الدين والشيوخ وبقوى الامن والدولة، غير أنه لا يقف عندها ، انما يتعرض أيضا لتلك القطاعات من البرجوازية الجزائرية التي تعتبر الابن الطبيعي للاقطاعية الكبيرة ، والتي كان بوسعها تاريخيا التكيف مع ظروف الاستقلال الوطني لكي تضمن مصالحها الطبقية المقدسة » .

لم يرد طولبي لفيلمه أن يكون « واقعيا » بالمعنى الكلاسيكي المسرحي الذي لا يخلو من الديماغوجية ، وانما أراده عملا جماعيا يقدم من خلاله بأسلوب « بريختي » حوادث رئيسية جاءت بمثابة الايقاع للفيلم ، تقوم ببطولتها فلاحة جزائرية عجوز وتترجم الاطوار المختلفة للقمع الذي تعرضت له المرأة الجزائرية . انها بمثابة « الرواية » التي « تولد المعاني » وتحكي بلسان المخرج والفلاحين ، وليست أبدا شخصية خيالية . (نوه) اذا يشكل حقا عملا (آخرا) ، انه عمل تعليمي ، متكامل جماليا ، وفاعل اجتماعيا ، يتجاوز الماضي ليصل الى الواقع الحالي بعملية ديالكتيكية آخاذة .

الواقع الجزائري عبر السينما :

لي وقفة قصيرة عند مسألة اختيار الافلام لاسبوع السينما الجزائرية في دمشق. طبعا من المؤسف أن تكون الفرصة الوحيدة المتوفرة لنا حتى الآن لرؤية أفلام جزائرية ، تنحصر في أسبوع للافلام أو في عرض للنادي السينمائي . هذا غير طبيعي . متى سنتمكن من رؤية صالاتنا تفتح أبوابها للجمهور الواسع عارضة له أفلاما جزائرية وتونسية ومغربية ـ وليس فقط تلك التي حصلت على جوائز في مهرجانات مشكوك في صدقها !! ـ ؟ . متى ستتمكن السينما من أن تقوم بمهمتها كأداة تواصل بين الشعوب ؟ .

ما الذي قدمته لنا أفلام الاسبوع من معطيات تسمح لجمهورنا بتفهم جوانب الحياة الجزائرية .. الحياة اليومية للناس العاديين؟ كيف تسير الامور في الجزائر ؟ . السينما لها كلمتها في هذا الشأن . ولكن افلام الاسبوع لم تفسح لها حرية التعبير ـ أستثني طبعا كلمة « عمر قتلاتو » لمرزاق علواش وبعض المقاطع من كلمة « ريح الجنوب »

Digitized by Birzeit University Library

لسليم رياض – ولا أقلل طبعا من أهمية بقية أفلام هذا الاسبوع ، وعلى الاخص « بني هندل » للامين مرباح · ولكنني واثق أن التجربة الجزائرية وافرة الغنى · وأن جمهورنا متعطش لمعرفة المزيد عن هذا القطر العربي البعيد · – لماذا لم تتح لنا الفرصة لرؤية الافلام القصيرة الوثائقية مثلا ، أو « نوه » أو « الفحام » أو حتى « الطريق » ؟ – اني واثق أن جمهورنا قد مل محمود ياسين وطبلته ومزماره · لقد أن لنا ان نتعود لهجات عربية أخرى غير العامية المصرية · في رأيي أن اللغة في الفيلم الجزائري تثير موضوعا على غاية من الاهمية · الا تعتقدون معي أن اللهجة المصرية قد سكنت أذهاننا وأننا نتململ عندما نرى عملا سينمائيا عربيا يحكي بلهجة غير مصرية · تصوروا أن الجمهور ضحك بسخرية من لهجة محلية سورية استعملت في أحد افلامنا « مطلوب رجل واحد » · الا ان هذا الجمهور مستعد لتقبل اللهجة الصعيدية بكل تنويعاتها · وبشكل طبيعي · كما أن لنا أن نطلع على مسيرة القطر الجزائري الجادة والصعبة – وأعتقد أننا وصلنا الى درجة من النضوج تسمح لنا أن نقول رأينا في تلك المسيرة ، وأن نقارنها ايضا ، ولم لا ، بمسيرتنا نحن – ·

« بني هندل » والارض في السينما الجزائرية :

لنعد الى الجزائر ·· لم يتعود السينمائيون الجزائريون العمل داخل الستوديوهات واستعمال الديكورات · بل حملوا عدتهم وخرجوا الى الواقع · والملاحظ أن السينما الجزائرية هي حقا سينما الريف· الكثير بل الاكثرية من الافلام صورت في الريف ، في القرى ، مجدت الارض · تلك الارض الجزائرية التي كانت تزرع بالموت المتجدد ، ها هي اليوم نفسها تبحث عن الاستمرارية · عن الحياة الجديدة · « بني هندل » للامين مرباح أعطانا صورة مدروسة الابعاد لآلية الاستيطان الفرنسي في الريف الجزائري · المدهش في هذا الفيلم هو وضوح الرؤيا عند المخرج · انه يفكك الامور ويعيدها الى بساطتها الاولية · المستوطنون الفرنسيون ، جشعهم ، وأحلام كل منهم بمزرعة ضخمة وبيت ضخم – وكم ينطبق ذلك وحتى يومنا هذا على عقلية البرجوازي الفرنسي الصغير ، الذي يحلم بمزرعة ضخمة وبيت ضخم – كيف سيتوصل هؤلاء المستوطنون لتحقيق احلامهم واستلاب أرض بني هندل الخصبة ؟ · وكيف يضطر هؤلاء في النهاية الى الهجرة الى المدينة ، بعضهم يجد عملا ويبقى · والآخرون « يعودون » لا نعلم الى أين · تلك المجموعة من الافراد التي عاشت دائما ملتحمة مع بعضها ، اضطرها الاستعمار الى الانقسام والتشتت · في رأيي – وأتحمل مسؤوليته – أن «بني هندل» يفوق«سنوات الجمر»من حيث قيمة المضمون · فنحن هنا أمام تحليل على قدر عال من الوضوح ·· نحن هنا نفهم ، ونقتنع ، بعدد من معطيات الواقع الاستعماري ومخلفات هذا الواقع على الحياة الجزائرية المعاصرة ··· جذور المسألة الزراعية في الجزائر ·· أصل البروليتاريا في المدينة التي كانت مسحوقة زمن الاحتلال ·· بداية ظهور طبقة المشايخ الاقطاعية المتحالفة مع الاستعمار وطبيعه هذا التحالف وأسسه المادية · أصل تفكك الروابط القبلية وانعكاساتها على المستوى الاجتماعي ·· كل هذا وبأسلوب بسيط هادىء متزن و ·· جميل ·· ولا تعتقدون أنني اتحامل على حامينا اذا قلت أن هناك في«بني هندل» جمالية تفوق جمالية«سنوات الجمر»وتتقدم عليها ، لانها لم تكن هدفا بحد ذاته بقدر ما كانت لخدمة المضمون ·· ان هدوء الكاميرا عند الامين مرباح يجعلك تحس أنه يدرك أن تلتفت الى ما يجري خلف الصورة وأحيانا الصورة نفسها ·· على عكس حامينا ! – ·

والارض في السينما الجزائرية لا يمكن أن تنفصل عن الثورة الزراعية التي جاءت لتعيد اليها قدسيتها ·· وأفلام طولبي ومرباح وحداد عن الثورة الزراعية بالاضافة الى كونها بداية انطلاقة التلفزيون كأداة انتاج فعالة ، جاءت لتواكب هذه الثورة ، داعية لها ، محرضة على المشاركة العملية فيها ·

Digitized by Birzeit University Library

ولا أبالغ اذا قلت أن الثورة الزراعية كانت في السنوات الاخيرة الشغل الشاغل للجزائريين ، ومن المؤسف أننا نعيش هنا نوعا من الجهل بتلك التجربة التي تمس حياة حوالي سبعة ملايين فلاح فقير ، أي ما يقرب من نصف الشعب الجزائري . تمت هذه الثورة - التي بدأت عام ١٩٧٢ - على ثلاث مراحل : اعادة توزيع للارض ، بدء بناء الف قرية اشتراكية نموذجية (نوع من التعاونيات الانتاجية) ، توطين الرحل . وفي فيلم « الرحل » ١٩٧٦ يتناول « سيد علي مازيف » المرحلة الثالثة - أي خطة توطين الرحل،ويبدو أنه حصل على امكانيات لا بأس بها لتحقيق هذا الفيلم الذي جاء متأثرا على مستوى الكتابة السينمائية بالمدرسة الواقعية الاشتراكية . ولكنه بالرغم من الجمالية التي تميز بها فقد « اختار السهولة متجاهلا الى حد ما التعقيدات والصعوبات التي تواجهها هذه الخطة » . ولا ننسى التصاق الفلاح الجزائري بارضه الذي عكسته رائعة طولبي « نوه » وخاصة في مشهد الفلاح الذي يقف في طريق الجرار الذي يغتصب أرضه ويرميه بالحجارة - سلاحه الوحيد - . صورة الفلاح الجزائري قلما يخلو فيلم منها .. الوجه المتعب المزروع بالالم والمعاناة .. « نوه » « بني هندل » ، « الفحام » .

العامل الجزائري ومشكلة الهجرة:

وبالمقابل يمكن القول أن صورة العامل لم تظهر بشكل واضح في الافلام الجزائرية . وقد يعود ذلك للتركيبة الحقيقية للواقع الجزائري ، الا أن هذا لا يكفي لتبرير تلك الحقيقة . والحديث عن العمال لا بد أن يقودنا الى مشكلة الهجرة ، فكلنا يعلم أن عدد العمال المهاجرين الجزائريين في اوروبا - وعلى الاخص في فرنسا - يقاس بالمليون، وهم يعيشون ظروفا على غاية من الصعوبة ويعانون من استغلال بشع من قبل الرأسمالية الاوروبية .

« علي غالم » أحد هؤلاء العمال الذين يعيشون في فرنسا ، استطاع وبمعجزة - بعد أن عمل مساعد مخرج لعدد من المخرجين الفرنسيين وخاصة مع كلود شابرول - أن يخرج فيلمه الاول « مكتوب » عام ١٩٧٠ ، يعري فيه ، وبطريقة متأثرة بالواقعية الجديدة ، الحقيقة المرة التي يلاقيها عامل جزائري مهاجر عند وصوله الى فرنسا . وعلى الرغم من ضعف الاسلوب كان هذا الفيلم الاول من نوعه الذي طرح مشكلة الهجرة ، وواقع العمال المهاجرين في فرنسا (أعتقد أن « مكتوب » لم يوزع في الجزائر تجاريا) . وفي عام ١٩٧٥ أخرج علي غالم فيلمه الثاني « فرنسا الاخرى » يظهر فيه الجانب الآخر لفرنسا .. للنظام الرأسمالي . العنصرية ، الاستغلال اللاانساني . حقيقة هذا الاستغلال وصوره المختلفة ثم طبيعة المشاكل التي يعاني منها العامل الجزائري هناك ، على المستوى الانساني الاجتماعي والاقتصادي . ويعاني هذا الفيلم حتى الآن من عقبات متعددة تمنع من توزيعه في فرنسا وقد عرض في السينماتيك الجزائري فقط ولا أدري اذا كان قد وزع في الجزائر (كان بو عماري قد تطرق لواقع العمال الجزائريين في فرنسا قبل الاستقلال في فيلمه « نزاع » الذي أخرجه في فرنسا ، ويمكن أن نرى في « مكتوب » و « فرنسا الاخرى » امتدادات هذا الواقع بعد الاستقلال) ولكن « العرق الاسود » والذي أخرجه سيد علي مازيف عام ١٩٧٢ يضعنا هذه المرة أمام العمال الجزائريين في الجزائر نفسها .. يحلل مازيف العوامل التي أدت الى نمو الوعي عند عمال أحد المناجم في (ونزا) ، الذين يقومون باضراب عام ١٩٥٤ . ويبين فيه تواطؤ النقابات والقمع الاستعماري بالاضافة الى بؤس هؤلاء العمال والاحتقار الذي يظهره الفرنسيون في تعاملهم معهم .

وعلى مستوى آخر يعالج « الشبكة » لمصطفى تومي وغوطي بن ددوش ، اضراب صيادي الاسماك في أحد الموانىء الجزائرية، الا أن هذا الفيلم يشكو من عدم وضوح التحليل العلمي (الوعي الطبقي للعامل يتحرك بعد لقائه مع فتاة جذابة اثر حادث

Digitized by Birzeit University Library

سيارة) ، ومن الاسلوب الذي لا يخلو من الميلودرامية والهوليودية الرخيصة (بروز الدور الفردي للبطل وامرأته ، مشاهد المعركة التي يخوضها العمال ضد رب العمل وأزلامه) .

« ريح الجنوب » والمرأة في الفيلم الجزائري :

بقي أن نرى كيف حاولت السينما الجزائرية الاقتراب من الواقع المعاصر والهموم المعاصرة للجزائر الحية النشطة . لعل أول ما يلفت نظرنا في الفيلم الجزائري هي صورة المرأة . فأفلام حرب التحرير أظهرتها غالبا كعنصر فعال في الثورة ، تشارك الرجل وتقوم بدورها في العمل « الارث » ، « نوه » ، « الفحام » ، « المنطقة المحرمة » (بينما ظهرت عنصرا حياديا أو سلبيا في فيلمي حامينا « سنوات الجمر » و « رياح الاوراس ») وبعد الاستقلال بدت المرأة كواحد من ضحايا الواقع المتخلف الموروث عن الاحتلال ، هذا الواقع الذي جعلها ـ وخاصة في المدينة ـ عنصرا خاضعا مستغلا . و « الحاجز » لبو عماري (١٩٦٦)، يفضح هذا الخضوع . أما أحمد لاعلام فهو يستعمل الريبورتاج المباشر والمونتاج لينقل لنا أوضاع وتطلعات طالبات المرحلة الثانوية في الجزائر العاصمة من خلال « هن » الذي جاء دعوة لتحرر المرأة وفضحا للتقاليد والمقدسات التي تعود الى تراث اسلامي مشوه .

وربما كان « ريح الجنوب » لسليم رياض ، بحق ، فيلما عن المرأة (أنظر حديث المخرج حول هذا الفيلم في نهاية المقال) . ولي هنا أيضا وقفة قصيرة عند « ريح الجنوب » . لم يستطع سليم رياض أن يتجنب الفخ الذي غالبا ما يقع فيه مخرجو بلدان العالم الثالث . حيث يجدون أنفسهم أمام واقع غني بالمواضيع التي تتطلب المعالجة ، بالاضافة الى تراث يزخر بالمعطيات . فاذا بهم يريدون وفي عمل واحد أن يقولوا كل ما عندهم (يحضرني هنا فيلم « الشرقي » للمخرج المغربي مؤمن سميحي) ، ففي ريح الجنوب تجدنا ننتقل من (نفيسة) ، الشابة التي تعيش تناقضات المجتمع الجزائري المعاصر ، وتعاني من التقاليد الموروثة المتخلفة الى الموظف الذي يسترجع ذكرياته كمناضل في جيش التحرير ، الى العجوز وحبها لزوجها وللأرض ، وموت تلك العجوز ، مع كل « الفولكلور » الذي يتبعه ، ثم الى الراعي ونقمته على شروط حياته ، وتوجهه للعمل الطوعي في الثورة الزراعية .. كثير من المواضيع والشخصيات أراد المخرج أن يطرحها ولكنه لم يتوصل الى تحديد أبعادها وتوضيحها بالشكل الكافي . ومن المؤكد ان شخصية العجوز هي أكثر هذه الشخصيات تاثيرا في نفس المشاهد ، فهي تحمل للتربة ذلك الحب الصوفي الذي يتوصل الى درجة التوحد معها . انها ذاكرة الجيل المقامر ، عيناها ترقبان ما يجري الان وكأنها أم للجميع ... ولكن مع ذلك يظل « ريح الجنوب » عملا جريئا تميز بأسلوب أقل ما يمكن القول عنه انه نقي وفيه كثير من النزاهة ، بالاضافة الى أنه لم ينس أن يشير بالاتهام الى الدور الرجعي الذي يلعبه رجال الدين في التأثير على عقلية الفلاحين البسطاء الاميين ، وتمييعهم لحقيقة الثورة ، والاشتراكية التي يعرفها أحدهم بقوله : الاشتراكية ، من اشترك .. يشترك .. اشتراكا ! . ويجيب الموظف : « لقد تحررنا من الاستعمار ولكن عقولنا لم تتحرر بعد من الخزعبلات .

ولا بد أن المرأة الجزائرية قد استطاعت تحقيق الكثير من خلال مسيرة الثورة الجزائرية . وليس من المستغرب أن نراها اليوم تحتل مكانها خلف الكاميرا ، وهذا ما فعلته (أسيا جبار) الكاتبة والصحفية والمدرسة في جامعة الجزائر ، والتي اختارت أيضا مهنة السينما . لقد أعطاها التلفزيون الجزائري فرصتها ، وها هي اليوم تعمل في تصوير فيلمها الاول « نوبا لنساء جبل شنوا » . تقول اسيا جبار : « النوبا هي اصطلاح من الموسيقى الاندلسية التي حملها المهاجرون الاندلسيون الى الجزائر .. وأريد أن يكون بناء الفيلم كبناء النوبا الاندلسية أي أن هناك علاقة بين الموسيقى والصورة

Digitized by Birzeit University Library

ربما كانت هذه العلاقة نظرية قليلا في البدء ولكني أزيد ان ابحثها. والفيلم تجريبي .. انه في الحقيقة يظهر الحياة اليومية للنساء في علاقتها مع الماضي ليس فقط ماضيهن ولكن ماضي كل المنطقة ، . اسيا عاشت مع النساء « بطلات » فيلمها . تعرفت عليهن وارتبطت معهن بعلاقة حميمة ، خاصة وان التصوير يجري في المنطقة التي ولدت فيها . كل هذا سيساعدها كما تقول على تجسيد مشاكلهن بصورة اكثر دقة : « سيحاول فيلمي أن يبين أن الثورة قد حققت فعلا للمرأة الكثير من المكتسبات الاجتماعية والاقتصادية ، ولكن وحتى بعد (١٥) عاما من الاستقلال ، لا تزال المرأة تواجه نوعا من الكبح الخارجي . واذا كنت أريد أن أعمم مشكلة المرأة العربية في السينما فيجب أن يتم ذلك من خلال المنطلق الآتي : كيف يمكنني أخذ الصورة دون تشويه المرأة . دون اغتصابها ، تقول آسيا انها صورت فيلمها للتلفزيون و ب ١٦ مم لكي تفسح المجال لاكبر عدد ممكن من النساء لرؤيته . « من الملاحظ أن ٩٠٪ وحتى ١٠٠٪ من جمهور السينما عندنا هو من الذكور .. اذن فان أعمل ، أنا المرأة ، فيلما عن المرأة لكي يراه الرجال فقط .. هذا لا معنى له ! » .

« عمر قتلاتو » .. نقطة الانعطاف للسينما الجزائرية :

وقفتي الاخيرة ستكون مع « عمر قتلاتو » لمرزاق علواش . نقطة الانعطاف الحقيقية في رأيي . للسينما الجزائرية .. واذا كنا فعلا نريد أن « نأخذ دروسا » من هذه السينما فليتم ذلك عبر دراسة واعية لاعمال التيار الشاب المتمثلة خير تمثيل في « عمر قتلاتو » و « نوه » و « الفحام » ، وليس من خلال السينما التقليدية التي يمثلها الاخضر حامينا وحاشيته ..

الرائع في هذا الفيلم انه حكى الكثير ، اظهر الكثير ، دون أن يقع في الفخ الذي ذكرته قبل قليل ، وذلك بأسلوب نقي ، بسيط ، ولكنه متميز . لم يترك علواش نفسه ينساق خلف البهرجة ، بل اختار المباشرة التي ترتفع الى مستوى خطورة الافكار المطروحة. تتبع المخرج بطله ، التصق به ، وقلما أظهر مشهدا يخلو من عمر . ولكن ابراز الخلفية التي كان عمر يتحرك عبرها ، وعلاقته المتبادلة مع هذه الخلفية ، اعطى للفيلم بعدا جديدا على قدر كبير من الاهمية . في الفيلم تعرية واضحة ، صريحة وجريئة ، لكل العناصر التي « تخضع » الانسان الجزائري المعاصر - والسوري أيضا - في حياته اليومية : المسلسلات التلفزيونية اللبنانية - عندنا اللبنانية والمصرية ومسلسلات الخليج - التي تنضح بالسطحية ، الموسيقى والاغاني « الشعبية » الجزائرية التي تحتكر الحب على طريقتها ، **وتميع** كل ما هو شعبي . الافلام الهندية بأغانيها من نفس النوع . كما تعرض الى أزمة السكن والمواصلات والسوق السوداء ، ثم لأولئك المراهقين الذين ينحولون الى قطاع طرق « متحضرين » . ويتناول الفيلم أزمة الجيل الجزائري الشاب ، جيل ما بعد الاستقلال ، الذي لا يتبين بوضوح دوره الحقيقي في المرحلة الحالية ، مما يدفعه للانسياق نحو الهامشية والابتعاد عن المشاركة الايجابية في الصراع اليومي الدائر حوله .

عمر ينتمي لهذا الجيل . وهو واحد من أولئك « الخاضعين » . الروتين يثقل حياته وحياة اصدقائه - وكلهم من المرجال - انه يحس المظاهر المرضية لمجتمعه ولكنه يحسها من الخارج ولا يطرح التساؤلات عن الاسباب والحلول بل يمر بالقرب من الحقيقة ولا يبحث عنها ، (نراه يتخطى اجساد الاطفال النائمين ليصل الى غرفته الصغيرة ، الى عزلته مع أحلامه وآلة التسجيل) انه عنصر غير فاعل .

تسير أحداث الفيلم وتتنامى عبر خطين متداخلين ومتفاعلين : من جهة ، عمر يواجه الكاميرا ، يخاطب المتفرج ، انه عمر كما يتمنى ان يكون . ومن الجهة الاخرى ، الكاميرا تلاحق عمر ، تفضح حقيقته ... تعريه .. عمر كما هو ، انسان على الهامش يعيش بالوهم ، ونحن نتابعه ، نضحك ، نضحك بحق ، ونتعرف على انفسنا من

Digitized by Birzeit University Library

خلاله ، يأخذنا السرور ، وتتم عملية التطابق بيننا وبينه ، الى أن نكتشف الحقيقة : عمر المتردد ، ضعيف الارادة ، لقد اعتاد الوهم ، حتى علاقته مع المرأة تتم عبر آلة التسجيل والهاتف . علاقته بالواقع تتم اذن عبر الالة الميكانيك ، التكنيك الحديث · ـ لنلاحظ هنا الفرق بين موقف عمر وموقف الفتاة · فهي تقبل أن تلتقي به على الرغم من عدم معرفتها له · انها تتحمل مسؤولية موقفها ، وتنتظره أمام مقر عملها · ولكننا نفهم من خلال المكالمة الهاتفية بينهما أنها فتاة ذات نشاط نقابي · وتسأل عمر ان كان نقابيا هو الاخر فيجيب بالنفي · الدور ينعكس اذن · فالفتاة تأخذ دور المشارك الفعال بينما يأخذ الشاب دور الهامشي غير الفاعل ـ عمر يجد نفسه الان أمام امرأة حقيقية · ونكف عن الضحك ، أو نضحك بمرارة . وهنا تتحطم عملية التطابق وتتكاثر التساؤلات · يجد المتفرج نفسه مرغما على طرح الاسئلة : لماذا لم يذهب عمر للقاءة الفتاة ؟ · لم يكن بينهما الا الشارع ـ الواقع السيارات . الضجيج ، الناس ، الخارجون من العمل ، يحلون تعبهم وتوتر اعصابهم ، ثم اصدقاؤه الشباب ! ·

وللاجابة على هذه التساؤلات ، لا بد من استرجاع كل تحركات عمر ، كل احداث الفيلم · لا بد من التوقف عند الثورة الجزائرية ، وحجم المهمات التي تواجهها وهكذا تتجاوز السينما عرض الواقع لتلعب دور المحرض على تغيير هذا الواقع ، وهذا على علمي ما يسمى بالسينما الطليعية ، بالسينما السياسية ، ليس فقط السياسية بل « السياسية التقدمية » (حصل الفيلم على الجائزة الفضية في مهرجان موسكو الاخير ، واختير لتمثيل الجزائر في مهرجان مونتريال وفي مهرجان نيويورك ولاقى نجاحا ملحوظا عند عرضه في باريس) ·

وماذا « عن سنوات الجمر » ؟ ·

أتمنى أن أكون قد توصلت الى تحديد الخلفية التي ارتكز عليها تحليلي لهذا الفيلم ، مما يسمح لي الان بالحديث عنه بشكل اكثر جدية · واعطائي هذه الاهمية له لا يعني مطلقا أنني اعتبرته عملا متميزا ومتقدما للسينما الجزائرية بقدر ما شكل بالنسبة لي حافزا لاعادة النظر بالتجربة السينمائية الجزائرية ، وبالواقع الجزائري السينمائي المعاصر ·

تتابع المشاهد :

يبدأ الفيلم عام ١٩٣٩ · يستولي المحتلون على الارض الخصبة · أما الفلاحون الجزائريون فيضطرون للنزوح الى مراكز تجمعات خارج أراضيهم . وكنتيجة طبيعية للبؤس ، نرى القبائل تقتتل بين بعضها من أجل القليل من المياه التي يخلفها المحتلون ·

١ ـ **سنوات الرماد** : يهاجر الفلاحون الواحد تلو الآخر ، وأحمد بينهم . على الرغم من معارضة بقية سكان القرية · يتجه أحمد الى المدينة باحثا عن لقمة العيش · وعند وصوله يتعرف على (ميلود) الذي يقوده الى بيت ابن عمه · و (ميلود) هذا يبدو أحيانا كدرويش متصوف عاقل ، وأحيانا أخرى كمجنون متشرد يحوم بين المقابر ويحكي للاموات ما يحدث عند الاحياء ، ـ سيكون فيما بعد صلة وصل بين مختلف العصور التي تعبرها أحداث الفيلم · انه الذاكرة الشعبية ، والسلسلة التي تربط حلقات القصة ـ ويستلم أحمد عملا في المدينة ·

٢ ـ **سنة الغربة** : فور اشتعال الحرب العالمية الثانية ، يبدأ تجنيد الجزائريين · ويعتقد الشعب أن ألمانيا المنتصرة ستضع حدا للاحتلال ، ويتجه تأييده نحوها · يؤدي البؤس والحرمان اللذان تخلفهما الحرب ، الى انتشار وباء التيفوس بين أوساط الجزائريين ، الذين يطبق عليهم الحجر الصحي ، بينما يتمكن الاوروبيون من اخلاء المدينة · يفقد أحمد ابن عمه ، ثم كل عائلته ، عدا طفله الصغير اسماعيل ، بسبب نقص العناية والدواء ، ويهاجر عندما يعاد فتح أبواب المدينة عائدا الى دواره حاملا معه اسماعيل· وفي الطريق يلتقي بالاوروبيين بكامل صحتهم سعيدين بالعودة الى قصورهم الفخمة وحقولهم الخصبة ·

Digitized by Birzeit University Library

وتعود دورة الجفاف ، ويضطر شباب الدوار لتأجير سواعدهم لموسم الحصاد عند المحتلين · وهناك يرون ، وعن قرب ، الهوة بين حياة هؤلاء وحياتهم هم · فبينما يعاني الفلاحون من شحة المياه ، تجدها وافرة على أراضي المحتلين بفضل السد وقنوات السقي التي أقاموها · وعند انتهاء عملهم يعود الشباب للدوار ليجدوا قبيلتهم في مواجهة قبيلة مجاورة يقتتلون حول نبع ماء شحيح، ولكن أحمد يتدخل وبقوة صارخا بالجميع الا يقتتلوا من أجل مخلفات المستعمر ، وان المعركة يجب أن تكون ضد أولئك الذين سرقوا أرضهم وأملاكهم · ويشترك عدة رجال من كل قبيلة في نسف سد المياه وتسيل المياه فعلا الى أراضي الفلاحين ولكن ·· لبضعة أيام فقط ·

يؤدي الارهاب الذي يعاقب به الفاعلون الى زيادة الاتحاد بين القبيلتين ، ويجر أحمد ورفاقه الى التجنيد الاجباري للحرب في أوروبا ·

٣ ـ **سنوات الجمر** : أحمد يعود من الحرب ·· آثار القمع الاستعماري عام ١٩٤٥ ما تزال ظاهرة ، وفي زحمة تدقيق الهويات ، يضرب أحمد كفيره بالرغم من ردائه العسكري · يسترجع أحمد ، وحيدا ذكرياته الغريبة · يرمي الميدالية التي حصل عليها اثناء الحرب · يظهر مولود فجأة ، ويستولي عليها قائلا بهزء : « أخذوا منك دمك وشجاعتك مقابل هذه الميدالية التي تخجلك الآن · أما أنا فليس علي الا ان أنحني قليلا لالتقاطها واعلقها على صدري · فبالله أيها العسكري ، قل لي أين الفرق ؟ »

يكبر اسماعيل برفقة ميلود ، بينما تستعيد الحياة روتينها في الدوار الذي يجتاحه الارهاب العسكري · وذات يوم يهبط رجل غريب من الباص · اعتقده السكان شرطيا · حيث كان يذهب كل يوم الى مركز الشرطة ويثير الشك والحذر ، الى أن يكتشف انه مناضل ثوري منفي الى الجنوب ومحكوم بالاقامة الجبرية · وهذا لا يمنع (سي العربي) من مقاطعة الامام ، اثناء خطبة الجمعة ، والاحتجاج على بعض افكاره مما يجر عليه غضب رجال الامن الذين يعذبونه بوحشية ·

٤ ـ **سنة الهجمة** : شيئا فشيئا يبني أحمد وعيه السياسي بالاحتكاك مع سي العربي ، وتأتي انتخابات ١٩٤٧ في عصر يشتد فيه الصراع بين الجزائريين أنفسهم · فهناك المشايخ والملاك الذين يستفيدون من الوضع لاستغلال اخوتهم ، وهم يتعاونون تماما مع الاحتلال ، ثم أولئك الذين يعتقدون بصدق ، بامكانية تحسين أوضاع الشعب الجزائري بوجود الاحتلال ، أما سي العربي وأحمد فهما من هؤلاء الذين يؤمنون انه لم يبق هناك مجال للنقاش مع المحتل ، وانه يجب استعمال النضال المسلح ، معتبرين أن الانتخابات ليست الا خدعة ، حيث أن مرشح السلطة فائز مسبقا ، وبدون شك ·

يصل مرشح الحزب الوطني ويتعرف على سي العربي ، وطبعا يمنع من عقد اجتماعات جماهيرية ، فيقرر التصدي بالنقاش لاقوال مرشح الاحتلال ، ويتوجه مع جمهور غفير وبرفقة سي العربي ـ بالرغم من شك هذا الاخير ـ الى الساحة العامة ، الا انه يواجه بالرصاص ويجرح ، بينما يقتل سي العربي وتحاصر بقية الجمع في الساحة ، ويتعرضون لعملية ابادة وحشية بسيوف خيالة المحتل · يستولي أحمد على سيف ويقاوم ، يتبعه بعض رفاقه · يقتل الكثير وتعتقل البقية وبينهم أحمد الذي يؤمن بعد هذه اللحظة تماما بفكرة سي العربي « لقد دخلوا بالقوة ، ولن يخرجوا الا بالقوة » ·

٥ ـ **سنوات النار** : الامل يتعلق الان بالسلاح والجبال ، وعن طريق ميلود ، نتعرف على مصير أحمد وأصدقائه ، ميلود الذي يخطب بالناس برفقة اسماعيل ويدفعهم الى الثورة : « السلام عليكم يا أهل المدينة نحن موعودون بلقائكم يا أهل المدينة ، ينمو عددكم على مر السنين دون أن يتغير شيء يذكر على هذه الارض العاهرة · مر صيفان وشتاءان رهيبان منذ تلك السنة السوداء : « سنة الهجمة » · والان ها نحن على عتبة الشتاء الثالث ، شتاء معتم لهؤلاء الاموات

Digitized by Birzeit University Library

ـ الاحياء على هذه الارض · معتم قلبي ايضا ، وكذلك هذه السماء السوداء ، بالكوابيس والبؤس · ولكن شعاعا من الامل بزغ في الافق الذي سيضيء قريبا هذه السنوات الحزينة ويغير الفصول · افرحوا يا أهل المدينة ، دعوني أسكب لكم قليلا من هذا الضوء الذي يشع في أعماقي منذ ذلك الشتاء الخالد ، يوم رأيت ثمانية أشباح رهيبة تهبط في مغارة سوداء ، ثم تخرج منها مدرعة بالحديد والفولاذ والامل · قضوا اكثر من سنتين في السجن ، وذات يوم اجتازوا الجدران وذابوا في العتمة · أية قوة يمكنها أن تقاوم تقدم الاشباح ؟ · قولوا لي يا أصدقائي ! » ·

وهكذا اذن ، يهرب أحمد وأصدقاؤه من السجن ، وينظمون المقاومة في الجبال ، يصل الجنود بأعداد كبيرة للاحقة الثوار ، يحاول ميلود واسماعيل تحذيرهم ، ولكنهما يصلان متأخرين ، ويستشهد أحمد استشهاد الابطال ·

٦ ـ ١١ **تشرين الثاني ١٩٥٤** : انفجرت الثورة منذ عشرة أيام · وبدأت الجبال تعج بالحركة · ولكن المحتلين يتابعون احتفالاتهم وطقوسهم ، غير عابئين لنداءات الشعب الجزائري · النصب التذكاري ، أجراس الموتى ، والفتى الجزائري الصغير مرددا « نشيد الموتى » لهيجو ، ويفهم اسماعيل عن أي أموات يتحدثون · يرفض « يسترجع صورة أبيه » يعدو خلفها ، يصلها ، ولكنه يكتشف أنها سراب ·

ويغفو ميلود اغفاءة الموت **منهيا** مهمته كدليل عالم بحقائق الامور · تاركا لاسماعيل أن يتابع تسجيل مذكرات الايام المقبلة ·· وينتهي الفيلم مع اسماعيل راكضا نحو الجبال ترافقه أصوات الرصاص والمتفجرات

تساؤلات لا بد ان تطرح :

قبل أن أبدأ تعليقي على الفيلم ، رأيت ذكر بعض هذه التساؤلات ، دون أن أخشى التكرار · في الحقيقة لا بد أولا من ان نسترجع الى أذهاننا شخصية الاخضر حامينا «كمدير» لمؤسسة الاخبار الجزائرية ، لما سمح له بانتاج « ديسمبر » الذي كلف ما فيه الكفاية· وسمح له أيضا بالبدء في انتاج (سنوات الجمر) · ثم شخصية الاخضر حامينا « كسينمائي » : أعماله السابقة ، والتي لم تعبر عن شخصية سينمائية متميزة ، ولا عن خط ايديولوجي فكري واضح الملامح ـ مقدرين طبعا (رياح الاوراس) الذي يظل عملا انسانيا وذو قيمة جمالية لا يمكن نكرانها ـ ان الطريقة التي مول بها فيلمه الاخير (سنوات الجمر) تثير الدهشة · فبالاضافة الى استحواذه ، كما قلت ، على كل مخصصات الانتاج لمدة سنتين ، ومنعه بذلك تمويل اكثر من عشرة من الافلام قليلة التكاليف ، بالاضافة الى كل هذا ، فقد تلقى على ما يبدو مساعدات من الدولة لاتمام انجازه · وربما كان السبب يكمن في أن هذا الفيلم قد انتج لاحياء الذكرى العشرين للثورة الجزائرية · وان الغاية منه كانت للدعاية العالمية ، اكثر من خدمة أهداف واهتمامات الشعب الجزائري نفسه · فالنسخة الاخيرة للفيلم حققت بقياس ٧٠ مم (ايستمان كولور وبانافيزيون) وبطريقة الصوت **الكادريفوني** أي أربع منابع للصوت ، مع العلم أنه لا يوجد صالات جزائرية تستطيع عرض أفلام بهذه المواصفات · اضافة الى أن قسما لا بأس به من الفريق الفني الذي اشترك بالعمل كان أجنبيا (التصوير ، الموسيقى ، ودور البطولة الذي أسند للممثل اليوناني جورج موياجيس) · وقد اثار انتاجه احتجاج عدد كبير من السينمائيين الجزائريين الشباب ·

الاقناع العاطفي :

يعرض الفيلم النمو التدريجي للوعي السياسي عند أحمد ، خلال مراحل محدودة ومرسومة بوضوح ، ومعالجة بطريقة غنائية جذابة · من الفلاح الذي يثور على واقعه بطريقة انفعالية ، عزيزية وميتافيزيائية ، وصولا الى البطل الثوري · وطبعا كان هدف المخرج أن يوصل لنا من خلال قصة أحمد نمو الوعي السياسي عند الشعب الجزائري باكمله · أحمد بالنسبة له هو رمز هذا الشعب · هو الذي يجسده · ولكن من المهم

Digitized by Birzeit University Library

هنا التمييز بين مفهومين ، اعتنى المخرج بعدم دمجهما : التاريخ واللحمة الفردية · ان فيلم«سنوات الجمر»ليس فيلما تاريخيا بالمعنى المحدد لهذه الكلمة · فالمخرج لم يرد «تاريخ» نضال الشعب الجزائري ، وانما فقط اظهار نمو انطباعات وتمثل هذا النضال في ذهن وضمير فلاح (فرد) جزائري شاب · لم يجيء هذا فقط لاستخدام أثر التطابق المعروف (العاطفي) بين البطل والجمهور ، ولكن لان المخرج لم يرد ـ أو لم يستطع ـ أن يتعرض للآلية المعقدة للنضال الثوري . من خلال تحليل عميق وصحيح سياسيا · ان توجه هذا الفيلم نحو الماضي ابقاه عملا من الماضي ، دون أي امتداد فعال في الحاضر · كل ما أراده المخرج ، هو وضع حقبة تاريخية كاملة أمام عين وحس الجمهور ، بالشكل الذي عاشها به هذا الجمهور · انها اعادة تقديم خيالية وحسية ، أكثر من كونها تحليلا وشرحا · ومن هنا جاء الفيلم يشكو مما يمكن تسميته بنقص الاثر المعرفي · فالمتفرج لا يخرج منه بأية معرفة · ولا يستشف من قصته أي درس أو أية مقولة منسجمة ومتماسكة ·

ان الثورة الجزائرية ليست ماخوذة هنا من خلال رموز يطلب منا ادراك معانيها واسقاطها على الحاضر والمستقبل ، وانما كرموز ميتة ، تضم بذاتها معانيها الخاصة بها ، أي لا تعني اكثر مما هي · ومن هذا المنطلق فاننا لسنا أمام فيلم سياسي بالمعنى المعروف للكلمة (وانما هو وببساطة ما يمكن تسميته بفيلم المؤلف) · وهو لا يتوصل الى اقناعنا بشرعية نضال الشعب الجزائري ولا بصحة السبل التي انتهجها (طبعا كل ذلك لا يحتاج الى برهان ·· فالتاريخ اعطى الجواب) ·· لم يبق للفيلم الا الاقناع العاطفي الذي يعمل هنا بنفس آلية أي فيلم هوليودي ·

لقد أراد حامينا العودة الى الينابيع الحية التعريزية للثورة · أراد أن يجعل كل متفرج يغوص في منبع الثورة نفسه من خلال فعل تشارك فيه الاعصاب والحواس · وهذا الاختيار البعيد عن الموقف العقلاني المحلل ، يؤدي بنا الى نوع من الحسية البدائية ، حيث نحس قبل كل شيء العوامل الفيزيائية : الجفاف ، الشمس ، الحرارة ، الماء ، الريح ، الالم (منظر الطفل يبكي موت غنماته ، والارض الجافة المتشققة ، واللقطات البانوارامية للارض شبه الصحراوية التي نشعر من خلالها بوطأة الحر) ·

اسلوب « الادهاش » :

ان الاهم والاخطر ، في رأيي ، من كل هذا · هو أسلوب الادهاش أو الابهار الذي استعمله المخرج و « أبدع » في استعماله · ما القصد بالادهاش هنا ؟·

المشهد في السينما ، هو ما يراه المتفرج من خلال كادر محدد الابعاد · ونحن نعلم أن المتفرج سينجذب الى تأمل مكونات هذا الكادر، التي لا تقتصر فقط على الصورة ، بل أيضا على القيمة الدرامية التي توصلها هذه الصورة · والمشهد هو الذي يثير اهتمام المتفرج عينيا أو دراماتيكيا · أما الادهاش فهو الاسلوب الذي يؤدي بالمتفرج الى حصر اهتمامه على العناصر والاحداث الخارجية مخفيا معانيها العميقة والتي من مهمة العمل الفني كشفها ·

لا أرغب هنا اثارة مشكلة العلاقة والتجاذب الديالكتيكي الضروري بين الشكل والمضمون ، ولكنني أريد أن أؤكد الى أنه ليس هناك في السينما ما يسمى بالصورة الحيادية · لا يوجد شكل سينمائي بريء · وهذا في رأيي عنصر أساسي جدا ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار عند تحليل أي عمل سينمائي ، خصوصا وانه من السهولة فضح المضمون الرجعي للفيلم ، ولكن من الصعب ملاحظة واكتشاف « التهريب » على مستوى الشكل · أي أن فيلما ذا مضمون تقدمي مقصود ، يمكن أن يكون رجعيا بشكله ·· لماذا أوردت هذه الملاحظة بصدد«سنوات الجمر»؟ · لان الصورة هنا والمستعملة من خلال أسلوب الادهاش لعبت دورا رجعيا واضحا ، وهذا الدور لم يخل في رأيي من الديماغوجية (بالاضافة الى عرض العضلات

Digitized by Birzeit University Library

الذي وصل الى حد الاثارة) · لقد جاءت العوامل التي ذكرتها سابقا (الحسية البدائية للعوامل الطبيعية الفيزيائية ، عدم الرغبة بالتحليل ، أسلوب الادهاش ، آلية الاقناع الهوليودي العاطفي) مجتمعة ومتداخلة لتوصلنا الى هذا الدور الرجعي للصورة · فتأثرنا العيني بالكادر المعروض ، ينحصر فقط بالجوانب الظاهرة المرئية أي الخارجية ولا نلبث أن ننسى الجزائر ، ونصيح بانفعال : يا الله ما أحلى هذه اللقطة !! يا لقدرة المخرج !! · أنظر الى منظر هذه الجبال · الارض العطشى · دموع الطفل · الاغنام الميتة ، سكان الدوار بالاعلام والطبول وبعض الخيول ، في موكب متعدد الالوان يتجهون الى قبر أحد الاولياء حاملين قرابينهم لطلب المطر · ولكن الخطر يتزايد عندما نصل الى عرض بقايا أفكار ، تمت الى السياسة بصلة ، ولو قليلة ، من خلال صورة ديماغوجية · تذكروا معي مشهد الساحة بعد انتهاء الذبحة التي نظمها المحتلون ·· الساحة ملأى بالجثث التي شوهتها السيوف · والكاميرا تعود بحركة خلفية ، لتعرض لنا في لقطة عامة هذا المنظر · ولكن دققوا النظر معي لتروا كيف أن وضع كل جثة جاء مدروسا ، مخططا له · ثم ها هو المخرج يدفع بحصان فقد فارسه الى قلب الساحة · ليزيد من اثر اللقطة الجمالي والعاطفي ، غير آبه بالمعنى السياسي العميق الذي يجب أن يستخلصه المتفرج من هذه المجزرة · وهكذا يخرج اهتمام المتفرج من دائرة السياسة ويغرق في دهشته واعجابه باللقطة لدرجة انه ينسى فجأة السبب الذي أدى الى تلك المذبحة ولا تغضبوا بعدها اذا سمعتم تعليقا من نوع : ما أحلى جثث القتلى في الساحة وما أجمل دخول هذا الحصان · يا لقدرة المخرج !! · والامثلة لا تنقصنا في هذا المجال · أمثلة تظهر لنا دور الصورة في جذب المتفرج بعيدا عن المضمون وعن المعاني العميقة التي تكمن خلف تلك الصورة · ولا أؤكد أن حامينا قصد ذلك ولكن تبنيه المؤكد لسينما المؤلف ، قاده الى هذه النتيجة · ولنتوقف هنا عند دور ميلود · ان دور ميلود في الفيلم غير مقنع على الاطلاق ، ويدل على تأرجح المخرج بين الواقعية والغنائية · ربما كان الهدف الاساسي من خلق هذه الشخصية هو حقا ربط مراحل الفيلم ببعضها من خلال تلك الشخصية ـ الذاكرة · ولكننا رأينا ميلود يقوم أحيانا بدور الراوي المعلق ، الذي يذكرنا بدور الجوقة في المسرح اليوناني · فبعض الافكار التي لم يستطع المخرج ايصالها سينمائيا ، كلف ميلود بالقائها علينا أو تفسيرها ، من خلال أشعاره التي أراد منها أيضا اضفاء نوع من الغنائية على العمل· ولكن هذه الغنائية لم تتوصل الى روعة وعفوية تلك التي قدمها لنا «رياح الاوراس»· وجاء ظهور ميلود في بعض المشاهد مفتعلا جدا (ظهوره فجأة عندما يرمي أحمد ميداليته ، ظهوره بعد المجزرة في الساحة، ظهوره بجانب أحمد أثناء الوباء ··) انه انسان « دخيل » على أحداث الفيلم ، ربما كان هذا سببا في أن المخرج يهتم بتحليل شخصيته تلك واعطائها أبعادا حقيقية · ولعل افتعال هذه الشخصية وغربتها عن الواقع ، ظهرا بشكل واضح في مشهد موت ميلود · فالطريقة التي يموت بها غريبة حقا ، تجعلنا نتساءل : هل نحن في المسرح أم في السينما · وهل نشاهد موضوعا عن الثورة الجزائرية ، أم مسرحية الملك لير ؟! ·

سينما هوليودية :

وعندما يتبع حامينا الاسلوب الهوليودي فانه يظهر أمينا جدا لهذا الاسلوب · لقد شعرت في بعض المشاهد ـ قد أكون مبالغا ! ـ انني أمام فيلم كوبوي أمريكي مصور في الجزائر ! · من منكم رأى فيلم « حدث مرة في الغرب » للمخرج الايطالي سير جيولين (مخرج فيلم «من أجل حفنة من الدولارات»)؟ في بداية هذا الفيلم نرى عددا من الرجال ينتظرون قطارا في احدى المحطات المعزولة ، وببرع سيرجيوليون في ايصال وطأة الحر الشديد ، والترقب الممل لاحد هؤلاء الرجال ، عندما اظهره مستندا الى جدار ، وقد أمال قبعته العريضة على عينيه · وفجأة تزعجه ذبابة . يركز المخرج على ازيزها ، تحوم حول

Digitized by Birzeit University Library

رأس الرجل بالحاح ، فيرفع قبعته ويتبعها بنظرة حاقدة · ثم يخلص قبعته ، ومن جديد تعود الدبابة لاثارته وينتهي به الامر الى حصدها في سبطانة مسدسه واطلاق النار عليها · عند حامينا نفس المشهد ! · ابن عم أحمد يجلس مستندا الى الحائط · الشمس الحارة ، الجفاف ، الترقب ، هو أيضا يبدو وقد أمال عصبته على عينيه ، يحميهما من الشمس · وهو أيضا يرقب الجندب الذي يتنقل على حذائه ، ثم يحصره داخله ·· نفس التأثيرات · نفس السيناريو · استعيضوا عن القبعة بالعصبة ، وعن رداء رعاة البقر بالسروال الريفي الجزائري ·· وعن ···!! · تذكروا أيضا عندما يعود أحمد منفعلا وقد عزم على الرحيل من قريته ، يصل الى بوابة داره الخشبية العريضة ، ونراه يدفعها بقدمه بعنف ، على طريقة رعاة البقر ، الذين يداهمون الحانات شاهرين مسدساتهم ·· تذكروا مشهد الاقتتال على الماء ·· التركيبة الهوليودية للمعركة (سواء بين القبيلتين ، أو هجمة الخيالة على الجماهير المحتشدة في الساحة ، ودفاع أحمد ورفاقه) تذكروا اللقطة التي تظهر رجلين من القبيلة المعادية لقبيلة أحمد يرقبان هذا الاخير وابن عمه من فوق الصخور الشاهقة · لقد أدت الزاوية التي اختارها حامينا في تصوير هذه اللقطة الى بروز تأثره الواضح بالفيلم الهوليودي · هذا بالاضافة الى بعض المشاهد وتحركات الممثلين وانفعالاتهم التي أظهرت أيضا هذا التأثر ، (مشهد طلب يد الفتاة شقيقة أحمد ، وحركات الطفل بعينيه ، واشاراته لابن عم أحمد · مشهد الطفلة التي تفتح قربة الماء ، وموقف الاب · المطر الذي يهطل فجأة ليرقف المعركة بين القبيلتين ، ويحولها الى حفلة · لقاء أحمد بعائلته بعد عودته من الحرب ، وموقف أخته عندما تنفجر بالبكاء بشكل افتعالي وتستدير هاربة ·). ولن أنسى طبعا الدور الذي اعطاه حامينا للمرأة في فيلمه · المرأة هنا اما حيادية تماما ، تتبع الرجل دون أي احتجاج أو سلبية تقوم بدور الغناء عند استقبال الحاكم وحتى تخضع لنزوات الرجل وضربه (أحمد يضرب امرأته عندما تحاول الفرار بأطفالها أمام الوباء ·) · وقد لاحظنا أيضا الدور السلبي للام في « رياح الاوراس » · وهذا يؤكد غياب الخلفية الايديولوجية عند حامينا، واهتمامه بابراز حذلقته وقدراته ·

لقد قدم حامينا سينما تقليدية ، وحافظ على ذلك عن قصد ، ولكن هذه التقليدية الجمالية ترافق تقليدية أيديولوجية من الواجب محاربتها ، ففيلم (سنوات الجمر) يعيد الارتباط تماما مع السينما الجزائرية التقليدية الموجهة لاحياء ذكرى حرب التحرير ، والبعيدة عن تطلعات وهموم الجيل الجزائري المعاصر ·

اني أدعوكم لاعادة النظر قليلا بحساباتكم عندما تبحثون عن السينما التي يجب أن نتبناها الان في قطرنا السوري ·· والكلام هنا للنقاد الذين هللوا لسنوات الجمر ، مطالبين بأن يؤخذ كنموذج لفيلمنا المحلي في هذه المرحلة ـ لنبتعد قليلا عن الانفعال ، ما رأيكم ؟ ·

أرشيف السينما الجزائري (السينماتيك)

نصل هنا الى النقطة المضيئة للنشاط السينمائي الجزائري · ان أرشيف السينما الجزائري يشكل اليوم ، بالتأكيد ، احدى أهم الظواهر في تاريخ السينما العربية · فالنشاط الذي تقوم به هذه المجموعة الصغيرة من محبي السينما (وعلى رأسهم أحمد حسين مؤسس الارشيف) ، يكاد لا يصدق · فهم يتوصلون الى تنظيم المعارض ، واستقبال السينمائيين والنقاد المعروفين من كل انحاء العالم ، واعطائهم الفرصة للوصول الى مختلف المناطق الجزائرية ، والاحتكاك بالواقع الجزائري ، واقامة المهرجانات حول مواضيع محددة ومتعددة · كل هذا بالاضافة الى خمسة عروض يومية ، ينتهي بعضها بنقاشات حامية ، تخرج غالبا عن نطاق السينما كفن ، لتصل الى أعمال المشاكل المطروحة ، وخلفياتها السياسية والايديولوجية ـ يلاحظ أحمد حسين أن الجزائر هي البلد الوحيد في العالم التي تملك نص قانون يؤكد أن السينماتيك لا يخضع لاية رقابة ـ عاملين بذلك

Digitized by Birzeit University Library

على تأكيد السينماتيك في دورها الطليعي التقدمي الذي برز من خلال « خوضها المعركة على الجبهة الثقافية » تأسس الارشيف عام ١٩٦٤ · وهو اليوم يملك ثلاث صالات ، في العاصمة ووهران وعنابة · وقد استحق بجدارة لقب سينماتيك العالم الثالث : « لقد استقبلنا كل افريقي عمل فيلما واحدا · » ، · «وقدمنا لجمهورنا كل أعمال هيوفسكي وشومان من ألمانيا الديمقراطية ، قبل أن يكتشفهما العالم - مخرجان معروفان بأفلامهما الوثائقية ، التي تناولت نضال الشعوب ضد الغزو الامبريالي ، وأشهرها افلامهما عن الفيتنام والتشيلي ، وكانا أول من استطاع أن ينقل وثائق حية عن معسكرات الاعتقال في التشيلي ، والارهاب الممارس هناك بعد الانقلاب الفاشي - · وعرضنا كل افلام صلاح ابو سيف » · « حطمنا كل الارقام القياسية في عدد العروض لكل سينماتيك العالم · فبالاضافة للانتاج الغربي ، قدمنا أكبر عدد من أفلام العالم الثالث ، والدول الاشتراكية » ·

هذه تصريحات بعض المسؤولين في السينماتيك · وهم لا يبالغون ، فلا أحد يجرؤ على نكران دور السينماتيك الجزائري في ايصال السينما العربية والافريقية وسينما أمريكا اللاتينية والبلدان الاشتراكية ، للجمهور الجزائري · ولا دورها في ايصال السينما العربية ، والجزائرية خاصة ، لاوروبا · وهي تساهم أيضا بمساعدة النوادي السينمائية السبعين ، المنتشرة في مختلف انحاء الجزائر · ومن جهة اخرى قامت بدور أساسي وفعال في تعريف الجمهور الجزائري بالسينمائيين الجزائريين الشباب ، مساهمة بتحطيم السور الذي يحاول البيروقراطيون اقامته حول انتاج هؤلاء السينمائيين - مثال ذلك تمكن السينماتيك من الحصول على النسخة الوحيدة لفيلم محمد زينت « تحيا يا **ديدو** » أو « الجزائر الغريبة » والذي لم يعرض من قبل ، وعرضها - فبفضل مهرجان نظمته حول موضوع «السينما والارض» - وكان يهدف تأييد الثورة الزراعية - قدمت للجمهور الجزائري رائعة طولبي « نوه » و « المغتصبون » للاميين مرباح بالاضافة لافلام موسى حداد ·

ولقد اعتاد المسؤولون في الارشيف ، استغلال مناسبات وطنية ودولية لتنظيم مهرجانات سينمائية حول هذه المناسبات ، وهدفهم من ذلك : « استعمال الصورة السينمائية لحث الجمهور على المشاركة والتفكير » ·

ففي ذكرى تأميم صناعة البترول من قبل الجزائر عام ١٩٧١ ، نظم مهرجان للافلام التي تحكي عن البترول ، وبمناسبة اليوم العالمي للمرأة (٨ آذار) خصصت العروض طوال عشرة أيام ، لموضوع « المرأة في المجتمع وذلك بمساهمة الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات ، وفي ذكرى انطلاقة النضال المسلح ، جرى عرض كل الافلام الجزائرية التي ظهرت بين ١٩٥٤ و ١٩٧٤ ...

ان « قيادة المعركة على الجبهة الثقافية ، يتطلب أيضا البقاء بالقرب من الواقع الجزائري ، وهذا ما أدركته السينماتيك فكان نشاطها موجها ، بحيث لعبت دور المحرض ، وذلك من خلال اثارة احساس التفرج ، وتوجيه اهتمامه نحو قضايا الساعة ، ليس فقط على المستوى الوطني ، ولكن أيضا على المستوى العالمي ، كما يؤكده تنظيم مهرجانات عن فلسطين ، وتشيلي ، وفيتنام ، وغيرها ·

ان تجربة السينماتيك الجزائري تطرح أمامنا ، وبوضوح ، أزمة السينما السورية ، والنشاط السينمائي في قطرنا ، فاذا كنا نعي حقا دور السينما - والتلفزيون أيضا - في معركة البناء ، فالاجدر بنا أن نرى هذا الدور من خلال نظرة شاملة ، تتطرق بالاضافة الى النهضة السينمائية على المستوى الانتاجي ، الى السبل والوسائل التي تجعل هذا الانتاج يصل الى الجمهور الواسع ، عبر عملية تفاعل بين الفيلم والجمهور ، تقود هذا الاخير الى اعادة النظر في واقعه ، وبالتالي الخروج من تلك السلبية القاتلة التي تحيط بأعناقنا ·

Digitized by Birzeit University Library

المستقبل والسينما الطليعية :

أدت النقاشات التي دارت مؤخرا ، حول الميثاق الوطني الى اعادة طرح صعوبات ومشاكل السينما الجزائرية ، بصورة وبرغبة مؤكدة للتوصل الى اسس جديدة ، وأهداف محددة واضحة ، ولقد اكد هذا الميثاق موقفه حين طالب « بسينما طليعية » ٠ مما وضع السينمائيين الجزائريين امام مسؤولية، تحديد المضمون الحقيقي لهذه السينما الطليعية ، ويبدو أن هؤلاء السينمائيين قد توصلوا الى نوع من الاتفاق ، مع اداريي السينما ، حول بعض النقاط الرئيسية ، كموضوع اعادة النظر بالشكل التنظيمي الحالي للانتاج والتسويق ، والحاجة الى نوع من « التقنين » في الانتاج ، وجعل هذا الانتاج نظاميا ، (عشرة أفلام طويلة في العام) للخروج به من مرحلته البدائية الى المرحلة الصناعية المتطورة وبذلك فقد اتفق على ضرورة بناء مجتمع كامل للسينما يحوي على كل المرافق اللازمة مخابر واستديوهات للتسجيل والتصوير وغيرها (هل نفذت هذه الاتفاقيات ؟ ٠٠ هذا ما نتمناه ! ٠٠)

لقد خاضت الجزائر نضالا مريرا ضد القاطعة التي فرضتها شركات تصدير الافلام الاميركية والفرنسية عليها ، اثر رفض هذه الشركات الاحتكارية طلب الجزائر باختيار الافلام التي تريد استيرادها ، واستمرت هذه القاطعة لعدة سنوات ، صمدت الجزائر خلالها وبقوة ، بالرغم من الاخطار الاقتصادية الكبيرة التي هددتها ، مما أدى الى تراجع الشركات ، التي تحولت ، فيما بعد ، الى الصراع والتزاحم فيما بينها للوصول الى السوق الجزائرية . من بين الـ ٤٣٦ فيلما المستوردة عام ١٩٧٤ ، ٧٠ ٪ كان فرنسيا ، مقابل ٢٠ ٪ عام ١٩٧٣ ، أما الـ ٣٠ ٪ الباقية فقد جاءت بالترتيب من مصر ، الهند ايطاليا ، الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفيتي ، ونلاحظ مؤخرا ، بروز اتجاه جديد نحو تنويع الانتاج ، وتناول المواضيع المعاصرة بالاضافة الى الاهتمام ، باختيار أفضل لنوعية الافلام المعروضة ، وتنويع مصادر الاستيراد ، واتجه الانتاج المشترك نحو الدول العربية ، فقد شاركت الجزائر في انتاج « العصفور » و « عودة الابن الضال » ليوسف شاهين ، بالاضافة الى المحادثات التي بدأت وتنتظر أن تستمر ، بين الديوان الوطني ومؤسسة السينما عندما لعقد اتفاقات للتوزيع وللانتاج المشترك بين القطرين ، وهذا يساهم طبعا في تشجيع السينما العربية الجادة ، وفي ايصال الفيلم الجزائري للعالم العربي ، كما يساعد ايضا في ايصال الفيلم العربي الجاد الى العالم ، ان تصريحات يوسف شاهين الاخيرة ، تبرز الضرورة الملحة لتحديد المضمون الايديولوجي الصحيح للسينما العربية ، الجادة ، التي يجب تشجيعها ، ومما يبعث على التفاؤل ، أننا نشهد اليوم بدايات الحوار حول هذا الموضوع من خلال ملحق الثورة الادبي ٠٠ امل أن يساهم كل السينمائيين الشباب في هذا الحوار ، فالمستقبل لهم ، ومن حقهم الاختيار ٠

لا بد أن التغيير الذي حصل ، منذ ثلاث سنوات ، في ادارة الديوان الوطني ٠ واعادة تنظيم هذه الادارة ، قد ساعدا في تحديد الاهداف الحالية للسينما الجزائرية ٠ هذا لا ينفي بقاء عدد من الصعوبات والعقبات في طريقها ، بالاضافة الى الاسئلة التي ما تزال مطروحة أمام العاملين في مجال هذه السينما :

– ما هي السينما الطليعية التي تحتاجها الجزائر ؟ ٠ هل يجب الاكتفاء بابراز الموقف التقدمي في مضمون الفيلم ؟ ٠ هل يجب الحفاظ على الشكل الحالي للصناعة السينمائية ؟ علما أن هذا الشكل ظل متأثرا بنظام السوق الموروث عن الاستعمار ؟ ٠

أليس من الواضح أن القوانين التي تحكم انتاجنا السينمائي ، تتميز بالارتجال وعدم التجانس ، (فمثلا ، الديوان الوطني الذي من المفروض أن يمول نفسه بنفسه ، لا يتلقى الا ١٨ ٪ من عائدات « شبابيك التذاكر »)

كل هذه المسائل تظل طبعا مرتبطة بالتطور العام للانتاج الثقافي والابداعي في القطر الجزائري ، الذي تناوله الميثاق الوطني

Digitized by Birzeit University Library

مؤكدا على مبدأ حرية التعبير لكل العاملين في هذا المجال .

ان عملية بناء سينما وطنيـــة ، صعبة ومعقدة ، ومسؤولية السينمائيين الجزائريين كبيرة جدا ، ولكن يجب الا يغيب عن أذهاننا أن هذه العملية تتم عبـــر حركـــة الثورة الجزائرية بشكل عام ، وبقدر ما تتوصل هذه الثورة الى تحديد أهدافها وطريقها ، كثورة تطمح لبناء مجتمع اشتراكي متكامل ، بقدر ما يتوصل النشاط الابداعـــي الـــى شكلـه الواضح والمتميز كنشاط جماهيري طليعـــي هادف .

مجلة الكاتب الفلسطيني

وجميع الكتب الصادرة عن الاتحاد العام
للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تجـــدونها في :

مكتبة دار الكاتب

Digitized by Birzeit University Library

كتب صادرة عن الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

٠١. حول كتابات الشهيد كمال عدوان	— منير شفيق
٠٢. الشهيد باسل الكبيسي	— د. أسعد عبد الرحمن
٠٣. الشهيد غسان كنفاني	— د. احسان عباس ، فضل النقيب ، الياس خوري
٠٤. دفاعا عن الجملةالاعتراضية (شعر)	— حافظ عليان
٠٥. دموع السقف الحجري (قصص قصيرة)	— وديع اسمندر
٠٦. نقش على الانامل (شعر)	— عبد الرحمن غنيم
٠٧. وشاهرا سلاسلي اجيء (شعر)	— خالد ابو خالد
٠٨. شهادات للجرح المقاتل (شعر)	— صخر
٠٩. اقبل الزمن المستحيل (شعر)	— ممدوح عدوان
١٠. نحو حل بروليتاري ثوري للصراع العربي الصهيوني	— هدى حمودة
١١. حركة القوميين العرب	— باسل الكبيسي
١٢. الشعر الفلسطيني المقاتل	— نزيه ابو نضال
١٣. الخيول تموت في ميادينها	— مؤيد البحش
١٤. الظروف الاقليمية في الوطن العربي	— عوني فرسخ
١٥. ملاحظات متفرج	— علي اسحق
١٦. شهادات على جدران زنزانة	— غازي الخليلي
٢٢. الثورة الفلسطينية وتطور المسألة	— وهب رومية
١٨. الملاجىء والتحصينات	— العميد محمد ابراهيم الشاعر
١٩. جرش ذات يوم في أيلول	— راينر كريندل ، ترجمة فيصل الياسري
٢٠. المرأة الفيتنامية	— ترجمة شادية الحلو

Digitized by Birzeit University Library

ملف الشعر

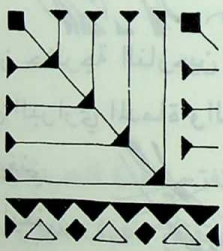

Digitized by Birzeit University Library

حرب . حرب . حرب

رياض الصالح حسين

عاشق ذاهب بين حشرجة النازحين وحشرجة الكلمات
عاشق مثل هذي البراري المدماة والجثث الذهبية
يخرج من زمن ليغني
ويدخل في وطن ليغني
يبتاع أرغفة ومعاول
يبتاع أرصفة ومعامل
يبتاع حزنا شديدا
ودبابة سقطت بين فكي زهرة دفلى
يبتاع قبرا وسيما لطائرة
وغصونا خضراء من فرح أبدي للعاشقات

Digitized by Birzeit University Library

عاشق ذاهب بين حشرجة النازحين وحشرجة الطلقات
عاشق قال :
هذي هي الحرب
تخلع قمصانها الخشبية
تكشف عن عريها الحشري :
دماء وأرصفة ودفاتر مبتلة بالنشيج
دماء وأرغفة ودفاتر مبتلة بالدماء
دماء وعاشقة وأساور ضيقة ومآذن واسعة
وطيور تهاجر ..
مجزرة وشعوب
مجزرة وزهور
هذي هي الحرب تفتح نافذة الحب للقاتلين
وللعاشقين ستفتح نافذة للقبور

★★★

في الحروب التي ذهبت
في الحروب التي بقيت
في الحروب التي حاولت ان تجيء
كان وجه اليف لعاشقة يتمرغ في الرمل
والالم الطبقي

Digitized by Birzeit University Library

كانت العاشقات الوسيمات يخرجن للشرفات
ويعرضن أجسادهن المدماة لله
والله كان يجيء القرى وبصحبته الجند
كان يعبىء مئزره الملكي حروبا وينثرها في البيادر
كانت بيادر من فضة ومواعيد
كانت بيادر من فضة
ثم كانت حروب
وهل تذهبين الى البيت
أم تذهبين الى الموت ؟
هل تذهبين الى العشب
أم تذهبين الى الحرب ؟
كنا نسير نسير وتثقبنا الطلقات
وكنا نسير نسير بدائرة قطرها ألف حزن
يدا بيد ونغني
يدا بيد ونموت
ويا أيها الموت لا تأت في الصيف
ان الطيور تشاطرنا الصيف
يا أيها الموت لا تأت في مطر خائف وبعيد
لا تأت

Digitized by Birzeit University Library

فالارض عطشانة والمواسم مكسورة
والشعير سينضب
والعاشقات سيبكين عشاقهن
ولا تأت .. لا تأت
لكنه الموت يأتي
ولكنها الحرب تأتي بهيئتها الدشرية
تدخل من ثقب باب
ومن ثقب نافذة
تتناسل في حانة ـ صحف ـ كتب
تتناسل في جثث العاشقات
ثم تنده للقاتلين : استريحوا .. استريحوا
وتطعمنا البؤس والطلقات

★★★

عاشق قال :
بعد نهارين من تعب ورصاص
تجيء من الارض عاشقة
وتمد يديها الى مطر واجاص
تمد يديها الى الماء
تغسل ألسنة الخطباء وألسنة الرقباء

Digitized by Birzeit University Library

تسجل أرصدة الفقراء التي ابتلعتها الحروب
على دفتر شجري
تمزق قبعة الجنرال
وقبل مسائين من مطر واجاص أرى :
تحت قبعة الجنرال قرى مصمصت عظم أطفالها
ويدين تقطعتا
وأرى تحت قبعة الجنرال :
دما ساطعا
وجماجم مكسورة تتهجى حروف البلاد
وفي كل حرف مشاريع من حلم فاسد
وأرى تحت قبعة الجنرالات :
مشروع حرب على الزهر
مشروع حرب على النهر
مشروع حرب على الفقراء
وبين يدين تقطعتا
يهرب العاشقون من العشق
والميتون من الموت
والفقراء من الفقر
من ثم تسقط قنبلة ويجيء الغزاة الاشداء

Digitized by Birzeit University Library

من كأس شاي وسيجارة وصباح
ومن كأس شاي وسيجارة تبدأ الثورة العالمية
أو تبدأ الامنيات الكثيرات
يبدأ الخطباء خطاباتهم
والجنود رصاصاتهم
ثم افرغ قلبي من اليأس
أقذفه تحت قبعة الجنرال
ـ أنا الآن مقتنع ببلادي
ومقتنع باضطهادي ـ
وفي زمن لا يحد ارى من احب على شاطىء
تستريح من اليأس
تسألني عن مكان لذيذ بلا شرطة
نتبادل فيه الاناشيد والقبلات
أجيب : هو البحر
قالت : هو البحر
قالت هو البحر
وابتسمت !.

دمشق

Digitized by Birzeit University Library

تماثيل البحر

عصام ترشحاني

– منارات ... منارات ... منارات
يقول الموج :
سبحان الذي جعل
انهياري في انبثاقي
وسبحان الذي جعل انبثاقي في انهياري ...
منارات بحجم الجوع
تقتل حلم سائلها
منارات بحجم الحب تحيي حلم سائلها

Digitized by Birzeit University Library

منارات تلـوّح لي .. فانسرحُ ..
منارات تهش دمي ... فأحتدمُ
أنا المسحور بالايقاعِ
والايقاع عنف دمي وعافيتي
أنا المتبرج الولهانُ،
صاريتي المدى المأخوذ بالغزوات
صاريتي الظلال الغامضات،
العاشقات لجوقة الأعماق
ساريتي نشيدك أيها المملوء بالأصواتِ
واللذاتِ
ساريتي غناء مراكب الغرباءِ
واللهب الذى ينمو
على جرحين في لغتي
« – منارات .. منارات ... منارات – »
أنا المحمول في نزق العواصفِ ... آهِ
يانبضي ..
أعد جسدي
ووجه نبوءتي للحلم
أرجعني لعهد مباهجي الزرقاء
وارسم فوق اعضائي الغزيرة
بارتعاشات السعادة
مجد أحزاني الشريدة ...
أيها المحروس بالأسرار والرعد الجليلِ .
أقم لسيدة المفارق والشواطىءِ
عرسها الناري ،
وحدك من يذدْ

Digitized by Birzeit University Library

عن حوضها بسلاحه الدموي
وحدك من يفز
بحنينها وتخومها المجروحة الشرفات
والرؤيا . .
فجاهر بانتدابك للضحيةِ .
يا شرارة حلمنا الباقي ...
– منارات وذاكرةٌ ،
منارات وعشب أحمر ولظىً ،
منارات وبيداء ، وجثة نخلة وصدىً –
يقول البحر :
عانقني هتاف الموج
وهو يدور مبهورا بعينيها
وبالنار الطليقة في مفاتنها
تأصل في دمي ،
ألق الدوار ،
فهاج ملتاعا
ربيع الماء واشتعلت ...
قوافي البرق في صدري
فأنذرت الذين يحاصرون
سعادة الأزهار
أعلنت الوصول ،
بعيدة ... ، تلك النجوم ،
قريبة ... هذي المفارق والشواطىء والحقول ،
كئيبة ، وفريدة هذي التي
تزدان بالأقفال والفوضى
مثير حلمها المطعون

Digitized by Birzeit University Library

من زمن انهيار الحب والمأوى
مثير ، حزنها للنفع ياقلبي
فبادرها ..
ولو عجلت في ذبحي
على يدها ...
– منارات وأبراج معلقة بغيمة دم ...
منارات وأمطار وغوطة حب
منارات ورقصة شعب –
يقول الذاهبون الى حياض الحلم :
كان الوقت يدخل في
بياض الثلج والأزهار
حين ارتجّ جذر الأرض
واندفقت خيول الماء
في خطين
تلتهم الحصى والليل
كان الحلم أول مرة ينمو
وأنت هنا ..
بلون الوعدِ
ترتعشين كالبركان
تمتلئين أفعالا وموسيقا
يقول الذاهبون الى شغاف الحلم :
رائعة .. اغاني البحر
وهو يعود مختالا بشهوته
وموج سمّوه الميّاد ...
طافحة أغانيك بعطر الأرض
طافحة ... عيون الفجر بالأعياد

١٩٧٧/٢/٢٦

Digitized by Birzeit University Library

العاشقة تغسل قمصان العشب

محمود علي السعيد

تحتقن المقلة بالدمعة
والقلب بغصات الدم
والعالم من حولي يرقص
ـ عاشقة تغسل في ألق الخضرة
قمصان عشب
ـ قنبلة تسقط في صحن مخيم تل الزعتر
تنشطر الاشياء الى نصفين
نصف يصرخ وهو يضمد جرح الآخر
والنصف الآخر يرقص وهو يحرض
شفة الجرح

Digitized by Birzeit University Library

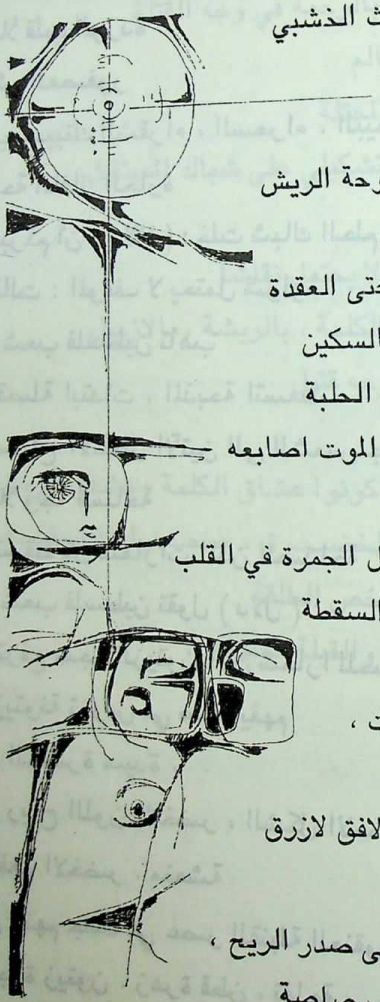

ـ فلاح خلف المحراث الخشبي
يشق التربـة
والسكة تصدح
ـ عصفور ينشر مروحة الريش
على جدران الشمس
العالم يتداخل فينا حتى العقدة
ملعون من يقطعها بالسكين
ملعون من يبتعد عن الحلبة
ملعون من تسقط في الموت اصابعه
من فرط صبابتها
ملعون من يغمد نصل الجمرة في القلب
من يصرخ من تعب السقطة
من وجع الاجهاض
جننت ، جننت ، جننت ،
العاصفة ابتدأت
والقمر على غصن الافق لازرق
في مرمى القناصة
وشعار العصر ـ على صدر الريح ،
الشمس ، التقويم ـ رصاصة

Digitized by Birzeit University Library

املأ قلب الوردة
عش العصفور
عب حبيبتك الشقراء ، السمراء ، البيضاء
راحة أطفال الحارة
أخبركم أن (دلالا) دخلت شباك الحلم علي
وقالت : الموقف لا يحتمل شراره
يا شعب فلسطين تأهب
المقصلة ابتدأت ، المذبحة اتسعت ،
وصراخ الاطفال الآتين الى الشمس جديدا
تملأ وجه الساحة
فلتسقط كل شعارات المدن الصداحة
يا شعب فلسطين تقول (دلال) :
لا ترفع شجر الزيتون الآن شعارا للحب
الزيتونة تغرس في صدر يفهم
ان الخضرة سيدة ،
ان رياح اللون الاخضر ، الشكل الاخضر ،
الطعم الاخضر ، منعشة
من منهم جسد في عصر القنبلة العنقودية
شجرة زيتون ، زهرة قطن ، تفاحة ،

Digitized by Birzeit University Library

ملعون من يتسلح بالرحمة في وجه القتلة
اللعبة يا كتاب العالم
يا شعراء الارض المحتلة
يا أصحاب الفن التشكيلي على شباك المستقبل
مشتعلة
أخبركم أن الموقف لا يحتمل نقاشا
لا يحتمل متاجرة بالكلمة ، بالريشة ، بالازميل
فقتيل يتثاءب في وجه قتيل
والدورة مكتملة
هذا عصر الردة ، كونوا عشاق الكلمة ، عشاق الريشة ،
عشاق مساحات الخضـــرة ، صحـــراء الزرقـــة ،
عشاق الطلقة ، وأخص الطلقة
فالبسمة محترقه ، والقبلة محترقه ،
والوردة محترقة ،

Digitized by Birzeit University Library

شهادة الخنجر في حضرة الأرض

عادل اديب آغا

يشهد حد الخنجر ..

تشهد فوهة البارودة والدم والموسيقى الحربية والاحزان وكل بيانات الاطراف المغسولة بالعار ..

وبالنار وبالكلمات الصوفيـة .. والنغمات البرقيـة والدمع الصعب :

بأن الارض اخترقت شهوتها للخصب ..

فشققها المطر الظمآن ..

خيول ترمح في الآفاق ..

خيول تجمح بين الغيم ..

فأفتح نافذتي للصمت ..

سيوف ترقص ، ها هي ذي تصطك .. فتبرق ..

Digitized by Birzeit University Library

تعلو ·· تعلو تهوى تقطع ··

ما اجمل لحظات الراحة ·· اذ ينفجر الدم ويسعى ··

يسعى فوق الصدر ·· من الشفة السفلى للقلب ··

وأكتب : ان الوطن ينادي ··

ان فلسطين ·· فلسطين ··

انفلتت من دائرة الموت

ومن لغة زرقاء كنرجسة سمراء كعوسجة ···

وانادي : لا احسب ان نداي سيصبح موسيقى ··

ها أنذا ارقص بين بريق السيف ··

وتحديقات الموت الاسرع وانادي : ··

يتصالب في صوتي سيفان ·· فتنزف كلماتي تنهمر الاسرار ··

اخاف على وطني فأطير ·· ادور ·· وادخل فيه ··

يعلمني من ملكوت العشق نشيدا ··

ويقبلني ·· شفة في شفة ·· معركة بعناق ··

كل الاعين تنفتح علينا ·· والآفاق تجيء الينا ··

اشجارا ·· اشجارا ··

المح برقا كنت اغادره خوفا ··

المح سيفا وانادي ··

Digitized by Birzeit University Library

يتحول صوتي مهرا ..
ارتكض كفرس ملاتها الصرخات البرية ..
الهث .. اقع ..
احس دبيب الحذر .. أرى احلاما وملوكا وطوائف ..
ورماحا .. وقبائل ...
يشهد حد الخنجر .. تشهد فوهة البارودة : قتلوني ..
قتلوني ..
والدم والموسيقى : باعوني ..
انتفض من الاكفان ومن اسواق النخاسين ..
لاكتب ان فلسطين انفلتت من دائرة الفتوى الرسمية ..
يعشب ورقي كوفيات حمـــرا أو سودا .. ووجـــوها
كالاصرار ..
أمد دمي وفمي .. والارض براح ..
ابحث في الاعراف وفي الاصفاد ارى ظلين ..
ارى شكلي وفلسطين البكر احتضنا عشب الارض ..
ومعركة تتلعثم .. خيلا ترقص .. اسئلة تتساقط ..
يا زمنا يكبر تحت سياط النعمة ..
انا نلتف كعشاق ..
فلنبدأ قافية التحديق .. لتخرج فاتحة الاشواق ..

Digitized by Birzeit University Library

أسئلة كالليل ·· وارفع للمشتاقة صوتي ودمي ··
ها أنذا اتلو سفر العودة ·· لا الهجرة ··
اقرأ سور الارض ·· وصوت الارض ··
ـ لك الزمن المتردي ·· لي نغمات الموج اليابس ··
معجـــزة بيديك ·· واني اصنع كل سؤالات الموتى ··
اكشف السنة الاحياء ··
تغسلني الحيرة ·· أدخل في الزلزال ·· او الجرح ··
وادخل حتى اشهد ··
اشهد : ان الارض اخترقت شهوتها للخصب
فشققها المطر الظمآن ···
واشهد : ادخلني الجرح الى جنبيـه ·· وهددني بالوشم ·· واغواني بالميراث ··
سمعت الدم يقول : حـذار ·· حـذار من الافاق المغبرة بالازرق ··
كان الوقت رمادا ·· واللغة قبائل ·· والطرقات ملوكا ·
فتشت عن الغضب المجنون ·· ملأت دمي بصهيل ··
ورسمت صليب الشوك عـلى صدري ·· ومضيت ··
رأيت وحوشا تطلع بين الجلد بلون الورد ··
وتنبت تحت اظافري الرخـوة ·· والدم يساقط فـــوق الارض ··

Digitized by Birzeit University Library

الارض مدى ومدى وجراح ...
ها هو ذا ليل كالعشق يقوم من الامواج ويسقط بي
يلتف علي .. انا الاشجار .. العوسج .. والمر .. انا
الخوف . وذا الجني ..
... أموت ؟
انا العنقاء ..
دخلت .. فمن ادخلني ؟
كم قمرا ينهار .. وكم شمسا تتفتت بي ..؟
يا صمتا يكبر .. يا عشاق اللغـــة الممزوجة بالتبـــغ
الفرجيني .. وبالكفيار .. وبعض الويسكي :
ارغب ان اتكلم : .. من جلد كل الاحرف بين الشفة وتحت
الحنجرة المذبوحة ؟..
يا رعد .. ويا صرخات .. دعوني انطق شمسا ..
يشهد حد الخنجر .. تشهد فوهة البارودة :
ان الارض ستهدأ حين ستلد .. دخلت اليها ..
يا رعـد ويا صرخات دعوني اولد .. ان الارض ستهدأ
حين سأخرج منها ..
ليس سواي سيخرج .. اني البعث الاصعب ..
كل ملوك العصر .. تماثيل الحرية خرجوا ..

Digitized by Birzeit University Library

وثقيل ليل الرحم علي/ ..خيول ترمح في الافاق .. خيول تجمح بين الغيم ...

فافتح نافذتي للصمت .. سيوف تقطـــع كي ينفجـــر الدم ويكتب :

ان فلسطين انفلتت من بين الدم .. ومن لغة كالصمت ..

واشهد ان الطمي يمر امامي .. يغلق كل الابهاء ..

لتبـــدأ لحظـــة خلق الحـــلم .. واشهد : ان الصمت سيصبح ملكا ..

يصنع عرشا من فرح الفقراء .. ومن احزان الارض ..

ستلد الارض صبيا يصبح شعبا ..

هوذا شعب قدوس كالاحلام بلا كلمات او دمع ..

يبتكر حروفا خضرا كالزلزلة .. وسفرا مثل العصف .. وعلما من نار ودماء

هوذا شعب صعب ينهض مكتنزا يملأ الرفض ...

هوذا شعب يعلن غضب الارض ..

ويعلن عشق الارض ...

ويصنع صوت الارض .. الارض ..

الارض .. الارض .

١٩٧٨

Digitized by Birzeit University Library

هما عربان

عدنان عمامه

الى اخي غسان

يبتدىء الوطن عليك كأنك جسد ممدود بين الرعشة والبحرِ ،
كأنك قنطرة بين النار وبين النار وآخرها أنت
تحترق يداك
وتبقى قامتك مساحة وطن
يحترق لسانك . تبقى شفتاك فراهة نخل
تحترق عيونك تبقى أنت كما أنت جريئاً وحزيناً ومدمّى .
تقتحم الآفاق وعمرك زنبقة في الوحل ،
تظل على موتك منتصباً
وتقطّع حزنك في الطرقات ، وتأخذ شكل عصافير ومصانع وجهات
فلماذا تنفى عبثاً
ولماذا طاردك العالم عبثاً
الأول أنت
والآخر أنت
فاضربْ في الأرض ولا تشحذ سكينك ، تشحذْ نفسك لما
تشحذ سكينك وتذوب سقاماً
الخوف يحيطك
والجوع صديقك

Digitized by Birzeit University Library

والجستابو العربي يطاردك على منفاك
ومن منفاك تطير هباء ،
وأنا شاهدتك في كورنيش المزرعة ، وكنت جميلاً في بزتك ورشاشك
والحزن الكامن في عينيك العسليين .
الجستابو العربي يطاردني في الليل
وطاردك على مدن العالم يا غسان
منفـــاك وسيع
ابتدأ المنفى يا غسان من القاهرة وجاب البحر وعاد الى القاهرة .
وبينهما يا غسان بلاد العرب المملوءة معتقلات .
يا ... المتقدم من ناحية القهر توقف
عنـــدي أسئلة
وحناجر أهلي مشرعة لك
من أنت ؟ ومنْ ذا طاردك على الدنيا
وَحلَفَ ليقتلك على كل الطرقات
من ذا المتقدم بين الشمس وبين الطعنات .؟
ما استقبلك الشارع يا وجه الدنيا وعيون حبيبي فيك ،
وما استقبلك العشاق بصرخة طلق .
كنت وحيداً في الجرح ، وحيداً في الطعن ، وحيداً في ساحات العالم .
ما استقبلك ذراعي لتنام عليه
لا امرأة كانت في عينيك على عادة كل العشاقِ
ولا مرسوم صدر لتقريبك من بيت أو جمهور .
كنت بعيداً عن مرمى يدك ،
فكيف تجيء مدمى
آخر دنياك الوجعُ
وأول دنياك الوجعُ
وتبحث عن شغل في الكاراجات وفي الدم . وتبحث عن بلد مفقود
بين اليقظة والنوم ، وبين الشارع والعربات

Digitized by Birzeit University Library

فلتُصغِ السمع الى نبض الدنيا
نبضكَ مثل وحي
ليس له أول
ليس له آخر
ويحبك جداً ،
ويساقط مطر ، والحرب تجيء على مهل ، وحبّي يتحرك مثل الضوء على الأشجار
هما قلبان ،
هما وطنان ،
هما عربان ،
الفاصل بينهما لا يتبدّى :
عرب يأتون من الرمل ،
عرب يأتون من الجمر الساكن فينا
هما عربان
ويفترقان ،
ويفترقان ،
ويفترقان .

Digitized by Birzeit University Library

سقط السمر في النار

سليمان السلمان

يا وطني المعروض هنالك في أسواق الطرقات البحرية
شلالات للدمع ، وآبار للنفط ، وكوفيات عربية ٠
التاريخ يلوح خطوطا شمعية
صفحات من جلد الاطفال
حقولا ينبت فيها الغدر
ويضرب جذرا في الصدر ،
تصير الضحكات مراثي شيطانية
وحشاشات النسوة قلقا ٠٠
فالارحام يمزقها قرف الوحم
فتنزف أجراسا ومسوخا وثعابين

Digitized by Birzeit University Library

وتفقس احلاما زائفة وأراجيح مقطعة
وتهاجر أشرعة السفر المقوت الى ميناء الحزن
وتكتب ميثاق الردة والاحلاف الهمجية ٠
بحروف كشفاه السادة عند خطوط الفصل تسف تراب الذلة
والنقطة بؤبؤ طفل مذبوح ٠٠٠ في فمه سبة عدل
تلعن من خط الحرف ومن كتبه

★★★

فمداخل سيناء لها عتبة
من يجتاز الجرح سيدخلها
القرم صليب الظهر سيدخلها
لكن المتهاوي عند خطوط الفصل كسيحا يجتر افانين الرغبة
أنظره دولابا للحظ يقامر فيه الاسياد يقودون اللعبة
يا زائغة الطرف ٠٠
جموح المهر أكيد في الطرقات الصعبة
والفرس الجامح لا يثنيه لجام القهر ٠٠ ولا يملكه من ركبه

★★★

مري باللفتات بلادي ٠٠!
استمعي صوت الآهات

Digitized by Birzeit University Library

اديري كفيك الى صدري
حطي وجهك في وجهي ·· صيحي !!!
أعرف صاعقة الرعد ·· وان نزلت لن تثني غضبه
ظل الاصباح على عينيك
رفيف النجم على ميزان الحدقة
جسد الغيم ·· رماد المحترقين ··
ضباب الجولان على ابواب القدس
رداء مضائق سيناء ، واحلام البحر الاحمر
صبر المخنوقين بشوق الزيتون ،
ودمع الليمون
وثقل المهجر
والمجد مظلة كون نزق
تحميها زفرات الطير الجارح والاحزان الملتهبة ·
ونشيد النصر ··
ضجيج الاقدام وعنف الضربات
تسمر فيها النجم عيونا مصعوقة
وتجمد فيها البحر على قدم الميناء ··
وصار الموج شفاها مسحوقة ·
يا أمي أذكر ··

Digitized by Birzeit University Library

ان البحار الصادق ..

من يصعد لج النار يقود الخشبة

اشتعلي يا امي غضبا

ردي الشال .. فسيناء قتيلة ،

Digitized by Birzeit University Library

والقدس عليلة

وعلى دربك نعرف كيف اضاع الساعي ببريد الـذلة في اللد دليله

يا شمشمون العصر ٠!

رسول الغدر ٠٠

يقص جدائل شعب جبار بشفاه « دليلة »

الآكل لحم الفقراء المستسقي بدماء الشهداء

يطير بجنح الغدر ويسجد في الحيرة

السادي النجس المتشفي بالموتى

يجمع قيء الاسياد ذليل الرأس ترامى يعلك ذعره

ان يتنفض في قصر النار فلن يرفع للموقد قبة

حفر الذل خدوده

والاعداء بأظفار الدولار يجوسون حدوده ٠

وعيون الاطفال الجوعى ، النسوة والفقراء

ستهدم سور العهر المنصوب وتأكل قلبه

تبصق في عينيه ٠٠ وتكتب :

ـ فحمي الخط على جبهته ـ

سقط الساحر في النار

فمن سيقود اللعبة ٠

Digitized by Birzeit University Library

المستقبل العربي

هل يتسع المجال بعد لمجلة فكرية عربية جديدة ؟

نحن نقول نعم .. شرط ان تكون

- وحدوية ● مستقبلية
- موضوعية ● جـــادة
- اهتمامتها من المحيط الى الخليج
- قراءتها من المحيط الى الخليج

المستقبل العربي

تصدر في مايو (آيار) ١٩٧٨

هدفهـــا

* **وعي الوحدة العربية**
* **وحدة الوعي العربي**

رئيس التحرير د. انيس صايغ
تصدر عن « مركز الدراسات العربية »
(ص.ب ٦٠٠١ ـ ١١٣ ، بيـــــروت)

Digitized by Birzeit University Library

ملف القصة

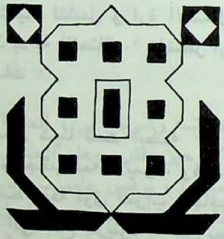

Digitized by Birzeit University Library

بريق العيون والزغاريد

محمود قدري

نفض ملابسه وصلى الباص بنظرة مقهورة غاضبة · شتم كل شركات المواصلات ، فركوب باص من هذا النوع لا يختلف عن المشي الا في أنه يكلف ليرة اكثر · ومع ذلك فلن تفرح « ايجد » بهذه الليرة ·

لم يبد الباص اهتماما بالشتيمة ، بل هرول في طريق مخيم « الجلزون » مطلقا قرقعة وصريرا ، كأنما تعمد اطلاقهما استنكارا لتلك الشتيمة الجائرة واعلانا عن عمق الحفر التي يحاول السائق عبثا تجنبها ·

استدرك ووسع الشتيمة لتشمل وزارة الاشغال · وبسرعة تذكر انه لا توجد وزارة للاشغال منذ بداية الاحتلال · فاضطر أن يهمل الامر · وتوجه نحر سور مدرسة البنات ·

تلفت حواليه وتحسس شيئا تحت ابطه · وكأنما احس بالطمأنينة والراحة ، فزفز الهواء من جانب فمه الايمن ، وهبط صدره · سوى بقدمه مكانا تحت الزيتونة ثم هبط بخفة فوق التراب الجاف · أخرج الرزمة الملفوفة بالقماش باتقان ، وركنها الى جذع الزيتونة · نقل بصره في ارجاء المخيم · ثم عاد وحدق في ظل الزيتونة الذي تطاول كثيرا فتجاوز الطريق الاسفلتي العريض · مد يده واتكأ على الجذع ، فتشكل من ظلهما شكل غريب اعجبه ·

بدأ يصفر بصوت منخفض ، ثم اختار حجرا أخذ يسدد اليه بكسل ما طالته يده من حصى وتراب · اصاب الهدف عدة مرات ، ولكنه تنهد تنهدة قصيرة، وأحس بشيء كالاسف ، فقليلا ما كان يخطىء الهدف عندما كان صغيرا · يطرده المعلم من الصف فيتسلل من الساحة ، عبر السياج الشائك ، ويجلس تحت هذه الزيتونة ذاتها ـ كأنها قد توقفت عن النمو ! · فاذا لم تكن زهرة ـ علكتها ، فانه كان يمضي وقته بلعبة الحصى هذه ·

Digitized by Birzeit University Library

لكنه كان يحس بمتعة اكبر حين يجدها · يمسح الارجاء بنظرة خاطفة ثم يرتقي حجرين ليبلغها · يسندها بكفيه · ويجدها فرصة مناسبة ليقبض على فخذها الذي انحسر الثوب عنه ، فتتدفق اللذة في عمق فمه وتنساب الى صدره ، فيحتضنها ويود لو يشتبك احد ازرار مريلتها بعروة قميصه لتظل معلقة ، هكذا ، على صدره ·

يتقلص جسدها ويرتعش بالنشوة · واخيرا ، تستقر امامه بابتسامتها الخجولة ، تسوي ثيابها وترمقه بنظرة خجل ورضى ·

★★★

لعب صغار ·· انها ما خصته بشيء دون سواه · عامر ، ذلك الشقي ، كان يحكي في غفلة من استاذ الحساب عن ما يفعله مع ابنة الكندرجي ، وهو أكثر كثيرا مما كان يفعله هو ·

لا يصدقه ! ··

ولم لا يصدقه ؟ !

اليس صديقه وابن حارته وشريكه في « العتالة » ومسح الاحذية ؟! يصدقه · ويفرقع ضحكا · وحين يقترب معلم الحساب ، تسبقه يده كالكماشة تنقض على شحمة اذنه تفسخها ، يرقص عامر ـ هذا الخبيث ـ قلمه بين اصابعه ، وتكشيرة منذ مئة عام تعلو وجهه · يتمتم بشفتيه ويعد على اصابعه كمن يحل حقا مسألة حساب · والآخرون ـ كلهم خبثاء ولا اهبل غيره ـ ينظرون اليه بدهشة واستنكار · كأن الضحك في حصة الحساب امر يدعو ، في نظرهم ، حقا الى الدهشة والاستنكار !

ولكن ·· ربما يكذب عامر ! ··

ولم لا يكذب ؟ اعرفه ·· فهو يحب السخرية ويهوى رواية ما يضحك منذ كان طفلا · لا يهمه ان تجني على احد ، كما لم يكن يهمنا نحن سوى الضحك · مع انني ، حين كان يتعلق الامر بزهرة ، كنت اضحك ·· اضحك وسياط ندم خفي تلسع قلبي · ربما لذلك السبب كنت أحس بالفرح حين يطردني معلم

Digitized by Birzeit University Library

الحساب · وتغمرني السعادة اذا جاء ذلك توا بعد الاستراحة الاولى ، اذ تبدأ استراحة البنات ، ويكبر الامل بلقاء زهرة ·

زهـــرة ! ··

الم تقل لك مرة وهي مستلقية عـلى صدرك ، تضغط بثدييها الصغيرين النافرين كدوافير التين الفجة ، انها لا تحب لقاء احـــد من الشلة غيرك ؟! وانها تحس بالانبساط حين تمس شفتاك شفتيها ؟! وانها تحب ان تظـل الى جانبك وأن لا تعود الى البيت ؟

كان ذلك منذ زمن ·· لعب صغار ···

كلا ··· لم يكن لعب صغار · والشهور القليلة لن تستطيع ان تغمر تلك الايام بالنسيان ·

وأنت ·· ألم تحزن على فراق زهرة ؟

وقفت تحت شجرة الخوخ · تبرق عيناها بريق الانكسار وتتردد فيهـا الدموع · فشتمت الخبز والافران ·· ألم يجد والدك غير هذا العمل ليهجـر المخيم ويسكن قرب الفرن في حي « الشرفة » ؟ !

ألبيرة ! ·· ألبيرة ! ·· أي شيء في « البيرة » أحسن من المخيم ؟ !

كم تمنيت ان تبقى مع جدك وجدتك وهذه « البراكية » ·· فزهرة تحبـك وانت لا شك تحبها ·

نعم زهرة تحبك ··

ألم ترحب بك قسمات وجهها ويقبلك بريق عينيهـا السوداوين عندمـا التقيتما في المحطة الاسبوع الفائت ؟

يا لله كم كبرت زهـرة ! ·

Digitized by Birzeit University Library

تراجعت من بين الفتيات خطوة ·· ثم خطوة · واقتربت منك خطوة ·· ثم خطوة · وها هو صدرها ···· ناضجا يبث أريج الحب ، ويغرد أنغام شوق فتي · جبينها يكاد يتكيء على كتفك ، فتنسى الناس وهدير المحرك ، وضحكات العذارى وغمزاتهن ·

يغادر الباص المحطة ، فتظل أنت وزهرة ونظرات فضولية تثب من الرصيف الاخر · وترتد عن جبينكما · تنسى أنك كنت تنوي زيارة المخيم وأنك في شوق للقاء عامر · وتسيران · أين ·· لا يهم · فالمدينة بر خلا لكما · والاصوات استحالت زقزقات طيور تزفكما للسعادة ·

وهي المرة الوحيدة التي مررت بها بمخفر الشرطة دون ان تلتفت اليه بشيء من التحسب · دون أن تتذكر الليلة اللئيمة التي قضيتها فيه يوم القيت القنبلة على بنك « لئومي » (١) · ولولا انها سألتك ، ما كنت تنبهت للمباراة الحامية التي تدور على ملعب « الفرندز » ·

تحب كرة القدم · ولكنك تحس بجفاف في حلقك ، وتفضل ان تجلس في حديقة « البيرة » تشرب شيئا رطبا وتحدثها · وحددت في مخيلتك مكانا يليق بهذا اللقاء السعيد · المقصورة الصغيرة قرب الباب الخلفي ، بعيدا عن الباعة وملاعب الاطفال والطاولة التي يحتفظ بها السقاة الثقلاء لانفسهم ·

وسارت الامور كما اشتهيت · فزهرة بين يديك · زهرة لك · يانعة كقرنفلة تفتحت في صباح طري · تفور بالانوثة والعافية · وتبتسم ، فتتعانق الحساسين في صدرك ، وتندف سماؤك ازهارا ملونة ·

لكنك تماديت ·· تظن ان زهرة لا تزال طفلة تنزلق من فوق السور لتتلقاها بكفيك · انتهرتك بحزم ولكن بلا قسوة · وحدثتك ·· ولكن ليس عن الحب ·· قالت اشياء كثيرة ، ولكنها لم تقل انها تحس بالانبساط حين تلامس شفتاك شفتيها · ولم تقل انها تود لو تظل بقربك وان لا تعود الى البيت ·

زهرة ليست حزينة · تنظر مباشرة في عينيك فلا تجد تفسيرا لبريق عينيها · لكنه ليس بريق الهيام الذي كان يعتريها وهي على صدرك · زهرة فازت منك بوعد ولم تفز منها بشيء ···

★★★

Digitized by Birzeit University Library

احس بالحرج والاحباط ، فحول بصره وتطلع الى الطريق ، واطمأن الى ان احدا لم يفاجئه · نظر الى ساعته واقتنع انه جاء مبكرا ، فهو لم يضبط ساعته منذ ايام ·

صر عينه ولم يكترث ، فالمكان مؤنس جميل ، ما لم تفاجئه قطعان « تساهل » تدق حوافرها كالخنازير البرية وتشمشم كل شيء ، حتى كعب حذائه ·

الشمس تغرب ، واضاءت سيارة الشحن القادمة على الطريق العام اضواءها الصغيرة ·

كان الله في عون سائقها · سائقو السيارات الشاحنة اصبر من اصبر حمار · انظر ·· سرعته لا تزيد عن العشرة وربما الخمسة عشر في احسن تقدير · وليس هذا فقط ، فسائقوا السيارات الصغيرة دائما مستعجلون ، فاقدون الصبر · انظر كيف يكاد هذا « السيد » ان يحشر سيارته تحت عجلات الشاحنة · يزمر ·· يغمز ·· يرسل اشارات الضوء المبهر ·· ينتقل من اليمين الى اليسار ·· يود لو يقفز عن الشاحنة او ينفذ من بين عجلاتها · ولكن سائق الشاحنة لن يحفل به · فهو لا يستطيع ان يسير هذا المنعطف الا هكذا · وسيضطر « الافندي » الى تجشم مشاق الانتظار ، حتى تعتدل الشاحنة على يمين الطريق ·

اعتدلت الشاحنة ومرقت السيارة الفخمة بسرعة · لمح سائقها المقعي خلف المقود كتمثال نصفي · بلغت مسامعه اصوات موسيقى حالمة · احس بالراحة لدى سماعه صوت المحرك الضعيف ، كأنه لهاث متصل لكلب متعب · تمنى لو كان بصحبته احد ، ليحدثه عن هذا المحرك القوي باسطواناته الست ورأسه « المائل » وليظهر معرفته الدقيقة بكل اجزائه ومدى قوته ، واستهلاكه للوقود والحد الاعلى لسرعته · فهذه هي صنعته التي يحبها والتي من اجلها اكتفى من العلم بالمرحلة الابتدائية ، والتي من اجل ان يتعلمها تحمل كل قسوة « العمري » وثقل ظله · وقد تعلمها · ولذلك هو يكن للعمري بعض احترام · ومع ان المعلم لا يزال يناديه « يا ولد اترك ما بيدك واخدم الافندي » الا انه في قرارة نفسه واثق من احترام العمري له · فهو قد يكون اصغر معلم «ميكانيكي» في المدينة ، ولكنه معلم على كل حال · وله سطوة على « قرود » المخيم ، هؤلاء الاشقياء الذين ترتد من عيونهم امضى المخارز · ولكن مع من ؟ انه

Digitized by Birzeit University Library

« سمير » !.. تخرج الكلمات مـــن فمه مقتضبة مدغومة « رنغ ١١ ـ ١٢ » وثوان ويكون الرنغ في يده ، وعيون الاولاد تتابع يـده باهتمام ، فيحس انه مثل هؤلاء الاطباء الذين يشاهدهم على شاشة التلفزيون ،والممرضات متحلقات حولهم . لا يكاد الطبيب منهم يمد يده حتى تستقر الاداة المطلوبة فيها .

انه طبيب ايضا . طبيب سيارات شهير . وعما قريب ، سيكون لديه من المال ما يكفي لفتح عيادته ـ كراجه الخاص .

ولم لا يعجب « العمري » به والكل يحسب حساب لنظرته ؟

تتعلق عيون الزبائن بشفتيه ، فاذا ما تمتم شيئا ما غير مفهوم ، اخـــذ الزبون . وخاصة ، اذا كان من نوع « الافندي » الذي لا يعرف الا ان يـــكون دائما على عجل ، ولا تهمه التكاليف .

والعمري يعجبه ذلك ، وفي اغلب الاحيان لا يشعر سمير بالضيق . فهو يحب ان « يسلق » هؤلاء المتعالين المترفين . يأتي الواحد منهم فيوقف سيارته امام الكراج ويتحدث مع المعلم بقرف . يغلق نوافذ السيارة ويفتـح الراديو ويبدأ تصفح مجلة اجنبية .

ونحن نرفع السيارة ـ ونرفع « الافندي » معهـــا ـ نفك .. ننظف .. ونعيد التركيب والافندي لا يتنازل لمجرد النظر الينا .

يحبو العمري اليه . فيشق زجاج النافذة ويمد يده ، بحذر ، باكبر قطعة نقد . يحار المعلم قليلا ، ثم يدفع « الهرتزل » الى « الجرو » الـــذي ينطلق عدوا ، كارنب بري ، مسافة اكبر مما يمشي الافندي طيلة الشهر . من الكراج قرب جامع جمـــال عبد الناصر حتى سوق الخضار ـ المنطقة الاكثر ازدحاما والتي لديه فيها ذكرى سيئة فقد كاد رأسه ان يشج في احدى المظاهرات التي انطلقت منها . ورغم انه يمر بمتجر « ابو النمر » الا انه لن يسأله عـن فكة الهرتزل . فلو فعل لحدجه ابو النمر بنظرة احتقـــار ، ولشتمه مرتين . مرة بصوت مسموع ، شتيمة شخصية ، لانه وقف ، بكل قذارته ، امـــام الفترينة النظيفة « الصحية » . ومرة اخرى في سره مع الذين يظنون ان ابا النمر قـد فتح هذا المتجر الضخم ، ووضع فيه بملايين الليرات ادوات صحيـة وسجائر اميركية ، ليفك للناس قطع مئات الليرات . واكثر من ذلـك ، ستظل التكشيرة

Digitized by Birzeit University Library

تقبض على وجهه المترهل حتى ولو زاره « برين » الحاكم العسكري لرام الله واللواء ، وشرب « في معيته » فنجانا من القهوة ، واثنى على تفهمه وموضوعيته وبشره بأن نصيبه من نمر السيارات العمومية قد اصبح مضمونا .

وحين يمد يده ليتسلم ما تبقى من النقود يحرص الافندي ان لا تمس يده يد المعلم . ثم « يشنش » سيارته « ويغور » .. واتبعه بصقة ، وانا اعلم ان « العمري » سيؤنبني بتلك النظرة التي يريدها ان تعبر عن الغضب ، فتأتي معبرة عن العهر والوضاعة .

لماذا ؟ اقسم بالله ان ابا عامر كان يدفع اكثر من اي واحد منهم . لكن « العمري » لا يحسب الا النقود ولا ينحني الا لها ، بالاضافة لرجال الشرطة . ينسى السجائر والقهوة والكولا والبسكوت .. حتى وجبة الغداء ، كان ابو عامر يحضرها بين يديه ، وهو يبتسم ويصرخ : اتركوا كل شيء «فالطحل» لا تؤكل الا ساخنة تلدع اللسان . ويفرد الجريدة فينطلق البخار الحار ، وتتخاطف كتل اللحم المبهرة . وتتورد خدود « الجرو » وينز العرق من جبينه ، ويوشك سائل ان يسيل من انفه . يعيده بسحبة هواء ، ويضحك بتهور وهو يشتم ، ويقول ان اللحم الذي التهموه اكثر مما يتغدى به كل من في « مخيم قدوره » . فينفرد وجه المعلم بأبتسامة نيئة ، تقول ان من يعمل عند العمري يحظى بوجبات شهية كهذه . وان على ابي عامر ان يقدم اكثر من ذلك حتى يصلح له شاحنته . ولكنه بخيل نتن لا يستحق خدمة مخلصة . وانه لا يشتري اللحم من جيبه الخاص ولا من عرق جبينه . وانما من جيب صاحب الشاحنة ، ومن الاموال الطائلة التي يجنيها من تهريب السجائر والشفرات والعقود والساعات ، وغيرها الكثير ، من الضفة الشرقية .

عندها ، كم كنت اود لو استطيع التقيوء في وجه المعلم .

فأبو عامر لا يقبع الآن في السجن بسبب هذا . يبدو انه كان يهرب اشياء غير الساعات والسجائر ...

★★★

اقتربت الشاحنة فارتعش بدن « سمير » ، واخذته الشفقة على المحرك الذي يئن انينا رتيبا . واحس بالدم يسري سريعا حارا في جوفه كما يسري ماء المحرك في انابيب التبريد .

Digitized by Birzeit University Library

تركز بصره على السائق ، فوجده صغير الحجم نامي الذقن ، مبملق العينين · بعد قليل سيدوس بقوة على دواسة الوقود ثم يضع « جيرا » اعلى « فالطلعة » قاربت نهايتها ·

تشنج بدنه مع صرخة المحرك العالية المستغيثة· وانتظر··انتظر··انتظر·· حتى خفت ضجيج المحـرك العالية فاسترخى · وتابعت الشاحنة طريقها بنشاط متجدد وسرعة اكبر ·

سيصل بعد قليل الى الحسبة · اما اذا اوقفته الشرطة للتفتيش عنـد حاجز « البالوع »فالويل له · سيترحم على ايام الحواجز الاردنية التي كان يتدبر امره معها بعلبة سجائر · سيتلقى نصيبه من الشتائم بعدة لغـات ، وسيشتم في سره ـ الاف الشتائم بلغة واحدة ـ قبل ان يسمحوا له بمواصلة سيره · ولكنه على كل حال ، لن يتخلص مـن حمله قبل منتصف الليل ، حين ينام الناس فيتوقف البيع · سيغفو ساعة على بسطة ريثما يتم افـراغ الشاحنة · وقد يعود الى نابلس في نفس الليلة ـ اذا كان من اهالي المدينة ـ اذا اكتفى بساعة النوم هذه ، او يقضي بقية ليلته في احد الفنادق الرخيصة ، اذا كان يخشى الشاحنات العسكرية المستهترة ، او يخشى التورط مـع حاجز من اللصوص ، الذين يرتدون القبعات الخضراء ويدعون انهم حراس الحدود· وخلال ذلك سيكون الافندي يغط في النوم في فراشه الوثير النظيف ، او يمضي ليلة حمراء في « الخان » (٢) في القدس الغربية ·

★★★

ثقبت النجوم قشرة السماء الرمادية ، وتلألأت ضعيفة كعيون قط وليد · وانعكست صورها على سطح الجبـل اضاءات شاحبة في اكواخ المخيم · صارت الاجساد ظلالا قاتمة تتحرك ، تبتلعها الهياكل الوضيعة او تلفظها ·

احس انه انتظر كثيرا ، وان على « عامر » ان يحضر في هذه اللحظة · ارسل بصره نزولا في طـريق المخيم ، فشاهد ظلا يصعد الطريق باصرار ، ولم يخامره ادنى شك في انه « عامر » ·

تناول الرزمة وتشاغل في تقدير عـدد السيارات التي ستمر حتى يصل عامر اليه ·

Digitized by Birzeit University Library

مرت مجنزرة ، وسيارة تميز لوحتها المضاءة الصفراء ، فلم يحتسبهما ، واصر على احصاء السيارات ذات اللوحة الزرقاء (٣) فقط · وكانت مفاجاته ان وصل عامر قبل ان تمر سيارة واحدة ·

تصافحا · ولو كان سمير يعرف الاتجاه لانطلق مسرعا · ولكن عامر طلب منه الانتظار قليلا · سأله عن العائلة وعن العمل · وتحدث باقتضاب عن المدرسة وعن الايام الساخنة التي مرت ، وعن الايام الحارة المقبلة · واستغرب سمير كيف انه لم يلاحظ ، قبل هذه المرة ، ان صوت عامر قـــد اصبح اكثر خشونة وغلظة ، واكثر رزانة ·

لم يدر بخلده ، لحظة واحدة ، انهم بانتظار هذا الظـل الانثوي القادم نحوهم · وقد كاد ان يسأل عن المكان الذي سيذهبون اليه عندما سمعها تحييهم بصوت لاهث ، ثم تنهيدة تعلن عن توقف الاضطراب لدى صاحبتها ·

لم يحاول اخفاء دهشته · ولو حاول لما استطاع · فكيف يقدر ، وهـــو الذي اعتقد بالامس انه قد فقد زهرة ·

وعامر لم يخبره ، جاءه ، كزبون متأخر ، وهو يغلق باب الكراج وعاتبه على قلة زياراته للمخيم ، وطلب منه ان يحضر مساء اليوم وان يحضر معـه « عدتـه » مفكات ·· و « زراديـة » و ··· فمـا حاجتـه بهـا ، والامر كلـه لقاء زهرة !··

ولولا صوت ورق الزيتون الجاف يتكسر تحت اقدام عامر ، لما تنبهـا · ترك يدها وسارا صامتين يحمل كل منهما رزمة تحت ابطه · لحقا بعامر وسار الثلاثة في صف واحد ·

الطريق الترابي يدور حول المدرسة ثم ينحـدر · الهلال الفضي الساطع يحاول جاهدا انارة الطريق ، فيفلح في انـارة اكوام الصخور البيضاء التي تخلفت بعد ان هجر المقاولون « الكسارة » العجوز ·

الغبار والحر وضجيج الكسارة كلها تثب الى مخيلته المشغولة بالازهار والحدائق و « زهرة » والزغاريد · لكن الواقع الجميل يغمر الصور القاسية كلمـا حـاولت ان تطفو · فتظل هذه الصور تتعثر عند حواف مخيلته كانهـا

Digitized by Birzeit University Library

حيوانات متوحشة ، تخشى الضوء الملون الساطع الذي ينير مخيلته في هذه اللحظة · ذلك الضوء الذي يزداد سطوعا وتبرجا كلمـــا لمست يده اطراف اصابعها الملساء الحارة ·

شيء غريب حقا · عامر يقودهما الى عالم آخر · اشار عليهما بالتمهل ثم دلف الى المغارة · أضاء « اللوكس » وطلب منهما الدخول · في صوتـــه حنان يبلغ درجة الحزن · يخاطبهما الاثنـــان معا وكأنـــه يحس بما يعتمل في صدريهما ·

تقدم الى عمق المغارة · حمل رداء ستر به بابها ·

لقد اعد كل شيء باتقان !

اخرج من جيبه علبة ثقاب واشعل قنديلا ، فاضاء وجه زهرة ، والتمعت عيونها · تبسم سمير واحس ، للمرة الاولى ، انه لا يستطيع ان يفقد زهرة ·

رفع عامر غطاء عن آلة مـــا · نظر سمير في وجهـــه باستغراب · قال عامـر بتردد : انها آلـة « ستانسل » استعرناهـــا من احدى المـدارس · سقطت على الارض ونحن ننزلها من الشباك · تستطيع اصلاحها ؟··

اعرف انك تستطيع اصلاحها · انت تستطيع اصلاح كل شيء ·

قال ذلك وتناول من يد زهرة رزمة من الاوراق ·

نيسان ١٩٧٨

.....

(١) بنك لئومي : بنك « اسرائيلي » « الاهلي » ·
(٢) الخان : ملهى ليلي في القدس الغربية ·
(٣) السيارات ذات اللوحة الزرقاء : المقصود سيارات الضفة الغربية ·
الهرتسل : ورقة ١٠٠ ليرة ·
تساهلا : جيش الكيان الصهيوني ·

Digitized by Birzeit University Library

الرحلة

زهيرة زقطان

.....

المدينة ... بيروت ...

.....

.....

كانت المدينة تساهر الموت والعشاق ...

والشارع الغارق في الحصار والصمت يتابع شبحها القادم ...

.....

الشبح ...

... امرأة مدهشة قادمة من مدن القهر لمدن الموت ... عند عامود النور المطفأ كان الرجل يتكىء ماسورة بندقيته ، يشعل سيجارة ويتابع المرأة القادمة اليه ....

حين وصلت جلست بجواره ...

.....

سألته ،

ـ تأخرت ؟...

ـ تعودت انتظارك ...

Digitized by Birzeit University Library

ـ ما اسمك ؟...

ـ صافي ...

ـ انا ليـلى ...

ـ من اية صحراء قدمت ..

ـ من الليل ... كانت الارض العربية كلها غارقة فيه .

ـ وجهك وجه مدينة اعرفها ...

ـ حيفـا مدينتي ...

ـ احسست ذلك ... قالت امي ان للحالمين بها ملامح خاصة ...

ـ امـك ؟...

ـ راوية البحر على المتوسط تعرف كل الاشياء ...

ـ جئت اليك من مدينة حملتك اللعنة يوما ...

ـ كل المدن حولي حملتني اللعنة ، لكن ذلك ولسبب ما لم يعد يهمني ..

ـ المهم الان .... كيف الاحباء فيها ؟..

ـ يغرقون في الليل ...

ـ والمتوسط ...

ـ يمتد آسرا واسيرا ...

ـ والرحلة ...

ـ الكل يركب الرحلة ...

ـ هل تمشي الاشياء عادية ؟.

ـ لا ...

ـ تغيرت الناس ؟...

ـ تتغير الاشياء بسرعة مذهلة ...

ـ والاحبـــاء ؟...

Digitized by Birzeit University Library

ـ يغرقون في المتاهة ويعتقون الشوق للعشاق ...

ـ والرافضـــون ...

ـ ارتحلوا الى مدن اخرى ولم يكتبوا لنا كما وعدوا ...

ـ حدثيني عن كل الاشياء واحدة واحدة ...

ـ البـــدء ...

ـ الحرش ؟...

ـ هناك ... قرب المدينة التي تعرفها ...

ـ والاشجار ؟...

ـ لا تزال فوق الارض ...

ـ والعصـــافير ؟..

ـ ترفرف دون ان تقترب ...

ـ صوتهـــا ؟...

ـ مات المغني ؟...

ـ والعشاق ؟...

ـ تفرقـــوا ...

ـ لماذا صمت صوت المغني ؟...

ـ رفض الهزيمة ... رفض تشويه المرايا ... اعلن رفضه بطريقه حـــادة حين توقف عن الغناء ... طيور الشباب الحزينة اعلنت انتمائها لرفض المغني ... قالت له ان المرايا تظل مرايا ... وتوقفت عن الغناء ... هي الان تخفق بأجنحتها فقط ...

ـ قد تغني للموت بلغة اخرى ...

Digitized by Birzeit University Library

ـ سيمر وقت طويل قبل ان تعاود الغناء ...

ـ لعلها تقاوم ؟...

ـ هناك لا يبالون بصمت العصافير ...

ـ والارض ... تتذكرنا في وحدتها ؟...

ـ هي ليست وحيدة ...

ـ الا تمتد تحت كل الاشجار هناك .

ـ اصبحت صديقة للغرباء ...

ـ لم يكن هنـاك غرباء ...

ـ هم الان اكثر من عدد الشجر ...

ـ ليلة الرحيل .... لم يكن هناك الا هي .... كانت تقاوم كل اللغـات الغريبة القادمة صدرها ... اودعناها جثث الرفاق ... حفرنا على اصول الاشجار اسم كل عاشق نام هناك ... حملت كل شجرة وجه مقاتل ، وبكت... ظلت تبكي حتى استحالت اصولها فحما .... وفي الجذور ... في الاعمـاق الاعماق خبئت عظامهم ...

ـ قلت لك تتغير الاشياء بسرعة مذهلة ...

ـ هل اقول ... لا اصدق ...

ـ الغرباء ... يتركون في الاشياء وجها اخر ...

ـ عكا لم يغير وجهها الغرباء ولا الحصار ... ولا كل السهام في قلبها ظل الفارس شوقهـا ... وهو في الاغتراب الطويـل ظلـت مسامـه تشتـاق ملح البحـر ....

ـ تحت الاشجار افتتحوا منتزها ، ووضعوا تحت كل شجرة مقعد لسائح..

Digitized by Birzeit University Library

ـ وعظـام العشاق ...

ـ يستريح فوقها الغرباء والسواح ...

ـ كانت حقيقية وصلبة ...

ـ اواصل ... تتغير هناك الاشياء ...

ـ ولون الشجر ...

ـ حتى وجه البحر الابيض ... عندما ارتحل اخر العشاق من المدينة جاء اليها تجار وغرباء من بلاد بعيدة ... ربما لم يأتوا تلك الليلـة ... لان بعض الناس الذين استطاعوا الكلام ، اكدوا انهـم رأوهم يخرجون من زوايا مـا في المدينة ... كانت حقائبهم سوداء وتمتلىء بالاصباغ ... والكتب الغريبة عن النوم والراحة ... واقراص للصمت والنسيان ، انتشرت الاقراص الغريبـة في المدينة ثم امتدت تحت كل جفن يسهر ... بدأ كثير من الناس يمتنعون عن التفكير والقلق ، وبكاء احبائهم الذين ناموا تحت الشجر ، كذلك لم يعودوا يبـــالون بالذين رحلوا ولم يكتبوا بعد .

ـ والحـزن ...

ـ كلما تفجر .... يبتلع الناس اقراصا اكثر ...

ـ اي لون هو الحزن هناك ...

ـ لونه السري من لون البحر القديم ... بينما فجر كل يوم ... يـزداد كثافة مع سماع خطوات الغرباء ... وحده الحزن ينموا تحت الصمت هناك ..

ـ من يغني للحزن بصمت ؟...

ـ شاعر اصيل من مدينة على المتوسط ، استطاع ان يقتحم الوان الشجر ويكتب عن المرايا والبحر ...

ـ وعن الرحلة ؟...

ـ قال كيف ارتحلوا من كل المدن ... واحدا ... واحدا ....

....

Digitized by Birzeit University Library

....

٢ ـ « البحث »

....

....

يوم ارتحل ليواصل ... لم يكن يدرك السرعة المذهلة في الاشياء لم يترك لها عنوان ... كانت الاشياء مالحة وساخنة في الذاكرة والعروق لم يعرف اين تكون الان ...

لم يستطع حتى لو رآها ان يقف تلك الليلة في عينيها ليقول لها سلامـــا يا سيدة البحر ...

تركها للبحر الذي تغير ... والليل الوافد ... وواصل ....

....

ها هي ليلى البحريـــة ...

قادمة وجه بيروت تطرقه وتبحث عنك ... من الصحراء خرجت اليك... سمراء كالصحراء ... وحيدة وغامضة كالصحراء ... قتلها العطش والشوق للغناء كالصحراء تماما ... رحل عنها البحر يوم غادرتها ... وحمل معه كل جبال الغيم البيضاء ...

كان بيتها بعدك مواجها لكل القادمين من المدينة ... اتاح لها ان تـرى كل من يعبر باب المدينة ... استطاع بعض المارة التعرف عليها ... واستطاعت بالجهد ان تجمع عنك اخبارا تعرف ان الفارس يواصل الرحلة ... وان المدينة الان بيروت ...

....

Digitized by Birzeit University Library

هـــا هي ليلى ... سيدة تتسلل ذات ليلة مع بعض المارة الذين عرفوها ... هي تجيد المشي في الليـــل ، وتعرف كل اسرار الليل والبحـــر والصحراء جاءتك حافية تمشي على اتساع الصحراء ... كان الصبار والشوك والدم هو خيط الحصى المرشوش امامها حتى لا تتوه ...

حملت معها ليالي الحرش والبحر ... ووجه كل الشجر الاخضر الـذي تلون ... والفارس يقرأ للجمـــع على باب الخيمة عن قصة اطفـــال الغابة وزوجة الاب ...

حين انتهى الفارس من الرواية استطاعت ان ترى بوضوح اطفال الغابة يرتحلون الى المنافي بجيوب مثقوبة ترش كل الطريق خيط الحصى الصغير ليعرف اللاحقون الطريق تتبعت خيط الحصى ... ودقت قلب بيروت بكل جسدها ... تعرفت عليك بسهولة بين آلاف الوجوه التي تغرق شوارع المدينة ...

بصراحة ... في المدينة داهمها خوف المدن الغريبة ...

همست في وجهك خوفها ... قالت ... هات سلاما ايهـا المسافر ... هات اسمك ، ووجهك وعمرك ...

لم يعرف احد انني هربت اليك ... وانا حتى اللحظـــة ... لست شيء ابدا اريد ان اكون شيء ما ... شيء كبير وهام وحقيقي ... شيء ما يرتبط بك ... استمعت لهذيان ليلى ... كما لم يستمع اليها انسان ... خبأتها عـن شوارع المدينة التي لا تبالي ، واضعتها في صدرك حتى التلاشي ... خبـأتها تلك الليلة عن كل العيون ....

وفي الصباح ... اصبحت شيء منك ...

حملتها لكل الشوارع ... لكل الازقـــة الساخنة ... حدثتها تاريـــخ الشوارع ... تاريخ الموت ... ليلة ... ليله ... قرأت لها كل ملصقـــات الجدران على حيطـــان بيروت ... حكيت لهـــا قصـــة كل المـــرايا ... قالت لك ... المرايا تظل مرايا ... هكذا قالت العصافير البحرية للسلطان ...

Digitized by Birzeit University Library

قلت لها ... ـ هي الرحلة يا ليلى وانا اركبها ...
قالت لك ايها المسافر في الموت ...
ـ هي واحدة في كل المدن ...
....
....
....

٣ ـ ... الموت ،

....

صمت كل شيء ... كل شيء ...
اجتمع الرفاق ... وبدأوا البحث عن الوجوه التي غابت ...
وجهك المرآة ... يتسلل الى لحظتهم ... الكل يبحث عن وجهك ...
... في مكان ما ... في زقاق ما ... تحت شجرة تنمو في هذه المدينة.
تمدد جسدك في استراحة اخيرة ...
....
المدينة قرب البحر تزداد ضجيجا ... والقادمة من ليل الصحراء تتابع الاشياء وتحس بها تتفجر في اماكن خاصة ...

الليلة ... ستخرج كل جنيات البحر للشاطىء ... ليقلن سلاما ايها القادم للبحر ...
....
....

٤ ـ الوداع ...

... هو ليس وداعا عاديا ...
لانك لم تقل وداعا ... هي ايضا لحظة افترقتما في المساء لم تسالك أن كنت ستغادر ...

Digitized by Birzeit University Library

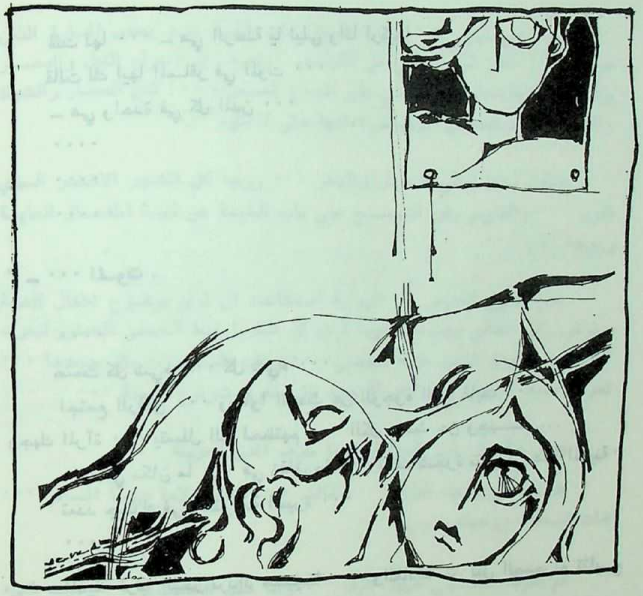

فجـأة ... ظل الليل طويـلا فوق المدينـة ... واختفتـك الاشيـاء التي اشتقتها وابتعدت ...

وحين استرحت هناك ... عرفت هي الى اين غادرتها ...

....

في مكاتب الرفاق كانت المطابع تسهر ... لتوزع وجهك على كل جـدران المدينة وعلى وجوه كل اطفال الزعتر ...

وكان التاريخ الحقيقي مخزون تحت مسام فرسان البحر يزداد صدقا ... المرأة تتابع الاشياء ، وفي احيان كثيرة ببلاهة ...

في المركبة التي تغادر كان اطفال الزعتر الذين يحمـلون وجهـك يعلقون

Digitized by Birzeit University Library

لافتة تعتلي كل الرؤوس ...

تقول اللافتة المرتفعة ...

ان فارسا من عشاق البحر ... ارتحل الليلة الى البحر ...

وان رصاصة اطلقها الاعداء الاعداء ... عبرت صدره ، فخرجت الجنية من عصور القهر للشاطىء وجمعت من جسد الفـــارس زهرة حمـــراء زينت بهـا شعرهـا ....

... اما البقايا ... فيعرفها العشاق والاعداء ...

....

....

٥ ـ المحطـــة ...

....

كل الجمع في المحطة ... كلهم جاؤا ... كل الاطفال القادمين من ليل تل الزعتر ..

كل البنادق الساخنة ... كل اصحاب الالوان الداكنة ...

كل رجال البحر ... كل عشاق الشعر ...

كلهم جاؤوا ...

حضرت كل الاشياء التي غابت ذات ليلة ...

اما الرفاق الرفاق ... فقد لوحوا ببنادقهم الساخنة طويلا جدا ...

....

الجثة تغرق في الدم ... والملصقات تغطي كل الجدران في بيروت ... والمدينة حارة ... اكثر حرارة من صحراء الجنوب ... الشوارع البحرية فيها تنسحب لممارسة يومها بلا مبالاة ...

والردع على طول الشاطىء يسهر مع الوجه الاخر للمدينة ...

يحكي عن اشياء اخرى ... ويرمي في نهاية الليل الزجاجات الفارغـة للاسماك في قلب البحر ..

Digitized by Birzeit University Library

....

....

المرأة القادمة فوق كل الاشياء ... تتابع الافق .. وعصافير جاءت من مكان ما تقف فيه عكا على البحر ... عصافير غريبة تتقدم نحو الجمع ... تقتحم امتداد البحر ... والصحراء ... والمسافات ... وتشم بمناقيرها ... رائحة جسد ساخن في شارع ما ...

... حضرهم كلهم جبل الغيم الابيض الذي حمله يوما فارس البحر وارتحل فيه كان جبل الغيم الان يفرض حضورا عجيبا ... ويظلل جسد الفارس ...

ازداد الرفاق التصاقا ببنادقهم الساخنة ...

وتحولت المرأة لبركة حزن واسعة ، وتمددت امام العصافير ... هجمت العصافير واستحمت في حزن المرأة .... وارتفعت في جبل الغيم الابيض ...

كان جبل الغيم الابيض يختلط بالعصافير بجسد الفارس ويعود الى البحر ويكتب في طريق عودته براءة المحارب من كل المدن ... والعواصم ...

.... براءة ... براءة ...

....

....

٦ ـ الفرح ...

....

....

هو فرح خاص ... لا يشبه فرح الاخرين ...

الجمع يغرق في ذهول الرحلة ... وليلى تستدير للعودة .

قال لها طفل من الزعتر ... احكي للاحباء عن حادثة البحر ...

اودعت صدرها ملصق وجهه ... وغادرت ...

....

Digitized by Birzeit University Library

....

في استراحتك الاخيرة تستطيع ان ترى وتسمع ...
خبأتك ليلى تحت جلدها ... وعبرت بك كل الاستحالات ... حتى الحرش

حين وصلت ... كانت عظام المرايا تخرج من طين الارض ... مصبوغة بلون رصاصي غامق ...

كانت عظام المرايا تقول من اراد ان يعرف كل الاشياء في كل المدن فليحدق جيدا في وجه رجل الملصق ....

كانت عظام المرايا واضحة كالشمس ... كالبحر ... كالموت ...

كانت عظام المرايا تعكس وهج الشمس في عيون كل العرب ، ولا تبالي بمن يفتش الجيوب من الحصى حتى لا تمتد المسافة واضحة للاخرين ...

...
...

٧ ـ اللقـــاء ...

مرة اخرى ...
رجل العامود ... وامرأة المدن المقهورة ...

مرة اخرى ...

ليـلى ... وصـافي ...

بطريقة غريبة تتجمع الاشياء ... وتتعلق المرايا على كل الشجر ..

هم قادرون على الصحو ...

الليلة سيسهر كل الجمع ... وسيأتي كل الشجر الصديق ... وستكون هناك جلسة طويلة عن الوطن ...

صافي اكبر المرايا ... الليلة يعكس وجوهكم ويريكم وجهه ...

كل طائر منكم عليه ان يحكي لصافي حكاية ...

Digitized by Birzeit University Library

وسيحكي صافي لكم ايضا حكاية ...

...

ليلى ستكشف صدرها ليقرأ كل الجمع الملصق ...

ستعلق صورته وسط الجمع ... وتقرأ تفاصيل يومه الاخير في بيروت .

...

...

حين علقت ليلى صورته الكبيرة ...

هتف الشاعر المغني فجأة ...

- سأقرأ قصيدتي ...

....

....

مرة اخرى كل الجمع ... لم يتخلف احد عن الحضور ...

كل الجمع يجيد سماع الشعر ، وكلهم عشاق المغني ...

بين الشجر الكثيف ... سرت اشاعة ما ... تسللت لاسماع الحراس فتكاثروا ... وبدأوا يغرقون المكان سهاما ....

الحراس وحاملي السهام المسمومة يواصلون البحث عن الصوت ... لكنهم لسبب ما لم يستطيعوا أنْ يروا الجمع ... او يعرفوا من اين ياتي الصوت كان صوت الشاعر يواصل ... عذب وحزين ...

اما الاشجار وقد تفجر عشقها القديم للمغني فقد بدأت تبكي بصوت مرتفع اذهل الحراس ...

حين انتهى المغني ، كانت اصول الاشجار كيوم غادروا ... بدت تحت اللون الصبغي سوداء كالفحم ... ولم يكن معها الا المرايا ...

Digitized by Birzeit University Library

كتب

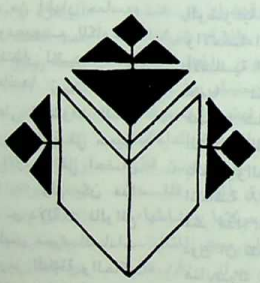

Digitized by Birzeit University Library

عبد القادر شـــهيب . لعبة القطط السمان في مصر

بيروت ، مطبوعات التضامن ، ١٩٧٨ .

عندما عاد **انور السادات** من زيارته للقدس المغتصبة ، ازدانت شوارع مصر ، فجأة ، بأقواس النصر والزينات ولافتات الترحيب والاضواء الملونة التي أقامها التجار ومحلات البضائع المستوردة ، وصكت الاسماع أصوات ميكروفوناتهم التي علت بأغنيات البشر والابتهاج ، وبلغت مظاهر تأييدهم « لزعيم السلام » حدا غريبا ، ولم يدخروا وسعا ـ خاصة من احتل منهم مواقع وسط العاصمة ـ من اظهار حماسهم البالغ لهذه الخطوة ، ودعمهم الكامل لصاحبها ، حتى دون انتظار لنتائجها الملموسة أو جدواها وعائدها .

كانوا بلا منازع ـ أعلى الاصوات التي انحازت ، تماما ، لموقف السلطة في سعيها لتصفية القضية برمتها والارتماء في احضان الامبريالية والصهيونية .. ولم يكن هذا بغريب ، لكنه كان امرا ذو دلالة . فالواقع أن من ذهب الى القدس ليس مجرد السادات الفرد ، وانما السادات رمز الطبقة والحاكم بأمرها ، وبمعنى آخر فأن خيانة السادات كانت خيانة التحالف الطبقي الحاكم ، بقيادة الشرائح الكومبرادورية الغالبة فيه ، ذلك التحالف الذي نشأ في رحم النظام السابق وتشرنق بأعماقه ، انتظارا لمناخ موات يمكن ان يظهر فيه على السطح ، بل وعمل ، بلا كلل ، على صنع هذا المناخ، الامر الذي تكلل بالنجاح في ١٥ مايو (آيار) ١٩٧١ .

والكتيب ـ الوثيقة ، الذي بين أيدينا ، يتناول بالشرح والتتبع الملامح البشعة لهذا التحالف الطبقي القائد في مصر الآن. فما اصطلح على تسميته ، تجاوزا ، بالطبقة الطفيلية ، وما أسمته الجماهير ، تبسيطا (وكذلك وسائل الاعلام ـ لفترة قبل ان تصدر اليها الاوامر بالصمت)بالقطط السمان، هو موضوع هذه الصفحات البالغة الاهمية والتي تلقي بعض الضوء على طبيعة ما يجري في مصر ، وما حدث فيها .

وقيمة هذه الوثيقة ليس فقط في النظره الموضوعية الهادفة المدعومة بالوقائع والاحصاءات والمستقاة من مصادرها الاساسية التي لا مجال للتشكيك فيها، وانما، أيضا ، لكونها كتبت بيد مناضل تقدمي مصري شارك ويشارك في النضال ضد التحالف الطبقي الخائن الحاكم ، وساهم بالفكر والعمل ، مساهمة جادة ، في صنع انتفاضة ١٨ ، ١٩ يناير المجيدة ، ومطلوب، منذ هذا الحين ، من أجهزة النظام الحاكم دون ان تتمكن من القاء القبض عليه . ومن هنا ندرك قيمة هذه الاوراق . فكاتبها لم يقصد منها كتابة فصول اكاديمية معقدة تزخر بالهوامش والمراجع ، ولا يستطيع الافادة منها سوى اقلية من المتخصصين ، وانما ابتغى ، بالاساس ، خدمة جماهير الشعب والمناضلين التقدميين ، بوضع ايديهم على بعض من مكونات المأساة الراهنة للوطن والجماهير ، كوسيلة مبدئية لصياغة الدواء الناجع والقضاء على سبب الوجيعة .

* * *

Digitized by Birzeit University Library

في الصفحات الاولى من « **لعبة القطط السمان في مصر** » يخلص المناضل **عبد القادر شهيب** الى أن عوامل ومكونات الطبقة الكومبرادورية وتوابعها في السلطة الراهنة، لم تولد من فراغ ، ولم تات فجأة ، وانما « وكما تنطق الارقام هو حصيلة تراكم سنوات مضت · ص ١٣ » ذلك ان السلطة التي سبقت مجيء السادات لم تكن حاسمة بالقدر الكافي في القضاء عليها من الجذور ، وتصفية كل امكانات نموها واستفحالها ، وانما حين ضربت الشرائح العليا من الرأسمالية ـ لضرورات ملحة ـ فتحت الباب على مصراعيه أمام الشرائح الادنى، وعلى اختلاف المنابع ، للعمل والنمو غير المحدود ، والاغرب من ذلك ، ايضا ، فان « اصحاب الشركات المؤممة او التي انضمت للقطاع العام ، قد اصبحوا هم المسؤولين عنها بعد انتقالها للملكية العامة ، مديرين ورؤساء مجالس ادارات وأعضاء في هذه المجالس ، ولقد قام هؤلاء بانشاء شركات خاصة بهم باسماء عائلاتهم ، واغدقوا على شركاتهم الجديدة هذه وبلا حساب من اموال القطاع العام » ، واضافة لهذين العاملين ، فلقد ظل مجالي المقاولات والتجارة الداخلية بعيدا ، بالكامل ، عن اي سيطرة من قبل الدولة واجهزتها ، بل وفوق ذلك ، فلقد استعانت بهما الدولة في حركتها ونشاطها، ولذلك فلم يكن غريبا ـ على سبيل المثال ـ « أن ينفذ القطاع الخاص حوالي ٨٠٪ من قيمة استثمارات خطة التنمية الاولى والاخيرة حتى الآن من قطاع المقاولات ، والتي تبلغ ٧٧١ مليون جنيه ، وتمثل حوالي نصف استثمارات خطة التنمية كلها · ص ٢٩ »

ومن الريف ايضا ، كانت الصورة لا تقل تعبيرا ودلالة · فقوانين الاصلاح الزراعي لم تضرب الا الشرائح العليا من كبار ملاك الارض الزراعيين ، وتركت ايضا أبواب النمو والتطور امام أغنياء الريف والملاك المتوسطين ، واضافة لهذا الوضع ، فلقد استحوذت هذه الشرائح ـ مستغلة في ذلك ثغرات كثيرة في القوانين ـ على كل الامتيازات التي كان مفترضا ان توجه لرفع مستوى الفلاح الفقير ، متدني القدرات · وعلى سبيل المثال ، فمن مجمل المساعدات المقدمة للفلاحين « استاثر كبار ومتوسطي الملاك الزراعيين (اكثر من ٥ أفدنه) بحوالي ٨٠٪ من سلفيات بنك التسليف الزراعي ، رغم أن اموال هذا البنك قد رصدت خصيصا لتوفير احتياجات (صغار) الفلاحين والنهوض بمستوى زراعاتهم وحمايتهم من المرابين· ص ٢٠ ·

وهكذا ، فلقد اعملت هذه القوارض المميتة بانيابها في بنية النظام السابق ، تنهش في ركائزه وتضعف من اساساته ، حتى وانتها اول فرص الوقوف على الاقدام، مع هزيمة السادس من يونيو (اول فصول المؤامرة) ، فالوقائع تؤكد انه « قد تزايد عدد القطط السمان وحجم ثرواتها بعد نكسة يونيو ، ص ١٣ » ، أما بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وبعد انتهاج النظام لسياسة « الانفتاح » على الغرب والاحتكارات الامبريالية ورأس المال الخاص في الخارج والداخل فان « القطط السمان ، التي كانت تخفي ثرائها من قبل ، صارت لا تخاف من الاعلان عنه الآن ، بعد تغير المناخ الذي تعيش فيه ، فاصبح اكثر تشجيعا لها ، ص ١٣ » ·

* * *

أجادت الطبقة الحاكمة فن السلب والنهب والتحايل بكل ضروبه ، وعرفت من اين تؤكل الكتف · لا قانون او شريعة ولا عرف او اخلاقيات تمنعها من تنفيذ مآربها ، شعارها الربح هو الاله، والمال هو الصاحب، والشراء الذي لا حدود له هو الشرف والكرامة ··· وهو الوطن والوطنية ·

وانقسم الوطن الى وطنين ·· وانشقت مصر الى مصريين·: « مصر العشة ـ

Digitized by Birzeit University Library

ومصر القصر » ٠ الاولى لها الفقر والمذلة والجوع والتشرد وعذابات الايام ٠ اما الثانية فلها النفوذ والسلطان والخضوع والانحناء ٠ وكيف لا يحدث هذا ، ما دام في مصر الـ ٤٠ مليون نفس : « دخل الثري الكبير الواحد في الشهر ، يساوي دخل عامل او موظف صغير خمسون عاما كاملة من العمل المتصل ٠٠ اي نصف قرن بالكامل٠ وهو عدد من السنوت ، يفوق طاقة اكثر الناس صحة في بلادنا ، ص ١٢ » !!

وتعددت مجالات نشاط القطط السمان ، ولم تترك ثقب ابره يمكن انتهابه دون ان تنبش بانيابها فيه ٠٠ خاصة **القطاع العام** الذي مثل موقعا خصيبا للنهب ، ومرتعا لعصابات (المافيه) التي احاطت به من كل جانب ، وتامر عليه من الداخل موظفوه الكبار الذين (ائتمنهم) النظام على عرق الشعب ودمه ، مع القطط السمينة من الخارج وتعاونوا على امتصاصه وتخريبه، وعن طريق اشكال لا حد لها من التحايل استطاعوا تحقيق غاياتهم ، ثم استحوذوا على قروض البنك العقاري في مجالات الاسكان وصناعة السينما ، ونالوا حصة الاسد في اعانات الحكومة (الدعم) ، المقدمة كي تعاون الغالبية العظمى من الشعب الكادح على الحياة، فمئات الملايين من الجنيهات عرفت طريقها الى جيوب القطط السمان ، بدلا من ان تذهب للشعب ـ وبتواطؤ السلطة وتحت ابصارها واسماعها ، حتى غشوا الجماهير فيما تبقى لها ، تسد به خواء المعدة ، وتسكت به غائلة الجوع : رغيف الخبز ، وليس هذا بجديد ، فمنذ اوائل السبعينات يضع تقرير اللجنة الاقتصادية لمجلس الشعب يده على الواقع المر : « ان الوزن الفعلي لرغيف العيش ، طبقا للعينات العشوائية من الاسواق ، ينقص ٢٥ غراما عن الوزن القانوني ، وهذا معناه تسرب مبلغ ٧٠ مليون جنيه من المبلغ الكلي المخصص لدعم الرغيف الى جيوب الوسطاء والطفيليين واصحاب المخابز ، اي ربع المبلغ المخصص للاعانة ، ص ٢٣ » !!! ، وبالطبع فلقد تضاعف حجم الغش ، وبالتالي حجم الملايين المسروقة، منذ عام التقرير ، وحتى الان ٠

وموضوع العملات هو الاخر ، قضية على جانب كبير من الخطورة والاهمية ، ويشكل مصدرا هاما من مصادر تراكم الثروات لدى القطط السمان ٠٠ والا دعى للاهتمام في هذا الموضوع كون ان هذا المجال يتيح امكانات لا حدود لها للاثراء الفوري ، والسبب الثاني يرجع الى انه المجال المحبب لنشاط الاسرة الحاكمة وانسابها والمحيطين بها ٠

يقول تقرير الرقابة الادارية « ان غالبية الصفقات التي تتم بين الوحدات الاقتصادية أو القطاع الحكومي وبين الموردين او المستوردين الاجانب ، تخصص فيها عمولات يتقاضاها المتعاقدون الذين تكلفهم الدولة بانجاز هذه الصفقات ، كما يتردد أن بعض المتفاوضين يلجأون الى رفع سعر الواردات موضوع التفاوض ، بغية زيادة حجم العمولات المستحقة لهم ٠ كما يلجأ البعض الى اتمام التعاقدات عن طريق الوسطاء أو وكلاء الموردين الذين يحصلون على عمولات عن تلك الصفقات ، الامر الذي يؤدي الى رفع سعر المواد ، ثم يتقاسم الوسيط العمولة مع المتفاوضين باسم الدولة » !!

ولقد تضاعفت الملايين المنهوبة بهذه الطريقة ، خاصة بعد أن انتهجت السلطة سبيل ما أسمته « تنويع مصادر السلاح » ، الامر الذي فتح الباب امام عمولات التسليح الهائلة ، ولعل اغراء العمولات كان احد الاسباب وراء قطع العلاقات الاقتصادية بالمعسكر الاشتراكي ـ وبلدان الاتفاقات ـ التي لا تتعامل الا مع القطاع العام مباشرة ـ دون وساطة ، ولا تمنح عمولة على هذه التعاقدات ، ٠ وهكذا ٠٠ « فباسم العمولات

Digitized by Birzeit University Library

استنزف المال العام ، حتى ان احد اعضاء مجلس الشعب قدر قيمة العمولات التي حصل عليها بضعة أفراد ، خلال السنوات الماضية، بحوالي مليارين من الجنيهات !! ، ص ٢٥ » ٠

اما قطاع المقاولات فالحديث عنه يطول ، وقد سبق أن ذكرنا أنه نجى من اية ضربة وجهتها السلطة للرأسمالية المصرية الكبيرة، وهذا كان احد مصادر قوته ، أما المصدر الثاني فقد كان خلو المجال أمامه من اية منافسة أجنبية تضعفه ، « فها هي شركات المقولات الخاصة قبل حركة التأميمات في عامي ٦٠ و ٦١ يكاد يكون كل المساهمين فيها ، وبالذات كبارهم ، من المصريين » ٠٠ ومثال على ذلك « **شركة النيل العامة للهندسة والصناعات والمقاولات العمومية** ، والتي كان اكبر المساهمين فيها من عائلة مصرية واحدة ، هي عائلة المهندس **عثمان أحمد عثمان** ، ص ٢٩ » ؛ وكلنا يعلم الحملة التي قادها **السادات** بنفسه ، عبر خطبه وأحاديثه الصحفية ، للتشهير بكل من حاول المساس بالاخطبوط العثماني ، تحت دعوى أن المقصود ليس **عثمان احمد عثمان** وانما نزاهته هو (اي **السادات**) شخصيا ٠

ولمحة أخيرة تعطي صورة عن حجم العائد المتراكم في هذه الناحية من نواحي نشاطات قطط مصر السمينة ٠ من المعروف أن مقاولي الباطن قد تمكنوا من تنفيذ قرابة ٨٠٪ من قيمة استثمارات خطة التنمية الاولى (٦٠ ـ ١٩٦٥) في قطاع المقاولات ، اما الان « فلقد ارتفعت النسبة كثيرا ، خاصة في مدن القناة ، حيث دأبت شركات القطاع العام على اسناد عملياتها الى كبار المقاولين الذين قاموا بدورهم بتوزيعها على مقاولين آخرين مقابل عمولة لا تقل عن ١٥٪ من تكاليف العملية المقدرة ٠٠٠ ويقدر عدد هؤلاء المقاولين الكبار بحوالي مائة مقاول فقط ، ذهبت نسبة ١٥٪ من تكاليف التعمير الى جيوبهم نظير قيامهم بتسليف عمليات شركات القطاع العام الى مقاولي القطاع الخاص ، ثم قاموا باعادة استثمار هذه الاموال في عمليات اخرى !!! ص ٣٦ » ٠

* * *

لم يعد هناك اي حاجز يقف بين **التجار** وتكديس الارباح على الاطلاق ـ سواء كان هذا التكديس يتم عن طريق مشروع أو عن غير هذا الطريق ٠ في عام ١٩٧٤ قدرت جملة عوائد التملك في قطاع التجارة ، كله ، بحوالي ١٨٦ مليون جنيه ، ذهب معظمها الى جيوب كبار التجار ، وتضاعفت القيمة في السنوات التالية ٠

ومن المعروف ان القطاع الخاص قد هيمن ، بشكل شبه مطلق ، على **التجارة الداخلية** ومن السلع الاستهلاكية بالذات ، التي تبلغ دورتها السنوية الفي مليون جنيه (٨٥ ٪ من تجارة السلع الغذائية ، ٩٢٪ من تجارة المنسوجات للقطاع الخاص) وتركزت هيمنة القطاع الخاص على هذا المجال في سيطرة عدد محدود من الافراد الكاملة ، قد يزيدون قلا يتعدون ، في أحسن الاحوال ، مئات معدودة ، وقد يقلون كما هو الوضع الغالب حتى لا يتجاوزون عدة أفراد محدودين ، يملكون التلاعب في السوق ، وفرض الاسعار التي يرونها كافية، بل وحتى اختلاق الازمات والاختناقات التي تهدد المجتمع كله وتمسك بخناق المواطنين ٠ لقد شكلوا بالفعل مركزا خطيرا من مراكز التحكم والسيطرة ظهر تأثيرها حينما اراد وزير التموين اخيرا تحديدها من الربح في تجارة السلع الاستهلاكية المستوردة بـ ٣٠٪ ثار عليه التجار ، وأجبروا الحكومة على سحب المشروع ٠ وفي هذا الحادث فقط أبلغ دلالة على المنعة والقوة ومراكز النفوذ التي تمثلها هذه الشرائح ٠

ويلعب التجار دورا خطيرا في اشاعة انماط معينة من الاستهلاك الترفي الخطير ، ويشجعون على افساد القطاع العام بتشجيع موظفيه على الارتشاء والاختلاس (عدد

Digitized by Birzeit University Library

الجرائم المسجلة يصل الى خمسة آلاف جريمة كل عام) ، مع ملاحظة أن هذا هو ما اكتشف من جرائم ، وما خفى كان اعظم. واتقان التجار للعبة المكسب المضمون ، دفع بهم للاستثمار في كل المجالات ـ حتى غير المتوقع منها ، ولا نستغرب اذا ما رأينا تجار الخرده يتحكمون في ثقافة الشعب وتوجيهه الفكري باستثمار ثرواتهم في انتاج افلام سينمائية وبرامج تليفزيونية وأغان ، هي بالقطع على درجة بالغة من الفجاجة والهبوط والانحطاط .

ويتقن الجميع ـ في هذا المضمار ـ فن التهرب من الضرائب. والتحايل عليها بكافة السبل ، وبتشجيع من أجهزة السلطة ، التي تتفنن من الاستقطاع والحجز من الملاليم التي يقبضها العاملون من الدولة نظير عرق وجهد شهر باكمله ، بينما تتغاضى وتتيح للمليونيرات التهرب من دفع اي مقابل لملايينهم المتراكمة بالنهب والسرقة والغش والاختلاس .

***

أما في الريف ، فالواقع أمر وأدهى ، حيث سلطة الدولة شبه متفككة وسيطرة الاغنياء والمالكين قوية وقادرة ، خاصة بعد قوانين (مجلس الشعب) الاخيرة التي اتاحت للملاك حق طرد المستأجرين ، ورفعت قيمة الايجار لتزيد أرباح الملاك وقننت مشاركتهم عبر نظام المزارعة من حاصل كد الفلاح على مدار العام .

يقول آخر احصاء للجهاز المركزي لتخطيط الاسعار (اجرى عام ١٩٧٣) ان ثلثي مساحة الاراضي الزراعية في مصر مملوكة لما لا يزيد عن ٧٪ من عدد كل الملاك في الريف. هؤلاء اتجهوا لاستغلال الارض والفلاح ابشع استغلال ، واحتكروا ملكية الالات الزراعية وآلات الري، واجروها للفلاحين بمقابل باهظ، وهم ايضا الذين وجهوا اراضيهم لانتاج الفواكه والخضر ذات العائد الكبير ، حيث « اتجه الخط البياني للمساحات المزروعة فاكهة وخضر ، الى الارتفاع في السنوات الاخيرة بشكل ملحوظ ، فلقد تضاعفت مساحة الحدائق والبساتين من ٩٤ الف فدان عام ١٩٥٢ الى ١٧١ ألف فدان عام ١٩٦٤ ، ثم ارتفعت اكثر في عام ١٩٧٤ الى ٢٨٧ الف فدان ، ص ٥٢ » ، هذا بينما « وصلت المساحة المزروعة خضروات ـ حتى عام ١٩٧٣ ـ الى ٨٠٠ الف فدان ، ص ٥٢ » ، زادت بالقطع كثيرا فيما بعد ، الامر الذي انعكس في القوة السياسية لهذه الشرائح الطبقية من الرأسمالية الزراعية، للحد الذي استطاعت فيه منع مشروع بفرض ضرائب محدوده على مزارع الخضر والفاكهه، قدم منذ عدة اشهر لمجلس الشعب، متهمين مقدميه بالشيوعية والالحاد وبتهديد « السلام الاجتماعي » أيضا (!!) .

* * *

عشرات الوقائع يزخر بها هذا الكتيب القيم « لعبة القطط السمان في مصر » ، تشرح وتوضح أبعاد النهب الطبقي الواقع في مصر ، ذلك النهب الذي كان من خلف انتفاضة الشعب في ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ وسيكون من خلف انتفاضته القادمة مضافا الى الخيانة القومية وقمع الديموقراطية ومناخ الديكتاتورية السائد الان . تلك الانتفاضة التي ستستهدف من ضمن اهدافها ، تصفية مواقع ونفوذ القطط السمان ... في مصر .

أحمد المصري

Digitized by Birzeit University Library

نزيه ابو عفش . وشاح من العشب لامهات القتلى .
بيروت، الاتحادالعام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٦

عندما يصير الوطن ، فجأة ، ضربا من ضروب الهم ، يتحول الشاعر ، تلقائيا ، ان صح لي القول ، الى عناصر عاكسة لاسباب ذلك « الهم » ·

عندئذ تتحول حافظة الشاعر الى نزعات غاضبة ، موغلة في نسيان اللحظة ، اللحظة التي تتكثف فيها الطفولة ـ السعادة ، الصبي ـ التوق ··· وتتكون عبر مسالك الحاضر المسيء ، نخبة من الاراء والافتراضات التي ترغم الشاعر على التلاؤم الكامل مع ما يكمن في الواقع من فظاعة وبؤس · وعبر هذا « التلاؤم » لا يمكن للمرء الا ان يسهب ـ او يوجز ـ في الحس والوصف والفرز والمحاولة في التأمل ·

في البيئة التي يحكمها الاستلاب المزمن، تتحول كل الاشياء الحبيبة الى اسباب حزن وتدمير ·

يتحول الماء لدى **ابو عفش** الى طلب غريب :

اسقني اي شيء عدا الماء
وكل النباتات تؤكل
وكل النبات تؤكل

هيء لنا علفا من نبات الديار الغريبة
انا في كل ضاحية سيد للبكاء ·

عندما تستحيل الاشجار في الوطن الى ستار من التمويه ، وتصبح الانهار وسيلة للعطش ، وتصير الاشياء قاطبة مدعاة للاغتراب ، لا يكون الوقت واسعا في اخفاء الحزن والتمرد · **ابو عفش** ، منذ القصيدة الاولى ، يعلن ، بشاعرية لا تخلو من الجزع، عن الخروج « الناقص » الى « مدن منسده » الى « لغات » فيها « يرشح الجنون من قميصي » ·

ذلك « الخروج » الذي يتآلف معه القارىء من شاعر ، بلا شك يمتلك سنينا طويلة من البرامج الفاشلة ، الحروب الفاشلة ، العلاقات الفاشلة حيث يصير :

« ··· الرصاص الذي قتل الاخرين كاد ان يقتلك »

في قصيدة « الى خليل صاحبي الذي لم يمت في الحرب ! » يصبح محور الشهادة ، ليس في ذاتها ، ليس في كونها صيغة خاطئة ادت الى التنكر من قبل **فزيه ابو عفش** · تصبح الشهادة ذات مغزى استلابي قديم ، يبتدىء من « خليل » صديق النضال السري ، صديق الطبقات المضادة الى « جثة » اسمها خليل الذي مات في حرب لا يمتلك المستقبل الا ان يعرّفها ، يتيقن بعدم صدقها ، يشرح مساحات زيفها الشاسعة · وبذلك ، وفق ما تمليهنتائج الحروب ، تلك الحروب التي تضع في قوائمها حدود الاهداف المفترضة لصالح البرجوازية، يصير الشهداء من اصدقائنا ، اصدقاء الشاعر اصدقاء الطبقات الطبقات التي لا تمتلك مصلحة في الحروب القائمة ، حيث يصير الشهداء قلة نجوا من رصاص القمع والجوع فتقتلهم الحروب بكل ما تحمل من خيانات ونوازع غير عادلة وغير حقيقية :

Digitized by Birzeit University Library

« غير ان الرصاص الذي قتل الاخرين / كاد ان يقتلك » ·

في القصيدة التي تحمل اسم المجموعة « وشاح من العشب لامهات القتلى » يتكشف لدينا بوضوح ، نزوح **نزيه ابو عفش** ـ في هذه القصيدة بالذات ـ نحو استخدام الاداة الملحمية ، وهو بهذا « النزوح » لم يكن مخيرا ، بل فرض « الجانب » الملحمي في القصيدة نظرا لفداحة وحجم الاحداث، فلكي يرتقي الشعر مع هول الهزائم والانتصارات لا بد له من التقاط اللحظات الملحمية التي تكشف وتبرز سمة تلك الهزائم والانتصارات ، وتظهرها على نحو راق ، سواء من باب الفعل الداخلي ، او الخارجي :

حشد من الفتيات الفيورات ·· يبكين
ترتفع الاذرع العاشقات وترتفع القبعات
يتوافد حشد من النسوة الباكيات ·
على رأسهن البلاد
تتجاسر فيها الشجون على الدمع

وفق هذه الفجائعية ينتحب نزيه مع كل ما يحمله من الفهم ـ الجراح ، لطبيعة الهزيمة ··· الجمهرة التي جاءت الى حضرة الشاعر ، مركب الرثاء الذي مرق امامه كان على « رأسهن البلاد » ·

حسنا ، في الهزائم يجيء الوطن على رأس النادبين كونه المتضرر الاول والاخير ، كونه يحمل دموع « الباكيات » ، ويقتصد على الناس وجع الذكرى :

ثم اني حزين ·· حزين الى اخر السنوات
(هو الله من يصنع المعجزات ··)
يا ايها الله :
اي الحجارة رأس حبيبي
واي الحشائش غرته !!؟

ولعل هذه الكلمات والمعاني افضل شاهد على ما قدمناه من رأي حول الجانب الملحمي في هذه القصيدة · ان الموت هنا لا يأخذ صيغة الفناء عند **نزيه** ، بل يأخذ صيغة التساؤل المدهش ، الموجع ، يخلط الارض باللحظة الراهنة فيعكسها صورا للحبيب ، الشهيد المقتول دون سبب معقول · « وعلى رقعة من بلادي » يعود **نزيه** من رحلة الحزن والتعب لكي يتوحد بكل ما يحمله الوطن ، حيث يتحول « الحزن » الى « بشير » :

وعلى رقعة من بلادي تمددت
اطلقت حزني وارسلته في البلاد بشيرا
حملت : انا الان كل البلاد ـ بساتينها ، اهلها ··
·· الخبز والملح فيها

في مطافه الاخير ، يومض لنا **نزيه ابو عفش** · يخاطب « الارامل والامهات الحزينات » بعد ان اجهدته البلاد في رحلته « قصيدته » ، اجهدته بمترفيها ومخبريها وخونتها وفقرها ، بطشها شهدائها ، انهارها · بعد ذلك يثب الى الساعة « المعقولة » ، يثب الى الاسباب التي خلعت نتائجها المفجعة على الفقراء :

ايتها النسوة الباكيات الى الله / ايتها الكالحات الارامل ·· / والامهات الحزينات/ ماذا تغير في الوطن الحرب / لولا يغير من جرحه الفقراء ·

★★★

مجموعة القصائد التي بين ايدينا ، يتمتع هذا الشاعر فيها بحساسية كثيفة ومفرطة · فالحق ، انه استطاع ان يمسك الى جانب المشاعر والاحداث والصور العظيمة ، استطاع ان يمسك ـ ببراعة ـ الاحاسيس الصغيرة ، العابرة ، التي تتحول بمجرد ادخالها دائرة الفعل الى فعل شاعري لا يمكن انكار روعته واهميته · فالاغتراب الذي يطحن الشاعر ويشيع في روحه الاحساس بالانتلاف ، حيث يتحول بدوره الى نزعة « شكوكية » واضحة ، عند ذاك يقود الشاعر نفسه الى خندق الضد ، ضد كل ما يجري من فواجع :

انني اتوجس منكمشا : / هل تسوقون صوبي تظاهرة ام تسوقون نارا ؟··
تعدون مقبرة ام شعارا جديدا / تنامون في مقتلي · ام تكيدون لي ؟!!

Digitized by Birzeit University Library

في العزلة ، في ذروتها ، يتحول الفعل الخارجي الى أشرطة بوهيميـــة ، لا يمكن حدس ما يدور بها · وسط هذه العزلة يتكون الشك لدى الشاعر ، ربما تكون العزلـــة في زنزانة ، غرفـــة باشة ، شارع يحتفـــي بمجهول ، سوق وبهرجة ، اضواء ، مـــارة ··· ويبقى الشـــاعر ـ في كل حـــال ـ متخندقا ازاء هذه المظاهر الساذجة والموغلة في الاغتراب ، يبقى الشاعر متسلحا بالشك والعزلة ، الشك في ان تكون هذه الجمهرة تظاهرة مدبرة لذبحه او حرقه او ··· يظل احتمال الصدام حاضرا ما دام الجهـــل والزيف والخنوع متجسما في كل الرؤوس والزوايا ·

« انا الموقع على بياض ، سليمان خليل ابو عفش ، من رعايا جميـــع البلـــدان المحكومـــة بالخساسة والكرابيج والقش !!
اعلن انسحابي
الطوعي
من صفوف الحزب الشيوعي الهدام ·
وجميع الاحزاب والتنظيمات السياسيـــه الاخرى » ·

وهكذا يبوح لنا **نزيه ابو عفش** بجزء من مكامن انفجاعه ، بسر من اسرار هـــذا الانتلاف العميق حيث يقترن الفكر بالمعتقلات والبراءات والبطش ، يقترن الحب بالحقـــد والكراهية ، يقترن الطيب بالاوغـــاد ··· وتوضع على راس الاب فوهة مسدس لكي يوقـــع « على بياض » ويتخلى عـــن كـــونه « شيوعي » واما ···

ان **نزيه ابو عفش** من ابرز الشعراء الذين كرسوا قصائدهم للرصد والتصدي لصنوف القمـــع والقتل ، وهو بذلك وبصراحـــة ـ خالية من التقريرية ـ يكشف لنا عن بشاعة الانظمة البرجوازية ، وطرق سلوكها ازاء المناضلين فهو يصرخ :

علمت من يجيء
انا الان فيخندق الوفيات ابني مسكنا لي

★★★

في قصيدة «طلب لجوء في رمال الجزيرة» يكشف لنا الشاعر **نزيه ابو عفش** عن غنائية كئيبة ، ووجدانية تنبض بالعتاب ، يبدؤها بالتساؤل الحر : « ماذا فعلت بنا دمشق » ·· يعقبها بالتساؤلات الكثيرة التي ذهبت اجاباتها في خضم لا يسبر الشيطان غوره : « وبأي حال يقدر الانسان ان يشتد في وجه المجاعـــة ؟ » لكن « اهلك علموك الصمت يا بلدي » !!

ثمة ملاحظـــة ، يتوجب ان نسجلها عبر قراءتنا لهذه المجموعة ، وهذا ليس من باب التصدي ، بل من باب التذكير ! ان الشاعر في مجمل قصائده في هذه المجموعة ، يصر على استخدام لغة متجانسة في مواضيـــع مختلفة ومتناقضة احيانا ، وهذا راجع الى حالـــة التشتت التي تصيب الموضـــوع ـ الاحساس ـ الصورة ، فانا استطيع ان اقرأ مقطع من قصيدة وأجانسه مع قصيـــدة اخرى ، مختلفة في الموضوعة التي يطرقها الشاعر · المرجح ان نزيه يعاني في لحظة الكتابة من تيارات جارفة ، لكنها ذات اطار واحد ، حاله واحدة ، لغة واحدة ، تلتقي ثم تشط الى حدث سحيق ، غريب احيانا ، فيفرض على الشاعر استخدامات لغويـــة متشابهة ·

في هـــذا العرض الذي تناولت فيـــه « **وشاح من العشب لامهـــات القتلى** » لا يسعني الا ان اذكر الى نقطتين : الاولى اني تنـــاولت ـ ما اعتقدتـــه ـ بارزا في المجموعة والثانيـــة والتي لا تمت للاولى بصلة ! ان **نزيـــه ابو عفش** ـ لاسبـــاب مجهولة ! ـ تعاني كتاباته من اهمـــال شديد من لدن نقادنا رغم ان الرجل يعتبر واحدا من اهم الشعراء الذين ظهروا بعـــد هزيمة حزيران ·

ادم حاتم

Digitized by Birzeit University Library

يوسف ق. خـــوري. الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ ــ ١٩٤٨ . بـيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية والاتحاد العـام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ١٩٧٦ .

الصحافة خير مرآة للحركة الفكرية والحركـة الوطنية ، في آن · هي الشواهد على القبور ، ايضا · اذ بالاستعانة بها يمكن للباحث والمؤرخ ان يعرف المواقف الحقيقية لكل حزب ، او تيار ، او زعيم سياسي ، على حدة ، وفي اوانه · فهؤلاء محرومون ــ عندئذ ــ من ادخال التعديلات ، التي تتراءى لهم ، على مواقفهم ، بما يتمشى والتطورات اللاحقة·

ومن هنا جاءت اهمية دراسة الصحافة ، في اي قطر من الاقطار · وان زاد عليها في فلسطين العنصر الحضاري · فالصحافة العربية في فلسطين جاءت شاهدا ــ ضمن عدة شواهد ــ على ان فلسطين لم تكن « ارضا بلا شعب » ، كما زعم الصهيونيون ، اوائل هذا القرن ، بل قطنها شعب عـــريق ، له طبقاته الاجتماعية ، واحزابـــه السياسية ، ومنظماته النقابية ، ومؤسساته الاقتصادية ، والاجتماعية ، وصحافته ·

هذا على الرغم من ان الكتاب الـذي بين ايدينا بدا وكأنـــه محايد ، حيث اكتفى بعرض الرموز المستعملة في رخص النشرات الدورية بعد عام ١٩٣٣ ، والنشرات الدورية التي صدرت في فلسطين ، وقوانين المطبوعات خـــلال الحكمين العثماني والبريطاني ، والنشرات الدورية العربية مجهولة الملكية ، واخرى بلغـــات اجنبية اصحابها عرب ، وثالثة بالعربية يمتلكها اجانب · كما رتب المؤلف الدوريات العربية في فلسطين ، ترتيبا هجائيا ، واحصى الدوريات الفلسطينية ما بين عامي ١٩٣٣ ــ ١٩٤٨ ، بحسب لغـــات صدورها · واشار الى دوريات عربية صدرت في الدول العربية ، حظـــر توزيعها في فلسطين · وختم المؤلف كتابه القيم بفهرس للاعـــلام والمؤسسات ، واخـــر للدوريات باللغة لاجنبية ·

وعلى الرغم من هذا « الحياد » ، الا ان الكتاب جاء وثيقة ، لا تحتمل الشك ، على عراقة الشعب العربي في فلسطين ·

Digitized by Birzeit University Library

ويبدو ان المؤلف تجنب تحويل كتابه الى بحث اكاديمي ، او الى دراسة سياسية ، مكتفيا بالجانب الاحصائي · مما جعل كتابه مجرد « سجل وثائقي ، دقيق ، وتفصيلي ، وشامل » لتاريخ الصحافة العربية في فلسطين ، على ما جا في تقديم مؤسسة الدراسات الفلسطينية للكتاب ·

وهنا تبرز اهمية اخرى للكتاب ، يشير اليهـا المؤلف نفسه ، اذ عتبر الكتاب ضمن الأعمال البيبلوغرافية ، التي « هي خير معين لمساعدة الباحثيـن في حقول اختصاصهم ، بما توفره لهم من مصادر أولية لا غنى عنها لاية دراسة علمية » · والمؤلف يقرر ـ بحق ـ انه في عالم اليوم « أصبحت الادلـــة والكشافات المتنوعـــة سمـــة من سمات البحوث المتخصصة » ·

صحيح أن الفائدة ستكون اشمل وأعم فيما لو ان المؤلف اضاف للكتاب فصلا القى فيه الاضواء على ارتباط تطور الصحافة الحميم في فلسطين بتطـــور الحركتين الفكرية والسياسية فيها ، لكنه لم يفعل ·

وحتى الاحصاءات الوازدة في الكتاب جاءت خالية مـن احصاء لاعمال المصادرة وسحب الترخيص ، التي طالما تعرضت لها الصحف العربية في فلسطين في ظل الانتداب البريطاني ، والتي كانت تتضاعف معدلاتها في فترات النهوض الثوري ·

ومن جهة اخرى ، فان الكتاب يؤرخ للصحافة العربية في فلسطين منذ العام ١٨٧٦ · وهو العام الذي أصدرت يه السلطة العثمانية صحيفتيها الرسميتين : « **القدس الشريف** » و « **الغزال** » · وكانت الاولى باللغتين العربية والتركية ، في حين اقتصرت الثانية على العربية فقط ، وصدرتا كلتاهما بهدف نشر (الغرامانات) والانظمة والاوامر الصادرة عن السلطات العثمانية ·

ومن هنا لا يمكن اعتبار أي من « **القدس الشريف** » و « **الغزال** » ضمن « الصحافة العربية في فلسطين » · بل الادق هو البدء بالتأريخ لهذه الصحافة منذ العام ١٩٠٦ ، حين صدرت صحيفة « **باكورة جبل صهيون** » الشهرية · اذ تضمنت أشكالا صحفية متنوعة ، وأصدرتها عناصر من أهالي البلاد · **أما النشرات الحكومية ، التي تقتصر عـــلى نشر** الاوامر والقرارات ، فهي ليست من الصحافة في شيء ، لا من حيث جهـة الاصدار ، ولا من حيث موضوعات النشر ·

Digitized by Birzeit University Library

وما دام لمؤلف قد بدأ في التاريخ للصحافة العربية في فلسطين منذ العام ١٨٧٦ ، فقد كان عليه ان يثبت قوانين المطبوعات التي صدرت في العهد التركي ، واعني بها « **القانون العثماني لطبع الكتب** » ، الصادر عام ١٩٠٤ ، و « **القانون العثماني لطبع الصحف** » ، و « **قانون المطبوعات العثماني** » اللذان صدرا عام ١٩١٠ .

وأيا كان الامر ، فهذا الكتاب يعتبر رائدا في مجاله ، خاصة مع افتقادنا للمراجع الاصيلة في هذا الموضوع ، او ـ على وجه الدقة ـ مع تبعثر مراجع هذا الموضوع في ارجاء الارض ، بعضها في لندن وبعضها الاخر في الجامعة العبرية بالقدس ، وما يقي في مراكز الابحاث الفلسطينية والعربية المختلفة . وهذا يضيف قيمة اخرى للجهد التجميعي الذي بذله المؤلف في هذا الكتاب .

على أن الامر لا زال يتطلب المزيد من الجهود ، يبذلها باحثون اخرون ، متكمنون من المنهج العلمي في البحث اولا ، ومن التاريخ السياسي الفلسطيني المعاصر ثانيا ، ومن الحركة الصحافية في فلسطين ثالثا ، واخيرا .

عبد القادر ياسين

ياسين رفاعية ، **العصافير** . بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧ .

« **العصافير** » مجموعة قصصية ، تحتوي على ثلاث عشرة قصة ، تنتمي بعض منها الى ما نسميه الاقصوصة مثل « **رجل يحلم** » ، التي تأتي الاولى في ترتيبها وليس في تقييمها . هذا بالاضافة الى مدخل لا يجوز تجاهله . وقبل ان ابدأ بعرض المجموعة القصصية او التعرض لها ، اود ان اشير الى ملاحظتين :

الاولى : في مدخل المجموعة ، يجيب الكاتب على سؤال طرحته عليه مجلة « **الموقف الادبي** » ، التي يصدرها **اتحاد الكتاب العرب** في دمشق ، باعادة السؤال على نفسه : لماذا اكتب ؟ ويقدم جوابا شاعريا نابضا بالمعاناة ، متحسسا لآلامه وطموحاته ، من خلال

Digitized by Birzeit University Library

آمال وآلام وطموحات الجماهير ، التي يتفاعل معها ، ويتعلم منها مطبقا المقولة الثورية المعروفة : « الجماهير افضل معلم » · ونشعر ، ونحن نتابع الاجابة ، ان الكاتب لا يحاول ان يخفي شيئا من وقائع حياته الشخصية ، وانما بعكس ذلك تماما ، اذ يبدو شديد الاقتناع بحوافزه ورؤاه الطبقية السليمة ، عميق الثقة بمستقبل الطبقة الفقيرة ، كثير التحمس لقضاياها · كل ذلك بأسلوب عذب ، شيق وممتع · لكنه ، في نفس الوقت ، لا يدغدغ العواطف بمقدار ما يهزها ، ويهز معها ايضا ، مفاهيم تستدعي ان لم نقل التغيير فليس اقل من اعادة النظر بصوابها : « ··· وكثيرا ما كنت ارى في الخارجين على القانون بنظر السلطات : الموجهين الاخلاقيين الحقيقيين » · من هنا ، فان المدخل يغني مجموعة « **العصافير** » القصصية ، ويزيد من اهميتها ، بشكل ربما لم يخطر على بال كاتبها نفسه ·

الملاحظة الثانية : على صفحة الغلاف الاخيرة ـ الوجه الاخر للغلاف ـ ان صح التعبير ، تتزاحم عدة اسماء ادبية بارزة : **جبرا ابراهيم جبرا ، عصام محفوظ ، محيي الدين صبحي ، د· امين العيوطي ، وفاديا الشرقاوي** · والاسماء الآنفة الذكر كلها ، تبدي اعجابا بالكاتب وبمجموعته القصصية « **العصافير** » · فعندما يقول **جبرا ابراهيم جبرا** ، الاديب والناقد المشهور : « (**العصافير**) من اجمل وابدع ما قرأت منذ زمان · اصيلة ، عميقة الانسانية ، فاجعة ، مفرحة · تترك اثرا معقدا وطيبا في النفس ، كأحسن الشعر » عندما يقول **جبرا ابراهيم جبرا** هذا الكلام الرقيق عن المجموعة ، ألا يكون في طرقها مغامرة مجهولة العواقب ؟

اول القصص بعنوان : **رجل يحلم** ·

اقصوصة ؟ ربما ، لكنها تحوي وقع اللحظة المضغوطة من تلك اللحظات التي تغير مجرى الحياة برمتها · بانسياب موسيقي ساحر ، تتتابع سطور الاقصوصة القليلة ـ صفحة وبعض الصفحة من الحجم المتوسط ـ ، حتى اذا ما وصلنا الى نهايتها ، صدمتنا ريح الدهشة العاتية ، مع ان الامر طبيعي : رجل متعب ، يستظل شجرة وارفة ، ويحلم مثل اي فقير ، احلاما ساذجة طيبة ، يعمدها بعرق جبينه واستمراره في العطاء ، والامل يداعب مخيلته · ثم فجأة ، ودون مقدمات ، اي ببساطة كما يحدث في الواقع ، تنحرف شاحنة ضخمة عن الطريق ، تهدم الجدار « ··· فتهاوت حجارته الثقيلة لتسحق الجسد النائم سحقا ، لكن احلام الرجل استمرت في التدفق » · أكانت النهاية قاسية ؟ اجل ؟ ولكن هذه النهاية ومثيلاتها ، تحدث كثيرا ، وللفقراء على وجه الخصوص · يموتون في الظل ··· صدفة ·· يموتون سحقا ، لكن ، الا تطالعنا الصحف بصور الفقراء الابطال، الذين يستشهدون فوق ارضهم المغتصبة ؟ اجل ، وبفعل القرار الصلب والتحدي ، وليس بفعل الصدفة · وحين تمتزج الاحلام بارادة التغيير ، ويصبح للحياة معنى اخر ، يصبح واضحا تماما قصد الكاتب « ··· لكن احلام الرجل استمرت في التدفق » · وستستمر الى ان تسود العدالة وتعم المساواة ·

« **الحديقة** » :

« **الحديقة** » متميزة · تقرأ القصة ، فكأنما انت تقرأ قصيدة ، سلسة ، ناعمة

Digitized by Birzeit University Library

شفافة ، ولا تستطيع الا ان تتفاعل معها ، وتنساق مع جملها القصيرة المضغوطة بعفوية بعيـــدة عن التكلف · امـا الكلمـــات فمنتقـــاة بعناية من قاموس البـراءة السحري ، مشحونة بنبض العشق ، وجو القصة بالاجمال ، عابق بعبير رياض الشعر ، وهي الى جانب ذلك ، بسيطة بساطة الطفولة الخالية من التعقيد ، واذا حاولنا ايجازها نقول : رجل يأخذ طفله الى احدى الحدائق ، وامرأة تأخذ طفلتها الى نفس الحديقة · يترك الرجـل طفله بين الازهار ، وينشغل بقراءة جريدة · وتترك المرأة طفلتها بين الازهار ، وتنشغل بحياكة الصوف ، يلتقي الطفل الجميل بالطفلة الجميلة ، فيلعبان معا ، ويتحادثان احاديث طفولية عذبة ، فيتآلفان ويتسايران ويتواعدان على اللقاء في اليوم التالي · يعدها الطفل بأن يحضر دراجته ، وتعده الطفلة بأن تحضر كرتها ، ويستمران في اللعب حول بركـة صغيرة يسبح فيها البط ، ومن جديد تركض بين الازهار ، فيركض خلفها ، ثم يلتقيـــان من جديد وهكذا الى ان انتهى الرجل من قراءة الجريدة ، وملت المرأة من حياكة الصوف ، ونتـابع القصة :

« اقترب الرجل من الطفلين ،

« اقتربت المرأة من الطفلين ،

« وما ان امسك كل منهما بيد طفله ، حتى تلاقت نظراتهما بصورة عفوية ·

« ارتبكت المرأة وتدفق الدم الى وجهها ،

« ارتبك الرجل وتدفق الدم الى وجهه ،

« قبل زمن كانا متحابين وافترقا » ·

« خطا الرجل مع طفله في اتجاه ، كذلك خطت المرأة مع طفلتها في اتجاه اخر ، وخافت المرأة ان تتلفت ، الا ان قلبها كان يخفق بشدة ، وخاف الرجل ان ينظر الى الخلف لكنه كان يرتجف من قمة رأسه الى اخمص قدميه ·

« الطفلان وحدهما كانا يتلفتان الى الخلف ، يلوح كل منهما للآخر بيده ، حتى غابا مع والديهما في الزحام » ·

هذه هي قصة الحديقة ، التي لا تخطر كتابتها الا على بال شاعر ، وحبذا لو ان ياسين رفاعية يسخر هذا الاسلوب الدافيء اللذيذ ، وهذه الشاعرية الحالمة ، في قصص قصيرة للاطفـــال ·

اما قصة « زهرة البنفسج » ، فهي قصة فتاة عانس ، تحب الربيع والزهور ، وتنتظر فارسا ياتي ويحملها على ظهر حصان اشهب ، واسلوب هذه القصة ايضا ، شعري رقيق جميل السبك ، غير ان نهاية القصة الجميلة ، تأتي ، رغم شفافية التعبير ، فجة الى حد ما وغير مقنعة ، ولم استطع ان اجد سببا معقولا يفرض مثل هذه النهاية المفجعة ، لفتاة تحلم بفارس او تتخيله ، وقد قدمت اليه باقة من زهر البنفسج ، فنزع زهرة من ازهارها ،

Digitized by Birzeit University Library

وشكها في شعرها · « في اليوم التالي ، اكتشف الناس جثة مني طافية على سطح النهر، لكنهم استغربوا وجود زهرة من البنفسج مشكوكة في طرف شعرهـا ، لم يروا مثلها في حياتهم ، وكان الماء يداعب اوراقها بحنان » ·

ليس من الضرورة ، بالطبع ، ان كون الادب واقعيا ، او قابلا للحدوث على ارض الواقع ، لكن قصة من هذا النوع ، وبمثل هذا الجمال التعبيري ، لا تحتمل التاويـــلات الرمزية ـ اذا كان المقصود شيئا من ذلك ـ ولا تتناسب مع تلك النهاية التشاؤمية التي ليس لها ما يبررها ، والتي تبدو وكأنها سقطت سهوا في غير موضعها ·

ولعل اجمل واعمق ما في المجموعة القصصية ، ما اسماه الكاتب : **«رباعية الجوع»**، والتي تتكون من اربعة قصص عن نفس الموضوع : الجوع ، وبعناوين **مختلفة** :

١ ـ « الله والسمكة » :

تتحدث هذه القصة عن ثلاثة اطفال هن « الكرنتينا » ـ ضاحية من ضواحي بيروت ، استشهد من اهلها من استشهد وتهجر الباقون ـ لا يعرفون الطائفية البغيضة ، ليس لانهم اطفال ، ولكن لانهم فقراء ـ اعتقد ان هذا ما اراد ان يشير اليهالكاتب ، حين جعل اسماء الاصدقاء الثلاثة : احمد ، انطوان ، ووليد ·

تنادى الاطفال الثلاثة من اكواخهم المتجاورة ، وتوجهوا الى البحر ، حيث لعبـوا قليلا ، ثم تمددوا على الشاطىء يتحدثون ، وما لبثوا ان بدأوا بالامنيات التي توقفت عند طلب واحد طلبوه من الله : « يا رب ارسل لنا سمكة » هذا هو الطلب الذي لم يجـــدوا من يتوجهون به اليه غير الله ، ذلك انهم واهلهم كذلك لم يذوقوا طعم السمك منذ وقت طويل ـ علما ان الكرنتينا تقع على شاطىء البحر تقريبا ـ وتشاء الصـــدف ، او ، يسمع الله دعاءهم كما يقولون ، فتحمل اليهم موجة قوية سمكة ضخمة ترميها قريبهـم ، فرحوا كثيرا لان الله استجاب لدعائهم ، ولانهم سوف يذوقون طعمالسمك بعد طول انقطاع كانت السمكة ضخمة جدا فبدأوا يفكرون بطريقة تمكنهم من نقلها الى بيوتهم ، وبينما هم على تلك الحال فوجئوا برجلين ضخمي الجثة ، يقفان أمامهم ويدعيان ان السمكة لهما ·

عبثا حاول الاولاد اقناع الرجلين ، بأن السمكة تخصهم وان الله أرسلها اليهـم ، اذ قابلهم الرجلان بالسخرية ، وطلبا منهم الابتعاد ، ثم سحب احد الرجلين سكينا ذات نصل حاد ، وهدد الاولاد بالذبح ان لم يبتعدوا · وهكذا حمل الرجلان السمكة الكبيرة ومضيا . فأجهش الاولاد بالبكاء ·

اتفق الاولاد فيما بينهم ، على ان يخفوا الامر الذي حدث ، مخافة ان يسخر احـد منهم ، وقرروا العودة الى بيوتهم ، على امل العودة في الاسبوع التالي ، وفي جيب كل منهم سكين ، ثم يطلبون سمكة من الله وهم على استعداد للدفاع عنها

في هذه القصة الموغلة في العمق والغرابة ، يكتشف الاطفـــال وفي سن مبكرة ان

Digitized by Birzeit University Library

الحياة ليست سهلة ، وان على الانسان ان يحمي حقه بالقوة ، فالحق بمعزل عن القوة لا يورث غير الدموع · ثم ان القصة تشير الى ان الصراع ليس طائفيا كما يحـــاول الكثيرون ان يوحوا ، لان الصراع في جوهره هو صراع طبقي ، مع اشارة واضحة الى مجتمع الاستغلال والقهر ، حيث يسلب القوي حق الضعيف · ولعل مركز الثقل في القصة يعود الى النظرة المؤمنة بحتمية الصراع وضرورته الملحة ·

٢ ـ « **ابو ذر الغفاري** » :

ابو ذر الغفاري في هذه القصة ، مجنون ويحمل سيفا خشبيا ، لكنه يضحي بحياته فيقتل من اجل انقاذ طفل سرق بضعة ارغفة · قصـــة لطيفـة رغم ان احدا من الكتاب والشعراء لم يترك قصة « **ابو ذر الغفاري** » الا واغترف منها ، وهذا لا يعيب الادبـــاء والشعراء في شيء ، كما لا يعيب الامر الغفاري ، لكنها اصبحت بالنسبة للقـــــارىء قصة ممجوجة زال بريقها ·

٣ ـ « **المـــارد** » :

قصة طفل فقير ، يترك والدته تعاني الموت بسبب الجوع ، ووالده الذي لم يسمع بقصة الغفاري بعد ، يتكوم في زاوية من زوايا البيت لا يلوي على شيء ، ويذهب الطفل بحثا عن شيء يؤكل ، فيجد فانوسا سحريا ، يفركه فيأتيه المارد عارضا خدماته ، فيطلب الطفل رغيفا من الخبز ، الا ان المارد لا يجيب طلبه ، بل يرجع الى الفانوس فيحتـــرق ويتحول الى رمـــاد ·

اعتقد انه كان من الافضل ان تنتهي القصة عند هذا الحد ، فالقارىء يستطيع ان يفهم الفكرة دونما حاجة لمزيد من الشرح ، بل لعله يستسيغها اكثر حين تنتهي بالشكـل السالف الذكر · غير ان الكاتب ولسبب غير معروف ، اســاء الى القصـــة بتماديه في الشرح ، مما افقدها الكثير من وقعها المؤثر ، خاصة وهو يضيف : « نهض خالد ، واتجه صوب كوخ ابويه بخطوات حزينـــة · كان سيقص عليهما : ان مارد علاء الدين اصبح هذه الايام ، عاجزا عن احضار ولو رغيف خبز واحد الخ ··· »

٤ ـ « **الكلب** » :

هذه القصة اعمق من سابقتيهـــا : « **ابو ذر الغفاري** » و « **المـارد** » وان كانت لا تصل الى مستوى الجودة المتوفرة في القصة الاولى من « الرباعية » : « **الله والسمكة** » وهي على العموم من تلك القصص التي نتعاطف معها ، وتترك فينا اثرا موجعا ، وان كنا لا نأخذها على محمل الجد ، ليس لاستحالة حدوثها ، وانما لبشاعة الحقيقة فيها ، وان كنت اؤمن شخصيا ان الكلاب ليست سيئة الى تلك الدرجة التي يصورها الكاتب !

Digitized by Birzeit University Library

و « **الكلب** » تحكي قصة طفل فقير يمر امام احد القصور ، فيراه طفل في مثل سنه من العائلة الغنية ـ سكان القصر ـ ويدعوه الى الدخول خلسة ، حتى لا يراه الاب الذي لا يحب الاطفال القذرين ، ويدخل ، ويتفرج من ضمن ما يتفرج ، على الكلاب وهم ياكلون · و ··· « قال علي : ما هذا ؟· قال زياد : لحم غنم ·

« وفجأة ، احس علي ان شيئا ما قد حدث ، وانه اصبح ذا قوائم اربع ، وود ان يتكلم ، لكن صوته تحول الى ما يشبه العواء ـ النباح ـ · كان جائعا ، فهجم على الوعاء ، محاولا ان يجد لنفسه مكانا الى جانب بقية الكلاب · لكن الكلاب التي احست ان كلبا غريبا قد اندس بينها ، هجمت عليه هجمة واحدة ، فهرب الكلب الغريب ، وقفز خارج الغرفة ، لكن الكلاب الاخرى ظلت تركض خلفه ·· الخ ··· »

ونأتي الى « العصافير » التي حملت المجموعة اسمها ، وهي ليست قصة قصيرة لكنها مجموعة من سبع اقاصيص او تأملات او قصائد او اي شيء من هذا القبيل ، وكل منها تحوي الكثير من المعاني مع خيال خصب واسع ، وهمسة نقد تطال انسانية الانسان، والكاتب في « العصافير » يصور غربة الانسان عن نفسه ، وبحثه عن قدره بمعاناة صادقة متألمة · كل ذلك بأسلوب الاديب ، وخيال الشاعر ، ورهافة العاشق · « العصافير » اغنيات للحب وللحياة ، في بعضها فرح ، في بعضها ترقب ، وفي البعض الاخر ، جمال الطبيعة وقساوة الغربة وعذاب الشاعر · من « العصافير » اقتطفت خاطرة كاملة « فالعصافير » لا تلخص ·

« تداعت العصافير في الغابة الى عرس عصفورين · كان فرح الغابة نشيدا · وفجأة دوى طلق ناري ، فهبت العصافير هاربة الى السماء ، الا العصفورة التي ظلت متشبثة بغصنها ، وهي تحدق الى ريش العصفور المتناثر ، وببقعة دم صغيرة ، بدت ندية مرتجفة للوهلة الاولى ، ثم استقرت بين ثنايا الخشب » ·

وفي النهاية ، ودون انتقاص من قيمة اي من القصص الواردة في المجموعة ، والتي لم اتطرق اليها ، اود ان اشير الى ان المجموعة بمجملها ، اقرب ما تكون الى ديوان من الشعر ، فهي تترك في النفس وقعا طيبا ، وتسلل بعض القصص الى اعماق الذاكرة ، وتلامس اغلب القصص شغاف القلب ، وهي على وجه العموم ، تتميز بأسلوب آخاذ ، قصير الجمل ، قوي السبك ، زاخر المعنى ، جميل المبنى · وان كانت بعض « عصافير » **ياسين رفاعية** تغني « مذبوحة من الالم » فان ذلك يعود الى اصالة تتحسس الجرح في بحثها الدائم عن العلاج ·

احمد قاسم

Digitized by Birzeit University Library

قضايا عربية

شهرية فكرية مفتوحة لمختلف الاتجاهات التقدمية

يكتب فيها أبرز الكتاب والمفكرين العرب من كافة اقطار الوطن العربي - تعالج اهم المشكلات والقضايا المعاصرة للامة العربية بروح الالتزام والبحث العلمي وفي مختلف المواضيع : السياسية ، الاقتصادية ، التاريخية ، الادبية ، الثقافية والفنية - أبواب شهرية ثابتة : عرض أهم الكتب - فن تشكيلي - سينما - وثائق - بيليوغرافيا شهرية : القضايا العربية في الدوريات العربية .

رئيس التحرير : د . عبدالوهاب الكيالي

مستشار التحرير : رجاء النقاش

المراسلات : ماهر الكيالي - ص . ب . ٥٤٦٠
بيروت/ لبنان العنوان البرقي : موكيالي - ت : ٣١٢١٥٦ .

Digitized by Birzeit University Library

في المكتبات :

الفلسطينيون ... شعباً

تأليف : كزافييه باروت

ترجمة وتقديم : عبد الله اسكندر

منشورات : دار الكاتب ـ بيروت

حـــاز المرتبة الثالثة في مبيعـــات الكتب في
معرض الكتاب العربي الثاني والعشرين في بيروت

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

تقارير

Digitized by Birzeit University Library

بيان من الامانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

ناضلوا لاطلاق سراح رئيس اتحاد الكتاب الايرانيين

أقدمت سلطات الحكم الرجعي في ايران على اعتقال رئيس اتحاد الكاتب الايرانيين ، محمود المزادة ، ضمن حملة القمع التي تشنها في مواجهة الانتفاضة الشعبية العظيمة التي تهز حكم الطغيان ·

ان الامانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين وهي تحيي الانتفاضة الباسلة لشعب ايران ، تعلن استنكارها لجريمة اعتقال رئيس اتحاد الكتاب الايرانيين ·

ان ثورة الشعب الايراني العظيم تشكل اليوم احدى العلامات المضيئة في انتفاضة الانسان ضد القمع والجهل والتخلف والعبودية ، وهي ايضا حلقة رئيسية في معركة قوى التقدم في العالم ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية · وان تحرير ايران من جلاديها يعني فتح الابواب امام انتصار حركة الجماهير في هذه المنطقة ، الامر الذي يضع على عاتق كل قوى التقدم في العالم مسؤولية التعبير العملي عن التضامن مع الشعب الايراني ·

ان الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الذين يعتبرون انتصار قضية الشعب الايراني انتصارا لقضيتهم ، وان هزيمة الامبريالية في ايران خطوة نحو هزيمة الصهيونية في فلسطين ، يتوجهون بالنداء الحار الى الكتاب التقدميين في العالم للتضامن مع الشعب الايراني وللنضال بكل السبل من اجل اطلاق سراح رئيس اتحاد الكتاب الايرانيين وجميع المعتقلين فورا ، والى تقديم الدعم لكتاب ايران لكي يتمكنوا من اداء دورهم في المعركة العظيمة التي تخوضها الان جماهير ايران

عاش كفاح الشعب الايراني
عاشت فلسطين عربية حرة

الامانة العامة للاتحاد العام
للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

بيروت في ٢٥/ ١٠/ ١٩٧٨

Digitized by Birzeit University Library

خبر صحفي

التقت الامانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين قبل ظهر اليوم (الاربعاء) ١ / ١١ / ١٩٧٨ ، مع الاخ **ابراهيم قليلات** ، رئيس مجلس حركة الناصريين **المستقلين (المرابطون)** ، ضمن سلسلة اللقاءات المتفق عليها بين الامانة العامة للاتحاد وحركة الناصريين المستقلين ·

وحضر اللقاء عن الامانة العامة الاخوة : **حنا مقبل** ، امين سر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، **ورشاد أبو شاور** ، مسؤول العلاقات الثقافية ، **ويحي يخلف** ، مسؤول العلاقات الداخلية ، **وجميل هلال** ، **مسؤول** العلاقات الصحفية ، **وهاني مندس** ، عضو الامانة العامة ، **وعبد القادر ياسين** ، نائب رئيس فرع جمهورية مصر العربية · كما حضر عن « **المرابطون** » الاخ المحامي **رضوان سعادة** ، امين الشؤون الاعلامية لحركة الناصريين المستقلين « المرابطون » ·

وقد تحدث الاخ **قليلات** عن تصوره لطبيعة المرحلة التي تمر بها الثورة العربية ، وأشار الى خطورة الدور السعودي التآمري ، الذي يحاول اجهاض مؤتمر بغداد ، والالتفاف على نتائج ميثاق العمل القومي المعقود بين سوريا والعراق ، واشار الى أهمية تعزيز الاوضاع الداخلية للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ، بما يمكنها من مجابهة الظروف الخطيرة التي تجتازها المنطقة العربية ·

وقد تحدث اعضاء الامانة العامة ، مؤكدين على أهمية التلاحم النضالي بين قوى الثورة العربية ، وعلى ضرورة محاربة كل الاتجاهات الاستسلامية في المنطقة مشددين على اهمية فضح الدور السعودي التآمري ·

وقد تجسدت ، خلال هذا اللقاء ، الذي دام حوالي الساعة ، الروح الكفاحية ، كما تجسدت القناعة المشتركة حول خطورة المرحلة ، التي تقتضي مواقف جذرية من كل الاطراف المؤمنة بالتصدي لمعسكر الاعداء وبمواصلة معركة التحرير ، والمدركة لخطورة مؤامرة الصلح بين السادات والعدو الصهيوني ·

وفي هذا المجال اكد الجانبان على أهمية التلاحم بين سوريا والعراق والمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ·

بيروت في ١/ ١١/ ١٩٧٨

Digitized by Birzeit University Library

خبر صحفي

اجتمع الرفيق **كيريل يانيف** ، النائب الاول لرئيس تحرير جريدة « **انجبهيت الوطنية** »، عضو المجلس الاعلى لاتحاد الصحفيين البلغار ، بوفد الامانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، صباح يوم السبت الموافق ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، وذلك في مقر الامانة العامة للاتحاد ·

وحضر الاجتماع عن الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين كل من الاخوة : **حنا مبل** ، امين سر الاتحاد ، **رشاد ابو شاور** ، مسؤول الشؤون الثقافية في الاتحاد ، **هاني مندس** ، عضو الامانة العامة للاتحاد ، **وعبد العذر ياسين** ، نائب رئيس فرع مصر · كما حضر المقابلة الاخ **محمد خليل** ·

وتبادل الطرفان وجهات النظر حول مختلف الانشطة النقابية والصحافية ·

وابلغ الرفيق **يانيف** ، وفد الاتحاد بأن اتحاد الصحفيين البلغار بصدد تشكيل لجنة للدفاع عن القضية الفلسطينية · كما طلب الى الوفد انتقاء اعمال ادبية فلسطينية جديرة بالترجمة الى البلغارية ، ووعد بنشر كتيب عن القضية الفلسطينية باللغة البلغارية ·

ووعد الاتحاد الرفيق **يانيف** بانتقاء هذه الاعمال ، ومد الاتحاد واللجنة بموضوعات تدخل ضمن نشاطيهما فيما يخص القضية الفلسطينية · كما وعد الوفد الرفيق **يانيف** بالاتصال باتحاد الصحفيين العالميين وبالاتحادات الصحفية الاشتراكية ، وتنظيم زيارات الى المنطقة لوفود من هذه الاتحادات ·

وبعد ان قدم الوفد نبذة عن الاتحاد ونشاطاته المختلفة ، اتفق على استكمال المحادثات في صوفيا ، عند وصول وفد الاتحاد الى هناك ، اوائل العام ١٩٧٩ ·

خبر صحفي

ندوة عالمية للصحفيين حول قضية فلسطين

يعقد الصحفيون التقدميون في العالم اول ندوة عالمية لهم للتضامن مع الشعب الفلسطيني · وستعقد هذه الندوة في صوفيا في بلغاريا وتستمر لمدة اسبوع ، بالتعاون بين كل من الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين واتحاد الصحفيين في بلغاريا والمنظمة العالمية للصحفيين وذلك خلال شهر كانون الثاني القادم ·

Digitized by Birzeit University Library

وقد شكلت الامانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين لجنة عمل للاعداد لهذه الندوة التي تعتبر ندوة يقيمها الصحفيون في العالم حتى الان حول القضية الفلسطينية

وسيشارك في الندوة صحفيون من جميع الدول الاشتراكية اضافة الى ممثلين عن نقابات الصحفيين العرب وعدد كبير من الصحفيين التقدميين في العالم خاصة من اوروبا الغربية ·

هذا وقررت الامانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ان يمثلها في هذه الندوة وفد موسع يتكون من تسعة من اعضائها هم : **ناجي علوش** ، الامين العام ، **حنا مقبل** ، أمين السر ، **بسام ابو شريف**، مسؤول العلاقات الخارجية **رشاد ابو شاور**، مسؤول العلاقات الثقافية ، **يحي يخلف** ، مسؤول العلاقات الداخلية ، **وجميل هلال** ، مسؤول العلاقات الصحفية وعضوي الامانة العامة ، **الدكتور سعيد حمود** ، **هاني مندس** ، **وعبد القادر ياسين** ، نائب رئيس فرع مصر ·

بيروت في ٨/ ١١/ ١٩٧٨

خبر صحفي

نشاطات مشتركة بين الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين واتحاد الكتاب العرب في سورية

قام وفد من اتحاد الكتاب العرب في سورية ، برئاسة السيد علي عقلة عرسان رئيس الاتحاد وعضوية السيدين عدنان بغجاتي ، وياسين رفاعية ، بزيارة الاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين في بيروت · وقد استضاف اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الوفد السوري لمدة يومين وختمت الزيارة باجتماع حضره عن فلسطين الاخوة محمود درويش ، حنا مقبل ، رشاد ابو شاور ، يحي يخلف ، جميل هلال ، وعن سوريا علي عقلة عرسان ، وعدنان بغجاتي ، وياسين رفاعية ، ونوقشت خلال الاجتماع ما نفذ من مواد عبر اتفاقهما السابق ، وقد تقرر ما يلي : ـ

١ ـ اقامة ندوتين في كل من دمشق وبيروت، حول الادب والوحدة العربية، يشارك فيها كتاب ومفكرون من الاتحادين ، وستعقد الندوة الاولى في دمشق ، في شهر نيسان المقبل ١٩٧٩ ، والثانية في بيروت ، في شهر تشرين الثاني المقبل ١٩٧٩ ·

٢ ـ اقامة معرض مشترك في بيروت للكتاب السوري ـ الفلسطيني ، خلال شهر آذار ، وتبني اقتراح ، يقدم للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب ، لاقامة معرض عربي متنقل للكتاب ·

Digitized by Birzeit University Library

٣ ـ الاتفاق على دعوة المكتب الدائم لاتحاد الكتـاب الاسيوي ـ الافريقي للاجتماع في دمشق ، خلال شهر شباط المقبل ١٩٧٩ ، تمهيدا لانعقاد المؤتمر العام ٠

٤ ـ تقديم اقتراح مشترك للاتحاد العام للكتاب والادباء العـرب على انشاء جـائزة سنوية تقديرية لكاتب عربي على انتاجـه ، وجائزة تشجيعيـة باسم (الكاتب العربي) لاحد الكتاب الشباب ٠

وقد تم الاتفاق على مواصلة اللقاء في اطار العلاقات الاخوية الخاصة بين الاتحادين وبقية الاتحادات العربية ، من أجل تعزيز النضال الفكري الواحد للامة العربية ٠

بيروت ٢/ ١٢/ ١٩٧٨

الاخ **صبري جريس**

مدير عام مركز الابحاث

اقدم استقالتي من العمل في مركز الابحاث اعتبارا من ١٩٧٨/١١/١ ، لانني المس من كل تصرفاتك معي رغبة مكبوتة في « تطفيـني » من العمل ٠ وما الاشكالات الاداريـة التي تفتعلها من حين لآخر ، الا تعبيرا عن هذه الرغبة ٠ وللاسف فان هذه الرغبة تطـال العديد من الأخوة العاملين في المركز ٠

أنني أربأ بنفسي أن أدخل معك في « مناكفات » ادارية ولقد أوضحت لك ذلـك منذ تعيينك مديرا عاما للمركز ، عارضا التعاون مـع ما يستلزم ذلك مـن توفير شروط هذا التعاون وأهمها ، الحفاظ على استقلالية المركز العلمية وعدم طبعه بطابع خاص ٠

وللأسف ، فان النهج الذي انتهجتـه في ادارة المركز وفي تحديد سياسات عملـه المختلفة ، فتح المجال واسعا لضرب هذه الاستقلالية ، والانحراف بالمركز عـن الغايات والأهداف التي أنشأ من اجلها٠ ولا بد أن أشير هنا الى أن كل مضايقتك لي في بحثي عـن « الشخصية الوطنية الفلسطينية » ليست الا محاولة لايقاف العمل بهذه الدراسة ، بعد ان تبين لك ان منحاها العام ومنهجها ، لا يتوافق مع رأيك ومنهجك ٠

لهذه الاسباب ، ولاسباب اخرى غيرها تجدها طيه في الرسالة التي وجهتها الى الاخ رئيس اللجنة التنفيذية موضحا فيها أسباب استقالتي ـ اقدم استقالتي اعتبارا من التاريخ المذكور اعلاه

بيروت ٣١/ ١٠/ ١٩٧٨

غازي الخليلي

Digitized by Birzeit University Library

الاخ رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية المحترم

الاخوة اعضاء اللجنة التنفيذية المحترمون

الاخوة الامناء العامون لفصائل الثورة الفلسطينية المحترمون

تحية الثورة ،

لا شك أن محاولة تقويم الاخطاء باللجوء الى الاستقالة عمل سلبي ، ولكن في ظروف معينة ، تصبح الاستقالة مطلبا ، وصرخة احتجاج لا بد منها · لقد قدمت استقالتي من عملي في مركز الابحاث بعد أن استنفدت كل الجهود الممكنة للحد من أساليب العمل الخاطئة التي انتهجها الاخ **صبري جريس** منذ عين مديرا عاما لمركز الابحاث · وعلى الرغم من أنني كنت من جملة الكثيرين الذين رأوا أن قرار تعيين **صبري** مديرا عاما لمركز الابحاث كان قرارا متسرعا وخطوة الى الوراء ، فقد تحملت مع معظم العاملين في المركز مرارة هذا التعيين ، لان الظروف السياسية التي تمر بها ثورتنا هي اكبر من مشكلة تعيين **جريس** مديرا للمركز ، وتصرفنا بكل روح ايجابية وأبدينا تعاوننا بما يساعد على تطوير مجالات العمل المختلفة في المركز ، والحفاظ على مكانته العلمية والسياسية ، التي اكتسبها بجهود الكثير من الاخوة الذين عملوا فيه

ولكن للأسف ، فقد قابل الاخ **جريس** هذه الروح الايجابية ، بروح سلبية وبتفرد كامل في المسؤولية ، محاولا فرض آراءه وأفكاره على الجميع ، مهددا بالطرد والحرمان من العمل كل من يبدي أدنى معارضة لرغباته ، أو أي نقد لأجراءاته وممارساته · وقد أدى كل ذلك الى استقالة عدد من الاخوة ، وتفكير عدد آخر بالاستقالة اذا ما استمر الوضع في المركز على ما هو عليه ·

لقد طبع الاخ **جريس** كل مجالات العمل في المركز بضيق أفقه وبنظرته الاحادية الجانب، فعمل على « تطفيش » الباحثين الذين يعملون في المركز منذ سنوات ـ مثل الاخ **هاني مندس** ـ بحجج ادارية واهية ، وبالتعسف في استعمال حقه الذي يخوله اياه نظام الموظفين الاساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية · وحول البحث الى مجرد كتابة للتقارير وجمع للمعلومات · وأخذ يتدخل بشكل لا موضوعي في عمل الباحثين ، فارضا آراءه ومفاهيمه السياسية على ابحاثهم · كما عمل على ايقاف نشر عدد من الدراسات والابحاث التي اقرتها الادارة السابقة ، دونما سبب واضح ، اللهم الا كونها لا تتفق مع آرائه السياسية ـ مثل ايقافه نشر كتاب « الصهيونية » من تأليف **أميل توما** ـ ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل وقف ضد اقامة اية علاقات بين المركز والمؤسسات البحثية والعلمية المشابهة له في البلدان الاشتراكية ، وسعى جاهدا لتخريب ما بناه المركز ـ سابقا ـ من علاقات جيدة مع مثل هذه المؤسسات ·

Digitized by Birzeit University Library

ولم تنج المكتبة العامة ولا قسم الوثائق ـ اللذان يعتز بهما كل عامل في المركز ايمـا اعتزاز ـ من ضيق أفقه ونظرته الاحادية · فأوقف الاحتفاظ بأدبيات المقاومة الحديثة ، مقتصرا الاحتفاظ على بعض ما يراه هو ـ شخصيا ـ مهما !! وانفرد ، وحده ، بتقـرير سياسة مقتنيات المكتبة ، فمنع الكتب الادبية ، والكتب التي تعالج الاوضاع العربية ، بدعوى أن لا ضرورة لها !! ان هذا النهج الانتقائي في الاحتفاظ بالوثائق واقتناء المكتب لا يعود بالضرر الكبير على المركز وسمعته ومكانته فقط ، بل يشكل مقدمة لتوجيه السياسات البحثية في المركز وجهة محددة تتفق مع مفاهيم الاخ **جريس** وارائه السياسية ·

لا شك أن استمرار هذا النهج الخاطىء في مركز الأبحاث ـ دون الوقوف امامه بجدية ومسؤولية ـ سيفقد هذه المؤسسة ، التي نعتز بها جميعا ، مكانتها واعتبارها ، ويجعل منها مؤسسة خاصة للاخ **جريس** · لقد انشأت **منظمـة التحرير الفلسطينيـة** مركز الابحاث في العام ١٩٦٥ ، ليكون مؤسسة فكرية ، علمية وسياسية ، لها استقلالها العلمي ، تعنى بالفكر الفلسطيني وبجمع وحفظ كل ما يتعلق بالقضية الفلسطينية من وثائق وأدبيات وكتب ، كما تعنى بتعميق الوعي بالقضية الفلسطينية ونشر الأبحاث والدراسات المتعلقة بها · لقد حقق المركز خلال السنوات الماضية انجازات جيدة ، عانى من بعض الاخفاقات · وفي فترة مـن الفترات كان المركز يضم عددا وفيرا من خيرة الباحثين ، تركت اعداد كبيرة منهم عملها في المركز نتيجة الاشكالات و « الصراعات » التي بدأت تبرز في المركز اعتبارا من العام ١٩٧٤، وهي اشكالات يتحمل الاخ **جريس** جزء الاكبر منها ·

لقد عانى المركز خلال عامي ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ، واوائل العام ١٩٧٦ ، مـن اشكالات و « صراعات » داخلية بين مديره العام الاسبق **الدكتور انيس ألصايغ**، وبين **صبري جريس وعصام سخنيني** · ولقد ترتب على هذه « الصراعات » ، التي كانت في معظمها لا مبدئيـة وشخصية ، احداث خلل كبير في عمل المركز ونشاطاته ، ممـا حـدا بعدد من الاخوة العاملين في المركز الى التدخل لاخراج المركز من هذه الاجواء الضارة، ودعموا تشكيل ادارة جديدة كما اقرها الاخ رئيس اللجنة التنفيذية في نيسان ١٩٧٦ ، ويشرفني انني كنت أحـد أعضاء هذه الادارة · ولقد استطاعت الادارة الجديدة بتظافر جهود معظم الاخوة العاملين، وخلال اقل من سنة ، أن تعيد المركز الى نشاطه وحيويته السابقين، وأن تدفع بتطوير مجالات عمله المختلفة ، على الرغم من الحصار المالي الذي كان مفروضا على المركز ·

لقد وقف الاخ **جريس** موقفا سلبيا من الادارة الجديدة ، وعمل على شل نشاط قسـم الدراسات الاسرائيلية الذي كان مسؤولا عنه ، أحيانا ، بدعوى أنه ليس معنيا بتنشيط عمل القسم في ظل الادارة الجديدة ، واحيانا اخرى ، بدعوى انه سيغادر المركز لاستلام مكتب **منظمة التحرير الفلسطينية** ، والذي كان يجري العمل على فتحه في واشنطن ·

ان محاولات الاخ **جريس** لطبع المركز بطابعه ، وفرض آرائه على كل مجالات العمـل فيه بعد ان اصبح مديره العام ، سيجعل مصيره شبيها بالمصير الذي انتهى اليـه مركز التخطيط ·

Digitized by Birzeit University Library

انني بوازع من ضميري ، وبحرصي على **مركز الابحاث** الذي عملت فيه اكثر من اربع سنوات ، أناشدكم أن تولوا هذه المسألة ما تستحقها من اهتمام · ،لا شك أنكم توافقون معي الرأي ، أن تمكين **مركز الابحاث** من أداء مهماته وتوفير شروط نجاحه ، باعتباره مؤسسة للشعب الفلسطيني ، أمر يستحق الاهتمام · ولا شك ايضا ، **ان احد الشروط الأساسية لنجاح المركز ، أن يكون على راسه شخصية تتمتع بثقة الجميع ، كما تتمتع بمكانة علمية وبافق سياسي واسع** · شخصية تكون عاملا على توفير الاستقلال العلمي للمركز ، بما يساعد على تطويره ودعم نشاطه البحثي ، بنفس الوقت الذي توفر فيه بافقها السياسي الواسع ، أفضل الاجواء لتفاعل جميع الآراء ضمن الخط العام لثورتنا ولمنظمة التحرير الفلسطينية · وباستثناء الكفاءة العلمية ، كشرط لا بد من توفره لمن يعمل في المركز ، فان الهوية السياسية او الانتماء السياسي ، لم يكن يشكل شرطا أو قيدا · لقد كان الحفاظ على الاستقلالية العلمية للمركز ، احد الاهداف التي عمل اكثر الاخوة العاملين على تاكيده ، وتكريسه كمقوم اساسي من مقومات المركز ·

انني اذ اقدم هذه المذكرة ، فانني ارجو ان تنال ما تستحق من اهتمام ، ولي كبير الثقة انكم وانتم تتوجهون لتدعيم وحدتنا الوطنية في مواجهة الظروف التي تواجهها ثورتنا وقضيتنا ، ستعطون بعضا من وقتكم لهذا المركز ، الذي يعتبر مؤسسة من مؤسسات **منظمة التحرير الفلسطينية** ·

واذا جاز لي الاقتراح هنا ، فانني أرى أن المشكلة ليست مشكلة مركز الابحاث فقط ، بل هي مشكلة كل مؤسسات البحث الفلسطينية ، والتي تعاني جميعها ـ تقريبا ـ المشكلات نفسها · وعليه ، فانني اقترح تشكيل لجنة من ذوي الكفاءات والاختصاص ، لاعادة النظر في وضع مؤسسات البحث الفلسطينية ـ واقعها ومستقبلها ـ وان تعطى هذه اللجنة الصلاحيات الكافية للوقوف على حقيقة ما يجري في هذه المؤسسات ، والتوصية بما يدعمها ويطورها ، ويوفر لها الشروط الاساسية للقيام بمهماتها ·

عاشت الثورة ،

وانها لثورة حتى النصر ،

غازي الخليلي
باحث ورئيس تحرير اليوميات الفلسطينية
في مركز الابحاث

بيروت في ٣١/ ١٠/ ١٩٧٨

Digitized by Birzeit University Library

نص العريضة المقدمة من العاملين في مركز الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية الى الاخ ابو عمار

الاخ القائد العام للثورة الفلسطينيـــة ، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمـــة التحرير الفلسطينية ·

تحيـة الثـورة ،

نحن الموقعين ادناه ، العاملين في مركز الابحاث الفلسطيني ، نرفع اليكم هـــذا الكتاب ، آملين ان نلفت اهتمامكم الى مجموعة من القضايا التي تجري في المركز ، والتي يهمنا اطلاعكم عليها بوصفكم قائدا للثورة ومسؤولا عن مجمل اوضاع المؤسسات الوطنية الفلسطينية ·

فالاخ **صبري جريس** ، المدير العام لمركز الابحاث ، يمارس ، منذ تسلمه لصلاحياته مجموعة من التصرفات التي تسيء الى المركز والعاملين فيه · فقد اقدم بعد ثلاثة اشهر من تاريخ تعيينه على حل هيئة ادارة المركز والتي عينها بنفسه ، وهيئة امانة السر بحيث الغي بذلك عرفا لادارة المركز منذ تأسيسه · كما رفض ، بقرار حل هيئة امانـــة السر ، اقامة اية علاقات اجتماعية او ثقافية بين الاخوة العـــاملين كانت تتم بزيارة الاخوة في المناسبات الخاصة ومشاركة الاخوة المقاتلين في قواعدهـــم بزيارات وطنيـــة وتقديم بعض الهدايا الرمزية لهم ·

كما انه يتعمد عدم احترام العاملين كمجموعة وكافراد وتوجيه الاهانات والشتـــائم لهم ، مما يتنافى مع تقاليد العمل في المركز القائمة على الاحترام المتبـــادل · كما انه لا يتورع ، وبشكل دائم ، من استخدام سلاح قطع الارزاق امام كل رأي معارض ، او حتى لا يعجبه احد الاشخاص · فهو لا يكتفي بالشتائم والاهانات بل يصل به الامر الى حـــد الحسم من المرتبات وسحب اسماء الموظفين من الترشيح لملاك م·ت·ف ، التي كانت قد نسبت منه ، ومنعهم من التدرج وتوجيه الانذارات لهم بعد ان يكون قد وجه اليهم الاهانات والشتائم · وتمثل الان حالة الاخ ناشي طه ، رئيس قسم الارشيف الصحفي في المركـــز النموذج الاوضح على هذه التصرفات ·

Digitized by Birzeit University Library

اننا نناشدكم التدخل من اجل اعادة الامور الى نصابها داخل المركز ، واعـــادة العلاقات الاخوية بين مجموع العاملين عبر ايقاف الاهانات وايقاف التهديد بقطع الارزاق . والمحافظة على تقاليد الهيئات المذكورة ، في المركز ودعمها .

وثورة حتى النصر .

التوقيعـــات : _____

فاطمة ابو القاسم
حسين ابو النمل
سليم بركات
محمد حسن
صابر حنون
هايل خرطبيل
الياس خوري
محمود درويش
حسن سالم
عبد الله سكران
رفيق سيد
صلاح عبد الله
فريال عبد الرحمن
اجلال عبدو
توفيق فياض
صباح كرديه
عبد الحفيظ محارب
رباح مصطفى
محمود نجار
ايمان ياسين
نزيه ياسين
محمود عيسى
محمد ابو النصر

زاهي الاقرع
زها بسطامي
جاكلين جريصاتي
هدى حريري
فاطمة الحسيني
جهان حيدر
هيام خطيب
غازي دانيال
علي دكروب
محمد سالم
تحرير سماوي
ناشي طه
درية عبد الرحمن
انعام عبد الهادي
كاترين الفار
نزيه قورة
علي كنعان
عصام مسلماني
شاديه المعتصم
فوزي وهبه
طلال ياسين
مكرم يونس
هاني مندس

Digitized by Birzeit University Library

العابدي والافغاني ورشيدات على طريق الخلود

تنعي الامانة العامه للاتحاد العام للكتـاب والصحفيين الفلسطينيين الاديبين الوطنيين الفلسطينيين محمود العابدي ومحمود الافغاني والمناضل الوطني الاردني شفيق رشيدات ·

محمود العابدي

- ولد في قرية عصيرة الشمالية ، سنة ١٩٠٧ ·
- اتم دراسته الابتدائية في المدرسة الصلاحية بنابلس ، ثم التحق بدار المعلمين بالقدس سنة ١٩٢٣ · ثم عمل مدرسا في المدرسة الصلاحية بنابلس ·
- نقلته سلطات الانتداب البريطاني ١٩٢٩ الى مدرسة بيت لحم بعد ان اتهمته بتدبيـر اضراب طلاب الصلاحية ، في هذه السنة ·
- بعد اربع سنوات تم نقله مديرا لمدرسة في صفد ·
- بعد الكلية ، عين مدرسا في الكلية العلمية الاسلامية بعمان ، ثم تنقل في عدة وظائف في التربيه والاثار والفنون والثقافه ·
- انتخب عضوا في الهيئه الادارية لرابطة الكتاب الاردنيين في صيف ١٩٧٥ ·
- نشر الفقيد عدة كتب ، اشهرها :
  مخطوطات البحر الميت ، للباطل جولة (مسرحية) ، بن غوريون وبنـاة اسرائيل ، مأساة بيت المقدس ، قدسنا ، الآثار الاسلامية في فلسطين والاردن ، الوطن العربي نحو تنمية اقتصادية ووحدة سياسية ·
- وافته المنية في مطلع تشرين الاول (اكتوبر) الماضي ، في عمان ·

محمود الافغاني

- ولد في يافا عام ١٩٢٥ ، وتاثر بوالده الحاج عبد الحميد الافغاني ، المهتم بالاثار وامور الدين ، والمتابع للادب الفارسي والتركي ، معا ·
- تلقى علومه الابتدائية فـي مدرسة العلوم الاسلامية بيافا ، لكنه تركهـا قبل ان ينهي الصف الرابع الابتدائي ·

Digitized by Birzeit University Library

- نظم اول قصيدة ، حين كان في التاسعة من عمره ، بعنوان « أمي » ، ونشرتها لـه جريدة فلسطين ·

- وتعهده ، اضافة الى والده ، كل من الشيخين **اسماعيل الريماوي وسليم اليعقوبي** · وعلى ايديهم اجاد العربية والفارسية والعبرية والانكليزية ·

- نظم عشرات القصائد الوطنية واشتهر بلقب « **شاعر الشباب** ·

- هاجر شاعرنا ، بعد النكبة ، الى بيت لحم ومنها الى السلط ، وواصل نشاطه الشعري في الصحف اليومية واذاعتي القدس وعمان

- اتسم شعره بالحنين الى ثرى الوطن ، وحض جماهير الشعب على العمل من اجل تحرير فلسطين المغتصبه ·

- وافته المنية في عمان ، في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ·

شفيق رشيدات

- ولد في مدينة اربد ، عام ١٩١٨ ·

- واتم دراسته الثـانوية بالاردن ، وحصل على ليسانس الحقوق من جامعـة دمشق عـام ١٩٤١ ·

- انتخب عضوا في مجلس النواب الاردني ، عام ١٩٤٧ ·

- اصبح وزيرا للعدل عام ١٩٥٣ ، ثم وزيرا للمواصلات

- ساهم في تأسيس **الحزب الوطني الاشتراكي** في الاردن ، عام ١٩٥٤ ، وهو الحزب الذي اسهم في الحياة السياسيـة بالاردن اواسط الخمسينات ، ونجـح في قيادة الفترة القصيرة التي حازت فيها القوى الوطنية التقدمية على الاغلبية البرلمانية ، في انتخابات خريف ١٩٥٦ · وان نجح النظام الملكي الرجعي في الاردن من اغتيال هذه المرحلة ، في ربيع ١٩٥٧ ·

- وفي الانتخـابات المذكورة ، كان شهيدنا واحدا من اثني عشر نائبـا نجحوا عن **الحزب الوطني الاشتراكي** ·

- وفي اعقاب هذه الانتخابات عهـد الى **سليمان النـابلسي** ، رئيس **الحزب الوطني الاشتراكي** ، بتشكيل الوزارة ، فاختار شهيدنا وزيرا للتربية والتعليم والعدلية ·

- اصدر مجـلة حملت اسم « الميثـاق » · لم يمتد العمر بها طويلا ·

- انتخب امينا عاما لاتحاد المحامين العرب ، منذ مؤتمره الاول ، عام ١٩٦٤ ، وشغل هذا المنصب حتى وفاته ·

- وافته المنية في صباح التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ·

Digitized by Birzeit University Library

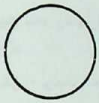

موسوعة الفولكلور الفلسطيني

اعداد : نمر سرحان

صدرت الأجزاء : الأول ، الثاني ، الثالث ، والرابع

تطلب من

في لبنان : مؤسسة نوفل ـ بناية مركز الأطباء ـ جانب مستشفى الجامعة الأميركية ـ بيروت

سوريا : مكتبة النوري ـ دمشق

الاردن : مكتبة رامي ـ أكرم ابو شنب ـ شارع الحتيام ـ عمان

أو من رئاسة الموسوعة : عمان / الاردن ص. ب. : ٣٠٠٤

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library